«مقدمة»

محمد بن عبدالوهاب وعالمه المعاصر

ولد محمد بن عبدالوهاب، زعيم الوهابيين وشيخهم سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م في قرية العُيينة، في منطقة العارض بنجد[١]. كانت ولادته متزامنة مع تطورات مهمة في البلاد المحيطة به ولذلك، فقد ترعرع الشيخ محمد في جو مختلف عن أسلافه.

وكانت الدولتان المقتدرتان الصفوية في أصفهان والسلاطين العثمانيين في إستانبول، في بداية عهد الضعف والانحطاط: فلقد سقطت أصفهان، عاصمة الشاه سلطان حسين الصفوي، على يد الأفغان في قندهار، وذلك بعد عشرين سنة من ولادة محمد بن عبدالوهاب[٢] كما تقوضت دعائم الدولة الشيعية المسيطرة على المناطق الفارسية. وحدثت منذ هذه الفترة تقريباً، تحولات مهمة في ساحة السياسة الداخلية للدولة العثمانية أيضاً: فقد بلغت التغييرات المتتابعة لرجال الحكم حداً بحيث تعاقب على منصب الصدر الأعظم في الدولة العثمانية أكثر من

---

١. تعلم عند أبيه قراءة القرآن الكريم والصرف والنحو ثم انشغل بدراسة الفقه على أساس مذهب أحمد بن حنبل. ينحدر نسبه من بطن حنظلة ابن مالك بن زيد مناة من بني تميم. حسين خلف شيخ خزعل، تاريخ جزيرة العرب في عصر شيخ محمد بن عبدالوهاب، دار ومكتبة الهلال، بيروت، صص ٥٢ ـ ٥٦.

٢. ١١٣٥هـ/١٧٢٣م.

٦٢ شخصاً في فترة امتدت لـ ١٢٠ عاماً. كما كان حكم السلاطين قد تزعزع بفعل تأثير عناصر جديدة من السلطة في جهاز الخلافة مثل القادة الانكشاريين[١] وكذلك العودتيين[٢]. كما كانت التنافسات داخل الحرم وكذلك استغلال الولاة وحكام رقعة الدولة العثمانية المترامية الأطراف تزيد من اضطراب أوضاع البلاط العثماني. وهكذا، كان انهيار التركيبة السياسية للدولة التي كانت تعد في وقت من الأوقات تهديداً فعلياً لجيرانها الأوروبيين والدولتين المقتدرتين الصفوية والروسية أيضاً، قد بدأ شيئاً فشيئاً.

كما كانت هنالك تطورات جديدة تحدث دوماً في العالم الخارجي للمنطقة التي ولد فيها الشيخ وترعرع. فكان حلول السفن الشراعية السريعة محل السفن المجذافية والشراعية الصغيرة، في أساطيل بلدان أوروبية مثل فرنسا وبريطانيا، قد هيأ عصراً جديداً من الاهتمام بالمناطق البعيدة. وكانت القوى البحرية الحديثة الظهور، مثل فرنسا وبريطانيا، قد استطاعت بقوة أساطيلها أن تسيطر على قسم من الإرث البرتغالي الإسباني. وكانت قد بدأت التنافس في مجال توسيع رقعتها منذ هذه الفترة نفسها من خلال الاعتماد على المناطق التي تسيطر عليها مثل الهند.

وكان العنصر المهم الآخر، إحلال النقود الورقية محل النقود المعدنية المتداولة في نظام أوروبا المالي. ورغم أن النقود الورقية الإئتمانية التي استخدمت لأول مرة في فرنسا لمواجهة الأزمات المالية، لم تتمخض في الخطوة الأولى عن تجربة ناجحة، إلا أنها أدت على مر الزمن إلى أن يزداد بشكل ملفت للنظر حجم التبادلات التجارية بين البلدان المختلفة[٣].

---

١. الجنود الحديثو العهد بالإسلام في المناطق الخاضعة للدولة العثمانية.

٢. اليهود الحديثو العهد بالإسلام.

٣. كان أحد أهالي إسكتلندة ويدعى لاو Law قد اقترح على لويس الرابع عشر النظام المالي الجديد ←

وكان مسار المبادلات المالية وكذلك نوع البضائع والسلع التجارية في التبادل من الشرق إلى الغرب، قد دفع القوتين إلى أن تمرران سفنهما التجارية من المياه الساحلية لطريق الهند إلى أوروبا. وبناء على ذلك، فقد كانت المحافظة على أمن طرق الملاحة البحرية، عن طريق نشر القوات العسكرية، أو التفاهم السياسي، سواء مع الحكومات، أم سكان السواحل، تستوجب دبلوماسية نشطة من قبل هذين البلدين في المنطقة المحيطة بمسقط رأس الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

وكان قسم آخر من هذه الضرورة معنياً بوجوب فتح مكاتب تجارية، أو وكلاء مستقلين تثق بهم هذه الحكومات، في البلدان موضوع البحث بهدف نقل المصادر المالية وتأمين النفقات. وبناء على ذلك، فقد بدأت دعوة زعيم الوهابيين، في عصر جديد وفي منطقة كانت قد تواجدت فيها عناصر غير محلية أكثر، قياساً إلى العهود السابقة في المناطق الخاضعة لسيطرة إيران والدولة العثمانية.

وبالطبع فقد كانت أجزاء واسعة من شبه الجزيرة العربية، صحراوية وقليلة الموارد المائية إلى حد كبير وكان الانتشار السكاني قد حول لهذا السبب ممارسة الحكم على الرعايا إلى وضع غير متواصل ومنقطع بالنسبة إلى الدولة العثمانية التي كانت تعتبر نفسها الحاكم على البلدان العربية وكانت مثل هذه الأوضاع تهيء في مناطق نجد المختلفة ظروفاً مناسبة لأي نوع من نشاطات الحكام، الشيوخ وأمراء القبائل، باعتبار تلك المنطقة إحدى المناطق الخارجة عن سيطرة دولة

← الذي كان يقوم على نشر النقود الورقية. وبهذا الإجراء بدأ البنك الحكومي وإحدى شركات المستعمرات عملهما على أساس قيمة الأسهم والسندات المصرفية لأول مرة وأدى ذلك إلى أن تنحسر دورة المسكوكات بشكل ملفت للنظر في المبادلات المالية التي كان نقلها قد تحول إلى مشكلة عويصة.

الأتراك العثمانيين[١].

ولذلك فقد حدثت في السنوات المنتهية بولادة الشيخ محد بن عبدالوهاب وحتى أواسط بروز أسرة سعود، تحت إمارة الأمير عبدالعزيز الأول، مجموعة من المعارك، الحروب والاشتباكات العنيفة بين قبائل نجد وما حولها[٢]. وعلى سبيل المثال فقد دامت المعارك بين إمارة الدرعية وجارتها الرياض لفترة استمرت ٢٨ عاماً[٣].

وكانت هنالك مجموعة من العوامل قد أدت إلى أن يشعر أهالي نجد في ذلك

---

١. يرى الباحثون السعوديون أن نجداً لم تكن ضمن رقعة الدولة العثمانية واستندوا من أجل إثبات ادعائهم إلى عدم دفع النقود وفقدان الدولة العثمانية لنفوذها من أجل ممارسة حكمها. انظر: في هذا المجال: مرسال عبدالله مرسال المحمادي، موقف المستشرقين من دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب، رسالة جامعية لنيل درجة الماجستير من كلية تبليغ أصول الدين في جامعة أم القرى، العربية السعودية، صص ١٧٤ ـ ١٧٥. ولكن يجب القول خلافاً لهذا الرأي إن نجداً كانت قد سجلت حسب التقسيمات الإدارية لأوائل القرن ١٩م في نطاق توابع ولاية البصرة إلى جانب المنتفق والعمارة. انظر في هذا الصدد المقدمة المكتوبة على كتاب: أيوب صبري باشا، مرآة جزيرة، ترجمة فؤاد متولي والصنصافي أحمد الرسي، القاهرة، الآفاق العربية، ١٩٩٩م، ص ٢٠.

٢. في بداية القرن ١٢هـ كان لآل معمر إمارات في العيينة، آل سعود في الدرعية، آل دواس في الرياض، بني خالد في الإحساء، آل هزال في نجران، آل علي في الحائل، آل حجيلان في القصيم وآل شبيب في شمال نجد وكانوا يتنازعون فيما بينهم من حين لآخر، بحيث أن هذا العامل نفسه كان قد أدى إلى أن لا تتمتع إماراتهم بشكل عام بالثبات والاستقرار.

٣. انظر: لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب، تحقيق أحمد مصطفى أبو حاكمة، لبنان؛ بيبلوس الحديثة، ١٩٦٧م، ص ٣٦، يجب التذكير بأن التاريخ القديم لشبه الجزيرة العربية، كان قد حفل هو أيضاً في عصر ما قبل الإسلام، بالحروب والنزاعات غير المجدية والطويلة الأمد بين القبائل المختلفة، قد ذكرت في الآداب التاريخية للقرون الهجرية الأولى، بالعنوان العام «أيام العرب» وقد اهتم عدد من الرواة والمؤرخين المعروفين إلى جمع الأخبار والأدب الأسطوري لهذه الحروب (للتفاصيل، ظ: دائرة المعارف بزرگ اسلامي، ج ١٠، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٤). لفهم أفضل للأجواء السياسية والمنافسات بين إمارات نجد خلال سنين، أنظر أيضاً: عبدالفتاح أبو عليه، محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى، الرياض، دار المريخ للنشر، ١٩٩١م، صص ٢٣ـ٢٤.

الجو البسيط بالظروف المعيشية القاسية أكثر من السابق بكثير، حيث كان هذا الشعور مقترناً بالحسد والغضب: ولم تكن هذه الظروف القاهرة تقتصر على عدم الاستقرار السياسي وقسوة الطبيعة في هذا الإقليم الصحراوي وانتشار الأمراض المعدية والاختلافات الداخلية بين القبائل وحسب[١]، بل إن المناطق الساحلية من الحجاز أو الخليج الفارسي، كانت قد فاقت نجداً من أهميتها بسبب حركة السفن التجارية ووجود أماكن الزيارة المهمة مثل الحرمين الشريفين في الحجاز وكذلك العتبات المقدسة في العراق وكان أهالي نجد قد تعرفوا على هذه المناطق وأقاموا العلاقات معها من أجل تأمين احتياجاتهم، سواء مياه الشرب، أم المواد الغذائية[٢].

قصة الشيخ:

يتمتع علم الاجتماع التاريخي في تلك العهود بأهمية خاصة في إصدار الأحكام فيما يتعلق بأرضيات ظهور عقائد الشيخ محمد بن عبدالوهاب والاستنتاج من تعاليمه هو وشخصيات أخرى مثل ابن تيمية. وقد كان للبيئة المحيطة بالأجواء الداخلية لمنطقة نجد، ورغم كل مشاكلها المعيشية، تأثير عميق بلغ ذروته بحيث أن إحدى الروايات تفيد بأن الطراز المعماري لبيوت أهالي نجد كان متأثراً بالطراز الإيراني بشكل كامل[٣].

---

١. كانت تنتشر أمراض خطيرة مثل الطاعون والوباء في مواسم الحج وعلى إثر تردد القافلات العديدة التي كانت تختار طريق الصحراء للوصول إلى الحرمين الشريفين، فضلاً عن عدم رعاية السكان المحليين للقواعد والتعليمات الصحية.

٢. يدل نمو موانئ مثل مسقط، بوشهر، الكويت في القرنين ١٧ و ١٨م الميلاديين على زيادة التبادلات والازدهار التجاري في المنطقة. وعلينا أن لا ننسى أن الميناء الوحيد المستحق للاهتمام في منطقة هرموز، تأسس قبل هذا التاريخ بمائة ونيف من السنين قبل أن يكون له دور تجاري، وذلك بهدف تأمين تردد السفن وباعتباره القاعدة المهمة للقوات البرتغالية.

٣. لمع الشهاب، ص ١٧٩.

وكان الشيخ محمد بن عبدالوهاب في عهد نموه الفكري كأهالي نجد الآخرين: يعتقد بمواجهة التأثيرات في خارج البيئة المحلية لنجد والمحافظة على التقاليد والمعتقدات.

وقد هاجر الشيخ الشاب في الحادية والعشرين من عمره إلى المدينة ثم إلى الأحساء من أجل المزيد من الدراسة. وقد تلقى العلم في المدينة من الشيخ عبدالله إبراهيم بن يوسف آل سيف وفي الأحساء من عبدالله بن عبدالله بن عبداللطيف الشافعي الأحسائي[١]. وبالطبع فإن معلوماتنا عن تفاصيل حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، كما هو الحال بالنسبة إلى معلوماتنا عن أوضاع نجد السياسية والاجتماعية، محدودة للغاية بل إنها تقف أحياناً عند بعض الإشارات المختصرة[٢].

وهنالك عقبات تقف في طريق كل باحث حول حياة إمام الوهابيين من مثل الروايات المختلفة، الأوصاف غير الدقيقة، الأحكام المزاجية والمعلومات غير الدقيقة التي تكون أحياناً معقدة وغامضة. وهنالك كتاب باسم لُمَع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب، وهو أثر لمؤلف بقي مجهولاً إلى يومنا هذا، حيث يعد هذا الكتاب أهم المصادر وربما المصدر الوحيد القريب من عهد حياته. وقد كتبت المخطوطة الوحيدة لهذا الكتاب، بقلم كاتب قدم نفسه باسم الحسن ابن الجمال ابن أحمد الريكي، وتاريخ الانتهاء من الكتابة هو يوم الأحد ٢٦ محرم سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٧م، أي قبيل سقوط الدرعية، المركز السياسي لدولة الوهابيين السعوديين.

---

١. عثمان بن عبدالله بن بشر النجدي، عنوان المجد في تاريخ نجد، مطبوعات دار الملك عبدالعزيز، الرياض ١٤٠٢هـ ص ٣٦ ـ ٣٧.

٢. لمشاهدة مثل هذه الآثار، انظر إلى أثر لمؤلف مجهول: كيف كان ظهور شيخ محمد بن عبدالوهاب، تحقيق عبدالله صالح العثيمين، الرياض، جامعة الملك سعود، ١٩٨٣م.

وقد ذُكر في وصف ظاهر النسخة أن هذا الأثر تم تحريره على ورق أبيض من صنع إيطاليا بخط النسخ وبقلم أضخم من التقليد المتبع في كتابة المخطوطات الإسلامية[١]. وتظهر المعلومات المدرجة على حاشية الصفحة الأخيرة من المخطوطة أن هذا الأثر الفريد من نوعه، كان في البدء ملكاً لزوجة القبطان الإنجليزي ، تايلور، أحد مفوضي بريطانيا في الخليج الفارسي وقد اشتراه المتحف البريطاني في سنة ١٨٦٠م. وكان روبرت تايلور يخدم في مشاة القوة البحرية الثالثة في بومباي بدرجة نقيب وكان يقيم في قنصلية بريطانيا في البصرة بين سنة ١٨١٠ إلى ١٨١٨م كمساعد للمستشار السياسي[٢]. وقد أوضح المستشرق الأمريكي الشهير، مايكل كوك، من خلال الاستناد إلى الوثائق الرسمية الحكومية، أن تايلور غادر المنطقة في أوائل سنة ١٨١٧م واشتغل بالخدمة في منصب جديد بسنغافورة[٣]. كما خدم تايلور في الدورة الثانية من مهمته، خلال الفترة بين سنة ١٨٤٣ حتى ١٨٢٢م كمستشار سياسي في منطقة البصرة[٤]. كما كان ابنه ج. تايلور الوكيل السياسي لبريطانيا في البصرة من ٨ آب ١٨١٥م وحتى أيلول ١٨٥٨م. جدير ذكره أن دورة خدمة تايلور، وخاصة الدورة الأولى من خدمته كانت متزامنة مع دورة مهمة من التاريخ السياسي للوهابيين في إمارة نجد. كما تم تشكل واستقرار أول سلالات آل سعود واتساع نطاق سيطرتها والهجمات التي شنتها القوى الخاضعة لأوامرها في هذه الفترة نفسها بالضبط.

ويذكر كوك، تايلور، صاحب هذه المخطوطة الفريدة من نوعها، أنها تشتمل

---

١. ج. ج لوريمر، دليل الخليج، قطر، مكتبة أمير، دولة قطر دون تاريخ، ج ٧، ص ٣٩٤٣.

٢. مايكل كوك، منشاء أصلي كتاب لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب، ترجمة محمد حسين رفيعي، آينه پژوهش، السنة ٢١، العدد الثاني [خرداد/ تير ١٣٨٩] ص ١٧٨.

٣. لوريمر، ج ٧، ص ٣٩٣٨.

٤. المؤلف السابق، نفس العنوان ، ص ٣٩٤٣.

على أخبار قيمة من الدرجة الأولى حول الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وقد كتب هو نفسه بعض الملاحظات في حاشية المخطوطة. ويجب القول في إيضاح أسلوب تأليف هذا الكتاب إن المؤلف لا يعير أهمية إلى التقليد المتبع في كتابة التراجم، أو كتابة التاريخ في العالم الإسلامي. وبعبارة أخرى، فإن كتاب لمع الشهاب، وخلافاً للنماذج المشابهة التي وصلتنا من كتب السير والتواريخ، يتميز بخصوصيات فريدة من نوعها تماماً، الأمر الذي يثير تساؤلات مختلفة بشأن مواضيع هذا الكتاب. وعلى الرغم من أن ما يكل كوك كان ملتفتاً إلى هذه الملاحظة، إلا أنه اعتبر هذا الأثر ذا خصوصيات مهمة: «الأولى أن مؤلف الكتاب ليس مجرد مسجل للأحداث، ذلك لأنه كان في صدد تحليل الأسباب والمواصفات الأساسية للأحداث وبيانها وهو يبذل كل جهده من أجل تتبع الجذور وتقديم تقرير كامل، والثانية، فقدان أي نوع من المواقف الصادرة عن الحقد والانحيازية في رواية الأحداث التاريخية»[1].

ويبدو أن مثل هذا الأسلوب لم يكن سائداً في زمان كتابة المخطوطة في تقليد كتابة التاريخ في منطقتنا. وكتابة هذا النص هي نوع من «الكتابة السرية» في بيان المعلومات والاستنادات، قبل أن تكون قريبة من التقليد المتبع في ذكر الأخبار والحوادث والمؤلف لا يظهر أمام القارئ أبداً: فلا اسم له ولا إشارة، حتى عند الإشارة إليه، ولعل من الأفضل أن نستخدم العبارة «كاتب التقرير» بدلاً عن كلمة «المؤلف».

وقد أكد هذا الكاتب في تقريره مراراً على أنه استلم أخباره وتقاريره بشكل مباشر، من بعض معاصري «الشيخ النجدي» أي محمد بن عبدالوهاب نفسه. وقد طلبت مصادر هذه الأخبار بشكل مؤكد من الراوي أن تبقى أسماؤها طي الكتمان

---

١. كوك، ص ١٧٤.

كما كان الراوي يعتبر نفسه ملزماً برعاية هذا المبدأ[١].

كما يقدم الكاتب بعض المعلومات والأخبار عن التطورات في المناطق حول نجد، حيث كان الحصول على بعضها متعذراً على الكاتب العادي. وعلى سبيل المثال، الإشارة إلى المراسلات السرية بين البلاط العثماني وحكومة خديوي مصر[٢]، أو العلاقات بين محمد علي ميرزا دولت شاه، حاكم كرمانشاهان، وبين والي بغداد[٣]. ويتابع الكاتب نص سير الأحداث بشكل تاريخي، إلا أنه يتناول بعد ذكر فتح نجد على يد قوات خديوي مصر، تحت قيادة إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا، خلافاً للتوقعات، وفي فصول مستقلة، هجوم العمدة علي باشا على الأحساء في سنة ١٢١٣هـ، معركة سعود مع أهل اليمن واليمامة، اشتباك القوات البريطانية مع رأس الخيمة والقواسم[٤] وحوادث من هذا القبيل ويسعى لأن يقدم صورة شاملة عن المنطقة، علماً أن تقديم هذه الصورة، لم يكن ممكناً دون شك، من دون اطلاعه على مجموعة الأحداث المتفرقة في المناطق المختلفة[٥]. ومثل هذه الخصوصيات تثير بعض التساؤلات في ذهن الباحث المعاصر من قبيل أن الكاتب كيف كان مطلعاً ومتمكناً إلى هذا الحد من أخبار عصره وأحداثه؟!

ومن أجل التوصل إلى الإجابة على مثل هذا السؤال، فإن بالإمكان أن نطرح احتمالين: الأول أن كاتب النص كان مطلعاً بشكل طبيعي، وبسبب مركزه الإدراي،

---

١. لمع الشهاب، ص ١٨.

٢. المؤلف السابق، ص ١٥٧.

٣. المؤلف السابق، ص ١٠٣.

٤. يشير الكاتب في الصفحات الأخيرة من النص الحاضر إلى وصف سبب عمليات بريطانيا وكيفيتها ضد القواسم في رأس الخيمة. ولعل الملاحظة البارزة التي تشكل حكمنا حول كاتب هذا الأثر هي أن التقسيم الموضوعي لهذا النوع من المواضيع يتطابق مع الأولويات والموضوعات الدبلوماسية لبريطانيا كما نواجه ذلك ـ.

٥. لمع الشهاب، صص ١٧٠ ـ١٨٦.

على الأخبار والتقارير الواردة إلى نطاق مسؤوليته وسعى من خلال وصف هذه الشخصية المعاصرة، لأن يضفي الطابع الوهابي على دوره التاريخي أكثر بكثير من كونه عالماً حنفياً، أو مجرد خالق للفكر. وفي مثل هذه الحالة، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أن المخطوطة الفريدة كانت ملكاً لأسرة تايلور، كما أن كتابتها بعيدة عن تقليد كتابة النسخ في ذلك العصر، فإن ذلك يعزز من احتمال كون الكاتب هو تايلور نفسه وفي الحقيقة فإنه لم يرغب بسبب اطلاعه على آثار كتابة مثل هذه الرواية وتبعاتها أن يتحمل مسؤولية مواضيعها. والملاحظة المهمة الأخرى أن نوع الرؤية وإسلوب بيان المواضيع في هذا الكتاب، لا يشبهان أي أثر آخر في هذا الموضوع نفسه: فقد التفت الراوي إلى القضايا الاجتماعية والاقتصادية، والإحصائيات وسلوكيات أهل نجد، لا إلى الاتجاهات المتبعة في النصوص الشرقية، بل بأسلوب الأبحاث الأوروبية. وقد التفت في بيان الخصائص الاقتصادية، إلى عوامل مثل المداخل وفي وصف الظروف الاجتماعية إلى مصاديق مثل السكن وأوضاع أهل نجد بشكل خاص وقدم معلومات قيمة في هذا المجال[١]. وبالطبع فقد كان الاهتمام بهذا القبيل من المعلومات على مستوى أقل بسبب تركيز الباحثين على الشخصية المحورية للأثر.

وعلى أي حال فإن مثل هذا الأسلوب في كتابة النصوص التاريخية في القرن ١٣هـ يبدو عديم البديل بشكل كامل بين مؤرخي نجد ومصنفيها الجغرافيين، بل وحتى في خارج منطقتنا. كما سعى المستشرق الأمريكي في مقالته بشكل متواصل لأن يشير إلى هوية كاتب التقرير على سبيل التلويح من خلال طرح بعض الفرضيات: وعلى سبيل المثال وكما قلنا، فقد التفت الراوي إلى تأثر أهل نجد بالإيرانيين في تنظيم الأجواء الداخلية في بيوتهم وأن سوق نجد مسقف

---

١. المصدر السابق، ص ١٧٩ و أيضاً ص ١٨٤.

كالأسواق الإيرانية[١]. وتدل هذه الملاحظات على أن المؤلف كان على ارتباط مع الإيرانيين، وربما مع إيرانيي البصرة منطقة مهمة تايلور..

وقد أشار الكاتب في نهاية تقريره عن الأخبار والأحداث، إلى بعض الملاحظات وهي أن تزامن هذه الأحداث مع تاريخ كتابة المخطوطة يثير الدهشة إلى حد كبير: فقد انتهت كتابة المخطوطة، استناداً إلى خاتمة الكاتب، في ٢٦ محرم الحرام سنة ١٢٣٣هـ، ويعود تاريخ آخر حادثة كتب الكاتب خبرها إلى دخول القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا في ٢٢ محرم من تلك السنة نفسها، وادي القصيم وقد واصل المؤلف ذكر الأحداث إلى ما بعد ٣ أيام، أي إلى ٢٥ محرم، حيث حاصرت القوات المذكورة قرية «البريدة»[٢].

ومن المثير للتساؤل هنا هو بأي وسائل إعلام كانت متوفرة في ذلك العصر وبأي نوع من التوصل، استطاع مؤلف لمع الشهاب سرد حوادث منطقة نجد النائية بكل هذه الدقة؟ هل كان يرافق جيش إبراهيم باشا؟ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا نلاحظ خبراً عن تواجده في المصادر العثمانية؟ أم إن الراوي كان متواجداً بين قوات عبدالله ابن سعود الوهابية؟[٣]، ذلك لأنه استطاع أن يصور أخبار ساحة القتال بنفس الدقة التي كتب بها إبراهيم باشا لأبيه، الخديوي محمد علي باشا[٤] والي مصر[٥].

---

١. المصدر السابق، ص ١٩٧.

٢. المصدر السابق، ص ١٩٧.

٣. رغم هذا الاحتمال، فإننا لا نلاحظ في لهجة راوي النص و تعبيره، دلالة على حبه للمذهب الوهابي ولو بنسبة ضئيلة. وبالطبع فإن اطلاعه على دقائق الأخبار والمعلومات عن المناطق في خارج نجد والفهم العميق الذي كان يحمله عن العلاقات والتوازن بين القوى الإقليمية في بيان أحداث عمان، القواسم، أو أخبار بغداد وإيران، يثير أنواع التساؤلات في ذهن كل باحث.

٤. وصف إبراهيم باشا أمير جيش مصر في الهجوم على الدرعية، في التقرير الذي بعثه إلى القاهرة

←

كما أن تقرير الراوي عن أحوال الشيخ، لا يخلو من وجوه الخيال وعناصره بشكل ملفت للنظر؛ من مثل موضوع التمكن المالي للشيخ: فاستناداً إلى المصادر الأخرى، فقد تزوج الشيخ في البصرة من امرأة متمولة، وورث بعد موتها ميراثها والذي كان يبلغ حوالي ألف دينار، ثم واصل سفره، في حين أن مؤلف لمع الشهاب وصف الشيخ بأنه رجل غني وذو مكنة وأنه حصل على هذه الثروة في فترة سياحته. وعلى حد ما ذكره فقد بلغت ثروة الشيخ حداً بحيث أنه اشترى من سوق الرقيق بمكة ٧ ـ ٨ غلمان سودانيين وحملهم معه إلى نجد. واستناداً إلى تقريره، فقد تملك الشيخ بعض بساتين النخيل والمواشي حتى عند عودته إلى وطنه. في حين أنه قد جاءت في كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر النجدي، رواية مختلفة قليلاً في باب هذا الموضوع.

وقد تحدث ابن بشر في البدء عن سفر الشيخ حتى البصرة، إلا أنه ذكر أن الشيخ غير طريق الهجرة نحو منطقة الشام على إثر المشاكل التي حدثت له في منطقة الزبير قرب البصرة[٦] كما أيد ابن الغنام هذه الرواية[٧]. ومن جهة أخرى، فقد

← ويبدو أن تاريخه لابد وأن يكون ٢٥ محرم ١٢٣٣هـ، وبالنظر إلى خبر وصوله إلى وادي القصيم، وصف ساحة القتال قائلا: أقدمت على المحاصرة ليومين وليلتين بالمدافع والقذائف، وفي اليوم الثالث، طلب الخونة المذكورون الأمان، حيث تمت مصادرة مدافعهم وذخيرتهم وحجز الأهالي كرهائن وبعد إصلاح الأوضاع سوف ينطلق إلى قرية البريدة التي تقع على بعد ٨ ساعات من هناك وعندما تتم السيطرة بإذن الله على القرية المذكورة، سوف لا يبقى معارض في وادي القصيم». وقد تم إرسال هذا التقرير بمجرد وصوله إلى القاهرة، أي بعد ٤٨ ساعة إلى السلطان العثماني مع ذكر التاريخ ٢٧ محرم الحرام.

٥. هنالك احتمال آخر سوف نتطرق إليه في القسم الأخير من النص.

٦. ابن بشر، ص ٣٦ ـ ٣٧.

٧. حسين بن الغنام، تاريخ نجد أو روضه الافكار والافهام، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٤م، صص ٨١ ـ ٨٢.

حدد حسين خلف الشيخ خزعل، الذي كتب أثره مستنداً إلى المصادر المختلفة وربما المعلومات العائلية المتحصلة من قرابته من أسرة آل سعود، نطاق هجرة الشيخ. وهو يذكر أن الشيخ درس بعد وصوله إلى البصرة، في المدرسة الواقعة في محلة المجمعة وانشغل بالتدريس أيضاً. وقد طرح في هذه المدرسة لأول مرة موضوع هدم القبور وأثارت هذه القضية نفسها الاعتراضات ثم شكواهم عليه إلى حاكم البصرة عمر آقا.

وتختلف رواية خزعل عن تقرير مؤلف لمع الشهاب في موضوع البصرة: فخلافاً لخزعل الذي تحدث في هذه الحادثة عن عمرآقا، يروي راوي اللمع، أن منصب قضاء مدينة البصرة تغير هو أيضاً بعزل هذا الحاكم وتعيين جرجيس آقا وانسحب القاضي شهاب الدين الموصلي ليحل محله القاضي حسين الإسلام ويبدو أن نقاش القاضي الأخير مع الشيخ محمد بن عبدالوهاب أدى إلى خروج الشيخ من المدينة[1]. ويذكر أحد الباحثين الإيرانيين والذي أمضى سنوات لأداء مهمة في السعودية، أن إرث زوجة الشيخ كان ٢٠٠٠دينار، واستطاع بهذا المبلغ أن يبدأ السفر إلى مدن إيران. ويرى هذا الباحث ، أن الشيخ أقام في قم نفسها ثم عاد إلى مسقط رأسه[2] في سنة ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م. وبالطبع فإن الرواية التي تفيد بتواجد الشيخ في قم واهية وعديمة الأساس بنفس مستوى رواية الطالبي الذي وسع نطاق سفر الشيخ حتى غزنين، أو أحد المؤرخين الغربيين الذي أقحم الشيخ في البنجاب أيضاً[3]. صحيح أن قم كانت قاعدة دينية في كل الأحوال، إلا أن هذه المدينة، لم تكن تشتهر بعد في السنوات المذكورة كحوزة للعلوم الدينية. ومع كل

١. حسين خلف شيخ خزعل، تاريخ جزيرة العرب في عصر شيخ محمد بن عبدالوهاب، دار ومكتبة الهلال، بيروت، صص ١٦ ـ ١٧.

٢. لمع الشهاب، صص ١٦ ـ ١٧.

٣. عباس فرزانگان، عربستان سعودي، طهران، ١٣٥٠، ص ١٩.

ذلك؛ فإن رفضنا هذه الفرضية المتشائمة، فإن بالإمكان من جهة أخرى أن نجيب على السؤال الأول بهذا البرهان وهو أن المخطوطة التي أشرنا إليها تم تقريرها بعد تاريخ كتابه.

ويضم كتاب لمع الشهاب معلومات جانبية أخرى أيضاً: فقد كان «الشيخ النجدي» التعبير الذي كان عمال الدولة العثمانية يستخدمونه في الإشارة إلى الشيخ محمد بن عبدالوهاب، في الوثائق والمستمسكات. ومن الطبيعي أن معاصري الشيخ وأتباعه أي أطراف الحوار مع كاتب التقرير لم يكونوا يستخدمون مثل هذه التعابير؛ خاصة وإن تعبير «الشيخ النجدي» كان يحمل معنى مشابهاً «للشيطان الصغير» في تعبير عمال الدولة العثمانية. وقد صور كاتب النص، في وصف الشخصية موضوع التقرير، منه وجهاً غامضاً في الأساس. وعلى سبيل المثال فإنه يذكر أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب كان يستخدم أسماء مختلفة تمشياً مع ظروف المنطقة التي كان يدخلها[١] إلا أن مثل هذا الأسلوب، لم يكن ينطبق كثيراً على تقاليد أهالي ذلك العصر[٢].

واستناداً إلى معظم المصادر والمراجع، فقد ولد محمد بن عبدالوهاب في ١١١٥هـ وذهب من نجد إلى المدينة في سنة ١١٣٦هـ ثم اتجه نحو الأحساء والبصرة. ويذكر مؤلف لمع الشهاب، أن الشيخ وصل إلى أصفهان في وقت متزامن مع السنة الأولى من حكم نادر شاه الأفشاري في ١١٤٨هـ[٣]. وقد ذكر المؤلف أن معظم مدة إقامة الشيخ كانت ١٣ سنة في البصرة ، بغداد، كردستان

---

١. «كانت الحالة العجيبة أنه كان يغير اسمه في كل مدينة، فكان يسمي نفسه عبدالله في البصرة، وفي بغداد أحمد، وفي كردستان محمد وفي همدان يوسف» انظر. لمع الشهاب، ص ١٩....

٢. ربما كان المصداق الوحيد المشابه لهذا النوع من الروايات، النسبة الأفغانية أو الإيرانية للسيد جمال الدين الأسد آبادي، الذي كان يعيش بعد مائة سنة من الشيخ.

٣. لمع الشهاب، ص ١٩.

وهمدان حسب التسلسل، وبناء على ذلك، فإن زمان تواجد الشيخ في أصفهان يتطابق مع معلوماته الأخرى ويمكن اعتبار هذا القسم من المعلومات دقيقاً من حيث التسلسل التاريخي. إلا أن الكاتب ذكر في إشارة أخرى أن بداية تحرك الشيخ من نجد نحو البصرة، كانت في السابعة والثلاثين من عمره لا في الحادية والعشرين كما ذكر الآخرون[١].

وقد ذُكر أن موت الشيخ كان في حدود الحادية والتسعين من عمره[٢]، وهي الرواية التي تتفق مع رأي مؤلف لمع الشهاب[٣]، إلا أن هذا العمر، لا يتفق مع معلومته الأخرى بشأن أن عمر الشيخ كان يبلغ ٣٧ سنة عند انطلاقه إلى البصرة، ذلك لأنه كان من المفترض في هذه الحالة أن يذكر أن عمر الشيخ كان يبلغ ١٠٧ سنوات عند الموت.

وعلى الرغم من أن الكاتب يسعى لأن يظهر دقته في تسجيل أحوال الشيخ، إلا أن روايته لا تخلو من الخطأ في بعض المواضع؛ وعلى سبيل المثال فإنه يذكر أن الشيخ ذهب إلى مكة عن طريق مصر إلى المدينة ثم إلى مكة لأداء الحج وكان تواجد الشيخ في مكة، متزامناً مع إمارة الشيخ سرور بن مساعد على تلك المدينة[٤]. في حين أن الشريف سرور كان أميراً على مكة في الفترة بين ذي القعدة ١١٨٦هـ حتى ربيع الثاني ١٢٠٢هـ[٥]. وحتى إذا افترضنا أن وصول الشيخ إلى مكة

---

١. وبذلك فإن تاريخ ولادته لابد وأن يكون حوالي ١٠٩٩م.

٢. حسين خلف شيخ خزعل، ص ٣١٦. لقد ذكر البعض تاريخ وفاته يوم الاثنين آخر يوم من شوال. ر.ك. حسين بن الغنام، ص ٩٠ وأيضاً صلاح الدين المختار، تاريخ المملكته العربية السعودية في ماضيها وحاضرها، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٣٩٠هـ، ج ١، ص ٥٦.

٣. لمع الشهاب، ص ١٠٢.

٤. نفس المصدر، ص ٢٢.

٥. زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، القاهرة: مطبعة جامعة الفؤاد الأول، ١٩٥١م، ج ١، ص ٣٤.

كان متزامناً مع السنة الأولى من إمارة الشريف، فإنه لابد وأن يكون في هذه الحالة قد دخل مكة بعد خمسين عاماً من مغادرة نجد! ثم إن معلومته، لا تتطابق مع الأخبار الأخرى وذكر سنوات الإقامة في المناطق الأخرى. ومثل هذه الأخطاء في تسجيل التاريخ نلاحظها مرة أخرى في الرواية المذكورة: فقد ذكر مؤلف لمع الشهاب أن تاريخ تواجد الشيخ في الدرعية وإقامته عند محمد بن سعود كانا سنة ١١٥٩هـ[١] وهذه المعلومة تتناقض أيضاً مع الخبر السابق، أي لقاء الشيخ لسرور بن مساعد.

إن حدوث مثل هذه الأخطاء في تسجيل التواريخ يدل أولاً على أن المؤلف لم يكن معاصراً للشيخ نفسه[٢] ثم إن من الواجب النظر بعين الاحتياط في الأخبار والروايات المتعلقة بسفر الشيخ وإقامته في مناطق من البلاد الإسلامية في ذلك العصر مثل بغداد، كردستان، همدان، أصفهان، قم، حلب، دمشق، القدس، مصر والمدينة.

ومع كل ذلك، فقد كان كتاب لمع الشهاب المستند الرئيس لكل الباحثين الذين كتبوا تاريخ حكومة السعوديين في نجد مع حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب. ولم يقدم الباحثون ، والمؤلفون المعاصرون ورفاق الشيخ صورة غامضة عنه في عهد سفره وحسب، بل إن بعض المعاصرين والمعارضين فعلوا ذلك أيضا؛ حتى يرى أحدهم أنه: «بعد أن أخذ قسماً من علوم العربية والفقه الحنفي في الوطن، سافر إلى أصفهان وتلقى في هذه البلدة من السيد حكيميات وهو من الفضلاء المعروفين. وهكذا فقد جال في معظم بلاد العراق وخراسان حتى بلغ غزنين

---

١. لمع الشهاب، ص ٣٢.

٢. يؤكد راوي لمع الشهاب أنه استلم الأخبار المتعلقة بالشيخ بالواسطة.

وعاد إلى وطنه»[١].

وفي الفترة الزمنية من سفر الشيخ وحتى عودته وتعيينه في منصب قضاء حريملا في عام ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م وقعت بعض الأحداث المهمة الأخرى في المنطقة: الأولى أن الحكومة البريطانية قررت أن تفتح ممثليتها السياسية والقنصلية في البصرة وعينت في هذا المنصب مارتين فرنتش في سنة ١١٤١هـ / ١٧٢٨م. وكان متواجداً في البصرة حتى موته في تشرين الثاني سنة ١٧٣٧م في منطقة مهمته[٢]. كما حدث تطوران سياسيان متقاربان: أحدهما عزل السلطان أحمد الثالث عن السلطنة العثمانية واستخلاف محمود الأول على عرش خلافة آل عثمان[٣] والآخر جلوس نادر شاه على عرش حكم إيران[٤].

إن أهمية هذه الأحداث الثلاثة في الساحة السياسية وترابطها في هذه المرحلة التاريخية هي التي أدت إلى انعدام الأمن في الحدود والحروب العديد وذلك على إثر سقوط الدولة الصفوية، وانتزاع عراق العرب من رقعة حكم إيران. وبالتالي فقد أدت هذه الأحداث إلى اختلال سفر الحجاج الإيرانيين والهنود، الأفغان والقوقازيين أو أهالي ما وراء النهر عبر الطرق البرية[٥].

---

١. الميرزا أبو طالب خان، ص ٤٠٩.

٢. لوريمر، ج ٧، ص ٣٩٤٠.

٣. زامباور، ج ٢، ص ٢٤٠.

٤. أمسك نادر بزمام السلطة السياسية المشتتة لإيران بعد العهد الصفوي بعد تتويجه وذلك في نوروز سنة ١١٤٨هـ من خلال دعوة شيوخ العشائر، وجوه الأهالي، المسؤولين العسكريين والأعمال ومسؤولي الديوان إلى دشت مغان.

٥. نظراً إلى مشاكل صحاري جنوب العراق وشبه الجزيرة العربية أيضاً سواء من حيث الاحتياجات الضرورية أم الأمن، فقد كانت قوافل الحجيج تركز جهودها خلال هذه الفترة لأن تلتحق بقافلة أمير الحاج للدولة العثمانية الذي كان يحمل «المحمل الشريف» من خلال المرور من العراق أو ←

ولذلك، فقد ازدادت الرغبة في السفر عن طريق الحدود البحرية، أي لنكـه، بوشهر[١] وكذلك الطريق البري من البصرة إلى جبل شمَّر[٢].

وقد أدى هذا التغيير في طريق انطلاق قوافل الحجيج إلى تعزيز الموارد المالية لأمراء الأحساء ونجد كما أدى في نفس الوقت إلى ازدياد سلطتهم السياسية. ومن جهة أخرى، فإن التوقف في انطلاق القوافل من الطرق السابقة، أي الشام ومصر، كان من شأنه أن يضر بالوجاهة السياسية لجهاز الخلافة العثمانية التي كانت تعتبر نفسها «خادمة الحرمين الشريفين» عند الرأي العام لرعايا رقعة هذه الدولة، فـي العراق والشام ومصر.

← الأناضول في حلب وكانت تسير من طريق حلب نحو الحجاز. كما كانت حركة حـجاج البـلاد الإسلامية الأخرى من الطرق الآهلة والأكثر طولاً في أراضي الدولة العثمانية تحظى هـي أيـضاً باهتمام الباب العالي، ذلك لأن مثل هذه الأعمال كانت ترسخ من الناحية العملية مشروعية السلطان في المسؤولية عن الحرمين الشريفين من خلال التحاق حجاج البلاد الآخرين بقافلة أمير الحاج للدولة العثمانية عند الرأي العام. ولذلك فقد كانت الدولة العثمانية تسعى لأن تبدي اهتماماً أكبر بتقديم التسهيلات وضمان أمن الحجاج في هذه الطرق، فضلاً عن الحركة البطيئة لقافلة أميرها وإقامة الاحتفالات في المدن الواقعة على الطريق بمناسبة دخول المحمل الشريف (والذي كان يضم الهدايا والنذور وكسوة الكعبة والتي كانت تعد في الطريق مـن قـبل أصـحاب الصـناعات المصريين وكانت تنضم إلى هذه القافلة).

لمزيد من الاطلاع في هذا الخصوص أنظر: عبدالرحيم بن شاهين، خدمات الحج فـي الحـجاز خلال العصر العثماني، القاهرة، دار القاهرة، ٢٠٠٥م.

١. كان طريق البحر يبدأ من نقاط الانطلاق هذه وكان أحياناً يستمر بشكل مباشر نـحو السـواحـل الجنوبية أي مسقط والأحساء وكان يستمر أحياناً في طريق سواحل شبه الجزيرة حتى رصـيف الميناء في اليمن. لمزيد من المعلومات انظر كتاب رسول جعفريان، سفر به مكة ودشواريهايي آن از زبان محمد سعيد مشيري (السفر إلى مكة ومصاعبه على لسان محمد سعيد مشيري)، مجموعة مقالات تاريخي (مجموعة المقالات التاريخية)، قم، دليل ما، ١٣٨٢هـ، الكراس ١٢.

٢. للاطلاع أكثر على طرق الحج وبعض المسائل المتعلقة بها في الفترة المشـار إليها يمكن مراجعة كتاب أسراء دوغان، تاريخ حج گزاري ايرانيان، طهران، مشعر، ١٣٨٩هـ.

وتزامناً مع إضعاف المكانة المعنوية لجهاز سلطنة آل عثمان، استمرار هجمات نادر شاه لاستعادة سيطرة إيران على العتبات المقدسة في عراق العرب وكذلك اقتراحه لإيجاد الركن الخامس في مكة المكرمة لأمر القضاء على أساس فقه الإمامية، كل ذلك أدى إلى اتساع شعبيته بين غالبية المجتمع الشيعي في إيران. ومن جهة أخرى، فإن فتوح نادر في الهند، أسهمت في ازدهار الاقتصاد وأحيت التجارة وإنه سهل من خلال مساعداته المالية الضخمة، في إعاة بناء العتبات المقدسة في عراق العرب فأسهم كل ذلك بتردد الزوار والحجاج على عراق العرب ومن ذلك الطريق إلى مكة. وقد زاد انتشار هذه الأخبار من حسد أهالي نجد لتلألؤ القبب المكسوة بالذهب حديثاً في النجف وكربلاء[1]، كما كانت تعني ضمنياً أن قدرة الدولة العثمانية على إدارة شؤون الحرمين الشريفين قد آلت إلى الأفول مقارنة مع الماضي.

وبناء على ذلك، فإن بالإمكان أن نعتبر هذا الظن معقولاً وهو أن الدافع إلى بسط السلطة السياسية لأمراء نجد وكذلك الطمع المادي بكنوز العتبات المقدسة والحرمين الشريفين من جانبهم كانا قائمين بشكل كامن حتى قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب. ولذلك، فعندما استطاع السعوديون الوهابيون أن يحصلوا على الإذن الشرعي للهجوم على العتبات المقدسة وهدم أبنيتها، سواء في كربلاء والنجف أم في مكة والمدينة، استناداً إلى تعاليم الشيخ محمد بن عبدالوهاب[2]،

---

١. قرّر نادر ولأول مرة أن يخصص غلافاً ذهبياً لحرم وضريح أئمة الشيعة عليهم السلام في العتبات المقدسة، بهذا الشأن انظر: سيد علي موجاني، بازسازي تاريخ فراموش شده، طهران، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، ١٣٨٩، ص ٧٤.

٢. كانت هذه السلوكيات عنيفة إلى حد كبير ولا يمكن تحملها؛ حتى إن أحد المؤرخين السعوديين والذي ألف كتاباً في فضائل سعود بن عبدالعزيز وملحمته وظف أدباً مختلفاً بهذا الخصوص، واعتبر عملهم هذا «خطأً سياسياً وعملاً شنيعاً»......

ولم يخفوا رغبتهم وتشوقهم إلى نهب خزائن هذه الأماكن، خلافاً لاعتقاد الجميع حتى العلماء المعتقدين بالعقيدة الوهابية[١].

عودة الشيخ إلى نجد

حينما عاد محمد بن عبدالوهاب إلى مسقط رأسه، أدرك أن أسرته هاجرت إلى حريملا بسبب نزاع أبيه مع شيخ آخر من شيوخ العيينة المعروف بالشيخ خرفاش[٢] وتولى الشيخ بعد موت أبيه منصب القضاء سنة ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م، في حريملا، إلا أن الاختلاف حدث بينه وبين شيوخها الآخرين بعد ٣ سنوات واضطر لأن يعود إلى مسقط رأسه. وعمد الشيخ منذ هذه الفترة إلى مراسلة كبار القبائل وشيوخها بهدف بيان معتقداته الدينية[٣]. وقد أدى هذا الإجراء إلى ظهور الآراء المعارضة للشيخ: فقد طالب أمراء أسرة بني خالد في الأحساء، بإخراج الشيخ من نجد[٤] ووصل الشيخ إلى الدرعية في طريق خروجه من مسقط رأسه[٥]. وكان حكم الدرعية في تلك السنة أي ١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م، يتولاه محمد بن سعود بن مقرن بن مرخان، من قبيلة عنيزة[٦]. ويبدو أن زوجة الأمير محمد بن سعود «الموضي» دفعت زوجها لأن يكرم الشيخ ويعطيه الأمان[٧]. وقد أقام محمد

---

١. ابن بشر، صص ١٧١ ـ ١٧٢. صدر هذا الإذن رسمياً في مراسلة الشيخ محمد بن عبدالوهاب سنة ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م مع علماء مكة.

٢. يرى الباحث التركي قورشون، أن سبب الهجرة شيوع الطاغون في العيينة وموت أميرها ثم استخلاف أمير آخر، وتنحي الأب عن منصب القضاء.

٣. حسين خلف شيخ خزعل، ص ٧٦.

٤. للإطلاع على هذه القضية وضغط حكام الأحساء انظر: لمع الشهاب، ص ٣٣ ـ ٣٥.

٥. يشك ابن غنام في التاريخين المذكورين وهما ١١٥٧ أو ١١٥٨هـ.

٦. كانت الدرعية في هذا التاريخ قرية صغيرة تضم حوالي ٣٠ بيتاً.

٧. صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٣٨ ـ ٣٩.

بن سعود علاقة مصاهرة مع محمد بن عبدالوهاب بتزوجه من إحدى بناته[١]. وتولى سكان الدرعية شيئاً فشيئاً مسؤولية الدفاع عن المذهب الجديد الذي كان قد سمي بالوهابي من خلال التمسك بفتوى الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

وتم أول إجراء تمخض عن «التفاهم السعودي الوهابي» ولكن لا في طريق انتشار الدعوة الوهابية، بل بهدف الاستيلاء على الطريق الشرقي لتردد الزائرين والحجاج من مسقط ولنگه نحو مكة، من خلال الاستيلاء على منطقة القصيم[٢]. ويدل سلوك السعوديين الذين دخلوا المذهب الوهابي، في تقديم توسيع الرقعة السياسية على النطاق المعنوي الذي كان الشيخ يطمح إليه أن المذهب الوهابي كان ينسجم منذ البدء، مع معتقدات عرب نجد ومصالحهم. وبعد سنة، تجلى الجانب المعنوي من التفاهم السعودي الوهابي، ومن خلال مبادرة محمد بن عبدالوهاب في هدم مرقد زيد ابن الخطاب أحد صحابة النبي ﷺ وشقيق الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، في الجبيلة وتنفيذ حد الرجم على إحدى النساء[٣].

ومنذ هذه السنة، أي ١١٥٩هـ/١٧٤٦، وحتى الاستيلاء الكامل للوهابيين على أمور نجد والحجاز، بدأ عهد جديد من النزاعات والصراعات الدموية بين أمراء نجد، الأحساء، شريف مكة، شيوخ جنوب العراق والآخرين[٤]. وقد قلصت هذه

---

١. حسين خلف شيخ خزعل، ص ١٧٥.

٢. J.L. Burckhardt, TRAVELS in ARABIA. London 1986, p.458.

٣. ابن بشر، ص ٣٩، يذكر ابن الغنام أنه هدم بيديه هذا المرقد، بل إنه قطع شجرتين ربما كان عامة الناس قد علقوا عليها بعض الأحراز، بمساعدة الآخرين ظ: حسين بن الغنام، ص ٨٤؛ أيضاً: حسين خلف شيخ خزعل، صص ١١٥ ـ ١١٦، ص ٢٠٦. تدل هذه الرواية على الشك في عمى الشيخ.. للتفصيل بهذا الشأن انظر: ميرزا ابو طالب خان، ص ١١٧، و أيضاً ٤١٠، وبالطبع يرى الباحث الحكيم السيد علي بهراميان أن من غير المستبعد أن يكون «عمى» الشيخ نوعاً من «الطعن».

٤. للاطلاع على أخبار هذه الوقائع، أنظر: محمد بن عمر الفاخر، تاريخ الفاخري، تصحيح عبدالله

النزاعات قبل كل شيء من تردد الحجاج على مكة ولذلك، فقد رفع أشراف مكة لأول مرة في ١١٦٢هـ/ ١٧٤٨م تقريراً إلى الباب العالي في إستانبول عن التطورات في نجد وخاصة إجراءات السعوديين الوهابيين[١]. ولم تبد الدولة العثمانية ردود فعل كبيرة إزاء أحداث نجد، فبعد مقتل نادرشاه الأفشاري في ١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م، تحدث اعزام مصطفى خان، سفير عادل شاه الأفشاري إلى البلاط العثماني، عن عزم ملك إيران الجديد على تغيير المذهب الشيعي وإجبار الإيرانيين على قبول أحد مذاهب أهل السنة وبناء على ذلك، لم تكن الدولة العثمانية قلقة كالسابق من سيطرة إيران على الحرمين والعتبات، في حين أننا قد لاحظنا أن نادرشاه تابع موضوع إعادة بناء العتبات[٢].

← بن يوسف الشل، الرياض، مكتبة الملك فهد، ١٤١٩هـ، صص ١٣١ ـ ١٥٠ وكذلك بعض الحوادث الواقعة خلال سنوات ١١٥٦ ـ ١١٧٣هـ انظر: محمد بن عبدالله بن يوسف، تاريخ ابن يوسف، الرياض، ١٤١٩، صص ١٣٧ـ١٤٣.

١. منير العجلاني، ج ١، ص ١٢١.

٢. لعل أحداً لم ينظر حتى الآن إلى سياسة نادر شاه المذهبية من هذه الزاوية: فلقد قرر «ابن السيف» لأن يرسخ أرضية تثبيت المذهب الجعفري باعتباره الركن الخامس في دار الإفتاء وذلك من خلال إقامة عدة جولات من المباحثات بين المذاهب الإسلامية المختلفة. ترى أي عامل جعله يهتم وينشغف بالعتبات المقدسة في العراق إلى درجة بحيث تكفل بنفقات ضخمة من أجل توسيعها؟ يرى الباحث الإيراني المقيم في فرنسا السيد الدكتور أحمد سلامتيان، أن نادراً وكالكثير من الحكام الآخرين، كان قد اكتسب في البدء، مشروعية السلطنة من «السيف» وكان يعلم أن الاعتماد الدائم على السيف كان مستحيلاً في عالم ذلك اليوم، وبناء على ذلك فقد قرر أن يعتمد على مظاهر أخرى وخاصة إيجاد بيئة يسودها التسامح لتواجد المذاهب الأربعة إلى جانب المذهب الشيعي، وأن يسبق بذلك منافسه، أي الخلافة العثمانية.

وفي حالة الأخذ بهذا الافتراض، فإن سياسة نادر البحرية يمكن اعتبارها هي أيضاً بهدف فرض القوة البحرية والقرب من الحرمين الشريفين: فلقد هيأ من خلال الإشراف والسيطرة على الطريق ←

وكان الحوار بين العلماء الشيعة وعلماء أهل السنة قد بدأ بمساعيه في بغداد بزعامة سويدي زاده[١]. وفي الحقيقة فإن قلق الباب العالي من أن تستطيع إيران في إطار سياسة نادر المذهبية اجتذاب أتباع أهل السنة إليها في رقعة حكم الدولة العثمانية، أو أن تتمتع بالمنافع المادية وبالتأثير الروحي بالتسلط على طرق الزيارة لإرسال أمير الحاج إلى الحرمين الشريفين في نفس الوقت، كان قد زال. بل يبدو أن رجال الحكم العثمانيين لم يكونوا قلقين من اتساع حالة انعدام الأمن في نجد، ذلك لأن قوافل الحج من شرق العالم الإسلامي، كانت تنطلق من جانب الشام ثم مصر والحجاز. ولذلك، يكتسب عدم اهتمام الباب العالي بطلب علماء مكة المعنى في هذه المجالات التاريخية.

وقد ترك سلوك الدولة العثمانية في هذه المرحلة تأثيراً كبيراً في بناء وتكوين الهوية السعودية الوهابية، ومن جهة أخرى، فإن أوضاع إيران في السنوات الأخيرة من الدولة الأفشارية وبداية الحكم الزندي، كان قد أزال بشكل كامل احتمال اهتمام حكام إيران بأمور نجد. وبناء على ذلك، فقد ظهر على إثر إرشادات الشيخ محمد بن عبدالوهاب، أول اتحاد داخلي في نجد من خلال تجميع قوى الدرعية والعيينة. واختيرت إمارة الرياض التي كانت تنافس الدرعية، باعتبارها الهدف الأول لقوات عبدالعزيز بن محمد بن سعود المتحالفة وكذلك

← البري من جنوب العراق إلى مكة والمدينة، الأرضية لتسهيل مرور حجاج البلدان الموغلة في الشرق مثل الهند عن طريق الخليج الفارسي كي يحصل بذلك على مشروعية كالسلطنة العثمانية. ومن شأن الدقة في مضامين محاضر المحادثات بين علماء المذاهب في بغداد في دراسة القضايا السابقة، أن تمهد الطريق في هذا المجال. وكان سويدي زاده قد انتدب في هذه المحادثات من جانب الدولة العثمانية وقد أشار هو نفسه إلى تواجد نادر بنفسه واهتمامه في السير بالمحادثات إلى الأمام. وأنا منشغل الآن بالقيام بدراسة أخرى فيما يتعلق بمحاضر هذه الاجتماعات على أمل أن تصدر قريباً.

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-5-150-29z1162-1.

عثمان ابن معمر أمير العيينة. وقد تمخضت هذه العمليات عن نهاية دموية للطرفين[١] وكانت بداية ٣٨ سنة من الصراع والنزاع بين الدرعية والرياض[٢].

وأصدر الشريف مسعود بن سعيد، أحد علماء مكة، والذي كان قد يئس من دعم الدولة العثمانية الإسلامية له، وكان يعتبر خطر اتساع الوهابية محتملاً، فتوى تكفير الشيخ محمد بن عبدالوهاب[٣] وبعث نص فتواه إلى دار الإفتاء في إستانبول لتأييدها. ويبدو أن الباب العالي استقبل هذه الفتوى ببيان خاص[٤]، إلا أنه لم يبادر إلى أي إجراء كان من جملته إرسال القوات لتنفيذ الحكم (الفتوى). وبعد سنة أعلن شرفاء مكة من خلال إصدار بيان، أن الجهاد ضد محمد بن عبدالوهاب هو «ضرورة دينية وسياسية»[٥]. وتزامناً مع هذا الحدث نفسه، أي في عام ١١٦٤هـ / ١٧٥٠م تم ضم قسم من منطقة السُدير إلى المناطق التي يسطر عليها الحلف السعودي الوهابي، على إثر هجوم الأمير عبدالعزيز[٦].

ولم ينضم إلى جماعة المكفرين للشيخ محمد بن عبدالوهاب شرفاء مكة وحسب، بل انضم إليهم الشيخ سليمان شقيق الشيخ أيضاً والذي كان قد تولى منصب القضاء في حريملا بدلاً منه[٧]. وقد امتنع المؤرخون السعوديون بشكل عام عن المزيد من الإيضاحات في هذا المجال، وكان حكم سليمان قد زاد من تردد المعتنقين للمذهب الجديد، كما ذكر ابن الغنام[٨]، إلا أن هذا المؤرخ، لم يعتبر دافع

---

١. ابن بشر، ص ٥٦؛ أيضاً: صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٤٠.

٢. لمع الشهاب، ص ٣٦.

٣. أيوب صبري، تاريخ وهابيان، إستانبول ١٢٩٦، ص ٣٥.

٤. زكريا قورشون، ص ٤٨.

٥. زكريا قورشون، ص ٥٠.

٦. حسين خلف شيخ خزعل، ص ٢٣٢.

٧. حسين بن الغنام، صص ١٠٧ ـ ١٠٦.

٨. كما كتب الشيخ سليمان رسالة باسم الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية، انظر: هامش

سليمان بن عبدالوهاب إلى إصدار الحكم، الأدلة الفقهية، بل البغض والحسد. وأدى استمرار التصادم بين آراء الأخوين أخيراً إلى أن يهجم الأمير عبدالعزيز على حريملا في سنة ١١٦٨هـ /١٧٥٤م ليضمها إلى رقعة حكمه وطبعًا فإن الشيخ سليمان بن عبدالوهاب هرب من حريملا على إثر ذلك[1].

السياسة والحكم في المناطق المحيطة بنجد

كان جهاز خلافة آل عثمان يعاني خلال هذه السنين من عدم كفاءته، تزامناً مع اضطراب الأوضاع في إيران: فقد كانت الصدور العظمى العديدة يعزلون الواحد تلو الآخر، أو يستدعون للخدمة مرة أخرى. وكانت أمور المماليك في مصر، قد أدت إلى قلق الباب العالي بشأن ممتلكاته في شمال أفريقيا. وكانت الأوضاع تبلغ أحياناً حداً من الاضطراب والفوضى بحيث أن السلطان العثماني، كان يعدم صدره الأعظم يقوم بعد عزله مباشرة[2].

← عبدالرحمن بن عبداللطيف بن عبدالله آل الشيخ على أثر ابن بشر، ج ١، ص ٧١. طُبع هذا الكتاب سنة ١٣٧٠ ش على شكل أوفست من الطبعة الثالثة بإستانبول، دار الشفقة، ١٩٧٩م، في إيران من قبل دار نشر الشهيد.

١. حسين بن الغنام، ص ١٠٩.

٢. عُزل نشانجي بيقلي علي، الصدر الأعظم للدولة العثمانية وأعدم في محرم؛ ولم يجلس الصدر الأعظم التالي على مسند الصدارة إلا في رجب من تلك السنة، بحيث لم تكد مراسيمه تأخذ مجراها في النظام الديواني حتى عين السلطان من بعده وللمرة الثانية باهر كوسه مصطفى في الصدارة ولكنه عزله بعد ذلك بفترة قصيرة ليحل محله راغب محمد. وعلى إثر موت راغب محمد في ١١٧٦هـ /١١٦٢م ولي حامد توقيعي وبعد فترة قصيرة باهر كوسه مصطفى مرة أخرى في هذا المنصب، وبذلك تعرض منصب الصدارة العظمى للتغيير والانتقال خلال أقل من ٧ سنوات ثمان مرات، للاطلاع أكثر على أسماء وتواريخ هذه التغييرات، انظر: زامباور، ج ٢، ص ٢٤٦.

وبالطبع فإن الاضطراب في مركز اتخاذ القرار في الدولة العثمانية، كان يهيء أفضل الظروف لتوسيع رقعة الحكام الجدد في نجد: ففي خلال هذه الأوضاع، أصبحت منطقة الجلاجل في السدير تحت تصرف الأمير عبد العزيز في ١١٧٠هـ / ١٧٥٦م[١].

وفي ظل هذه الظروف كانت العناصر الرئيسة المؤثرة الأخرى في وسط شبه الجزيرة والحجاز، تتمثل في أمراء بني خالد في الأحساء، إمارة الرياض وشرفاء مكة. وكانت مناطق البحرين، القطيف والأحساء ضمن نطاق المذاهب الشيعية والشافعية إلى حد ما. وكان ارتباط علماء القطيف والبحرين مع حوزة النجف الأشرف، يؤدي إلى انتشار أخبار هذه المناطق وأحداثها في منطقة العراق، أو في إيران خلال فترة قصيرة. وتزامناً مع أولى المواجهات بين القوات السعودية وقوات إمارة الأحساء، لفتت أخبار ظهور عقيدة جديدة باسم «الوهابية»، انتباه حوزة النجف الأشرف العلمية العتيدة. وتدل رسالة الميرزا القمي إلى فتح علي الملك القاجاري على أن موضوع عقائد الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأتباعه، كانت مطروحة في حلقات النجف التدريسية في المرحلة الزمنية المطروحة على بساط البحث، أي ١١٧٢هـ / ١٧٥٨م[٢].

وعلى إثر سقوط منطقة الخرج[٣] من الناحية العملية، فإنه وعدا الرياض، فقد خضع قسم ملفت للنظر من نجد لسيطرة عبدالعزيز. وبعد ثلاث سنوات فتحت الرياض والأحساء أيضاً على يد الأمير عبدالعزيز[٤]. كما تجلت الأوضاع

---

١. حسين خلف شيخ خزعل، ص ٢٢٩.

٢. لمطالعة رسالة الميرزا القمي إلى فتح علي شاه القاجاري المؤرخة ١٢٣٠ هـ، النسخة رقم ٥٣٤٨، في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي، الأوراق ٧١ب ـ ٧٣آ.

٣. حسين خلف شيخ خزعل، ص ٢٣٢.

٤. ابن بشر، صص ٨٩ ـ ٩٠. للاطلاع على العلاقات الهامة والتقابل التاريخي للأحساء النجد، انظر:

المضطربة لجهاز الخلافة العثمانية في رقعة حكمها أيضا. ورغم أن سليمان باشا أبو ليلة[١] الذي عرف بالشجاعة اختير والياً على بغداد[٢]، إلا أن النزاع نشب بين الحكام التابعين له قبل مرور عقد بقليل وعلى إثر موته (١١٧٦هـ/١٧٦٢م(. وقد شغل عمر آقا، الصهر الآخر لأحمد باشا منصب حكم بغداد أولاً[٣]، إلا أن علي آقا، حاكم البصرة وحاكم الديوانية السابق، استطاع أخيراً أن يمسك بزمام السلطة بعد الإطاحة به. فاختار الباب العالي سعد الدين باشا حاكم الرقة أولاً حاكماً لبغداد، غير مكترث بالصراع السياسي الشديد بين خلفاء أبو ليلة على تركته في بغداد ، ثم عاد حكم السلطان على إثر استقواء علي آقا والهدايا التي بعثها إلى أركان الحكم في إستانبول. وهكذا، كان آل عثمان، قد أوكلوا خلافتهم لسير الأحداث والمصير[٤].

ولم يدم حكم علي باشا طويلاً، ذلك لأنه اتهم بأنه قزلباش[٥] وإيراني[٦]. وأخيراً عينت الدولة العثمانية في عام ١١٧٨هـ / ١٧٦٤م عمر باشا على حكم بغداد.

← عبدالفتاح حسن أبو علية، صص ٣٨ـ٤٣.

١. كان سليمان باشا أبو ليلة (حك ١٧٥٠ـ١٧٦٢م)، صهر الوالي السابق أحمد باشا وقد عرف بـ«أبو ليلة» بسبب الهجوم على عشائر العراق الثائرة ليلاً. وكان لزوجته عادلة خاتون ابنة الوالي السابق، نفوذ كبير عليه، واستناداً إلى أخبار عهد توليه لمنصب الباشا، فقد كانت عادلة خاتون هي التي تحكم في الحقيقة. وقد تبقت من عادلة خاتون بعض المنشآت والأوقاف مثل أحد المساجد في بغداد.

٢. علاء موسى كاظم نورس، حكم المماليك في العراق (١٧٥٠ ـ ١٨٣١م)؛ بغداد، دار الحرية، ١٩٧٥، صص ٣٠ـ٣٣.

٣. علاء موسى كاظم نورس، ص ٣٣.

٤. رسول كركوكلي، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، ترجمة موسى كاظم نورس، بيروت، ١٩٦٣، ص ١٣٢ـ١٣٣.

٥. مراد از «قزلباش» نزد مقامات دولت عثماني، «تشيع» بود.

٦. لوريمر، ج ٤، ص ١٧٩٩.

ودفع ضعف الدولة العثمانية، عشائر مثل الخزاعل، العبيد وقبيلة بني المنتفق في جنوب العراق إلى استغلال الفرصة[١]. وأدت شخصية أمير إمارة المنتفق في ناحية سوق الشيوخ الحالية في جنوب العراق، ثويني بن عبدالله[٢] إلى أن تصبح قبيلة بني المنتفق «محط آمال البصريين والمدافعة عنهم إزاء هجمات الوهابيين»[٣] كما ذكر ذلك أحد السواح الإيرانيين في رحلته. وقد وصف الممثل الخاص لبريطانيا في بلاط إيران القدرة الهجومية لقوات ثويني التي ظهرت في هذه المرحلة باعتبارها لاعباً جديداً في الساحة السياسية في داخل المنطقة، قائلاً:

«كان معسكره يتكون من ١٠٠٠ و ١٢٠٠ خيال وعدد من الخدامة، وقد جمعت الخيم في نفس اللحظة التي خرجنا فيها من المخيم وبدأ كل الأفراد باجتياز شط العرب الذي كان عرضه يتجاوز نصف ميل في تلك النقطة.

وفي صبيحة اليوم التالي في حوالي الساعة ٩ هاجم أفراد ثويني مخيم عتوب وشتتوهم بشكل كامل. وكان الطريق الذي كان قد قطعه بين ٦٠ إلى ٧٠ ميلاً وكان عليه أن يجتاز النهرين الكبيرين على نفس الشاكلة»[٤].

وكان تقيم المفوض السامي للحكومة البريطانية، السير هارد فورد جونز هو أن

---

١. بشأن هذه الحالة، انظر: حميد حمد السعدون، امارة المنتفق وأثرها في تاريخ العراق والمنطقة الإقليمية ١٥٤٦ـ١٩١٨، عمان، دار وائل للنشر ١٩٩٩، صص ١٣٩ـ١٤٢.

٢. تولى الشيخ ثويني بن عبدالله، من آل شبيب، حكم قبيلة المنتفق بعد موت أبيه. وربما كان عهد إمارته للمنتفق، أهم العهود التاريخية لحياة هذه الإمارة الاجتماعية السياسية في منطقة الشرق الأوسط. وقد تولى السلطة خلال ٣ مراحل وقتل أخيراً بفعل إحدى المؤامرات. لمزيد من المعلومات بشأن أهمية هذا العهد التاريخي وأحداثه، أنظر: حميد حمد السعدون، صص ١٣٥ـ١٥٦.

٣. أبو طالب خان، ص ٤٢٣.

٤. السير هارفورد جونز، روزنامة سفر خاطرات هيئت اعزامي انگلستان به ايران، ترجمة ماني صالحي علامة، طهران، ثالث ١٣٨٦، ص ٤٠٠.

شيوخ القبيلة المذكورة يرون أن قسماً من مناطق سواحل الشمال الغربي ومنطقة واسعة من الصحراء التي كان يعتبرها بنو خالد في الأحساء منطقتهم[١]، تعود إلى بني المنتفق.

وأدى حدوث هذا الوضع واتساع نطاق الاضطراب في جنوب العراق، والأذواق المتحكمة في وزارة بغداد العثمانية إلى أن تفكر الممثلية السياسية التجارية لبريطانيا المقيمة في البصرة، في بديل للظروف المحتملة الناجمة عن اتساع حالة انعدام الأمن. وبناء على ذلك، فقد تم في سنة ١١٧٧هـ / ١٧٦٣م افتتاح أول مكتب بريطاني للمثلية السياسية التجارية في بوشهر[٢]. وعلى إثر مبايعة أمير الرياض في تلك السنة نفسها مع الشيخ محمد بن عبدالوهاب[٣]، وهكذا «التفاهم الوهابي. السعودي» مجاوراً لحكم زعماء مسقط وحكامها، الزيديين في نجران باليمن، شرفاء مكة وشيوخ بني المنتفق.

وفي ظل مثل هذه الأوضاع، قرر وجهاء مكة وأشرافها أن يتوجهوا إلى الباب العالي لتحذير المسؤولين في السلطنة العثمانية ويطلبوا من جهاز السلطنة أن يخرج من حالة الانفعال في مواجهة هذه الظاهرة[٤].

ويبدو أن قسماً من القوات العثمانية المتواجدة في نجد، اشتبكت على إثر هذه المفاوضات مع القوات الوهابية غير ملتفتة إلى تفوق الطرف المقابل في معرفة

---

١. نفس المصدر، ص ٢٩١.

٢. لوريمر، ج ٧، ص ٣٩٢٥.

٣. تم عقد المصالحة بين دهام بن دواس حاكم الرياض وعبدالعزيز حاكم الدرعية على إثر فشل قوات الرياض على الدرعية وخشيتها من انتقام عبدالعزيز، إلا أن هذا الصلح لم يستمر طويلاً. انظر: حسين بن الغنام، ص ١٢٣ وكذلك للاطلاعات المفصلة، انظر: حسين خلف شيخ خزعل، صص ٢٤٥_٢٤٦.

٤. وقد قدموا إلى الباب العالي رسالة قاضي مكة، دينه عطا الله أفندي، إلى المسؤولين في الدولة العثمانية بشأن ضرورة الالتفات إلى هذه الظاهرة ومواجهتها، انظر: زكريا قورشون، ص ٥٣.

المنطقة[١].

ورغم أن القوات الوهابية خرجت من هذه الحرب منتصرة، إلا أن الوهابيين هزموا هزيمة فادحة وتراجعوا حتى الدرعية على إثر الاشتباك بينها وبين حكام نجران الزيديين[٢]. وهاجم الحسن بن هبة الله المكرمي قائد قوات نجران الزيدية الدرعية بمساعدة حاكم الأحساء[٣]. وعلى الرغم من القدرة العسكرية للقوات الوهابية، إلا أن الدور السياسي والمعنوي للشيخ محمد بن عبدالوهاب هيأ في هذه المرة أرضية المصالحة بين القوات المهاجمة والقوات المدافعة[٤]. وقد أدى القيام بهذا الدور إلى أن يدرك الجناح السعودي من «التفاهم السعودي الوهابي» أن الشيخ بإمكانه حتى وإن لم يتوفر السلاح لديه، أن يلعب دوراً في تحقيق الأهداف السياسية، فضلاً عن الجانب المعنوي. ويبدو أن هذه الخصوصية أدت فيما بعد أيضاً إلى أن تتمكن حلقات الأخوة الوهابين مرة أخرى بعد فتح الدرعية والإطاحة بأسرة آل سعود عن السلطة السياسية، على يد القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا أن تقيم على أنقاض دولة نجد المستقلة، النظام الحالي لمملكة السعوديين العرب، على أرض الجزيرة العربية[٥].

---

١. فاسيليف، تاريخ العربية السعودية، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٦، صص ١٠٤ـ١٠٥.

٢. لمع الشهاب، ص ٤٢.

٣. حسين خلف شيخ خزعل، صص ٢٦٠ـ٢٦١ و أيضاً فاسيليف، ص ١٠٢.

٤. حسين خلف شيخ خزعل، ص ٢٥٠.

٥. للاطلاع على حوادث تلك السنين وكيفية تشكيل الحكومة الحالية، انظر: كريم طلال الركابي، التطورات السياسية الداخلية في نجد، بمساعي عبدالله محمد المنيف، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٤.

ظهور الأمير عبدالعزيز الأول

بعد موت محمد بن سعود والد عبدالعزيز وصهر الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأحد قطبي التحالف السعودي الوهابي، تهيأت الساحة لتواجد ابنه الأمير عبدالعزيز. وقد اختير خليفة لأبيه بدعم من الشيخ محمد بن عبدالوهاب. كما كان حفيد محمد، سعود ابن عبدالعزيز يمني نفسه بالكثير من النوايا التوسعية[١]. ومع بدأ إمارة الأمير عبدالعزيز الأول، لم يكن بالإمكان إنكار سلطة نجد بالنسبة إلى القوى السياسية الصغيرة المجاورة، ولذلك فقد تم الاعتراف به رسمياً من جانب معظمهم. ومع كل ذلك، فقد كان تعامل شرفاء مكة مع إمارة الدرعية الوهابية مراً ولاذعاً: فعندما أوكلت قافلة حجاج نجد التي كانت تنوي دخول مدينة مكة بالرسالة المشتركة للشيخ محمد بن عبدالوهاب وعبد العزيز[٢]، فقد اشترط شريف مكة، جعفر بن سعيد إصدار الإذن بدخولها بدفع المبلغ الذي كان حراس المدينة يستلمونه من الشيعة. ولكن الوهابيين رفضوا هذا الحكم وأوكلوا في الجواب الحل النهائي للسيف[٣]. ومنذ هذا التاريخ أصبح موقف الوهابيين من إمارة مكة عدائياً. وفي السنة التالية، اضطر الشريف أحمد بن سعيد، الذي كان قد حل محل أخيه بعد موته، لأن يستدعي فقيهاً من جانب الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى مكة للحد من الحرب والنزاع وكي يبين أدلة صدور فتاوى الوهابيين ومستنداتها لزعماء المدينة، علّ الأرضية تتهيأ للاعتراف بهذه الفرقة باعتبارها أحد فروع أهل السنة:[٤]

---

١. عثمان بن عبدالله بن بشر النجدي الحنبلي، عنوان المجد في تاريخ النجد، مطبوعات دار الملك عبدالعزيز، الرياض ١٤٠٢ق، ص ٩٩. كان محمد بن سعود عند موته في السادسة والأربعين.

٢. سليمان بن صالح الخراشي، تاريخ النجد من خلال كتاب الدرر السنية في الأجوبة النجدية، دار العربية للموسوعات، بيروت ٢٠٠٧، صص ٢١ ـ ٢٢.

٣. حسين خلف شيخ خزعل، صص ٢٢٤.

٤. صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٤٣.

ومع كل ذلك، فقد كان رد الفعل العنيف للشريف جعفر بن مساعد في عدم استقبال حجاج نجد، بمثابة رفض لمشروعية المذهب الجديد ووجه ضربة أساسية لمكانة الشيخ وأتباعه، وبالطبع فإن الوهابيين لم ينسوا ذلك. وقد أدت أولى تبعات مثل هذا السلوك مع الوهابيين في الدرعية إلى ان ينقض حاكم الرياض العهد، والذي كان قد انضم إلى التحالف السعودي الوهابي على إثر سقوط تلك المدينة[١]. وكان رد فعل عبدالعزيز بن محمد، حاداً وحازماً: فقد خضعت الرياض في ربيع الثاني من عام ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م للاحتلال الكامل من قبل حكام الدرعية[٢].

وكانت الأوضاع مضطربة غير مستقرة في منطقة الخليج الفارسي وكان الناس يخشون احتمال اتساع الاضطرابات إلى عمان. وكانت الحكومة القائمة في المناطق الجنوبية من إيران، أي حكومة كريم خان الزند، قد واجهت قبل ذلك بفترة قصيرة أي في ١١٨١هـ / ١٧٦٧م مقترح الفرنسيين للتحالف والتعاون[٣]. وعلى إثر انتقال المركز السياسي التجاري لبريطانيا من البصرة إلى بوشهر، كانت الحكومة الإيرانية قد تمكنت من أن تلعب دوراً باعتبارها الطرف الرئيس في التنافس السياسي البريطاني الفرنسي.

ووضعت الحكومة الزندية إرسال الجيش إلى عمان في برنامج عملها، من أجل المحافظة على هذه الفرصة واتباع سياسة نادر شاه الأفشاري، بهدف فرض السيادة الكاملة على الخليج الفارسي[٤]. وقمع الجيش الإيراني في عمان، ثوار

---

١. حسين خلف شيخ خزعل، صص ٣٠٨ـ٣٠٩.

٢. لقد سجل البعض هذه الحادثة في ذيل وقائع سنة ١١٨٧هـ. ظ : صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٤٢.

٣. هادي هدايتي، تاريخ زنديه، نشر جامعة طهران، ١٣٤٤، ج ١، ص ٢٣٤.

٤. جان. ر. پري، كريم خان زند، ترجمة علي محمدي، طهران، نشر آسوته، ١٣٨٣، ص ٣٧٢. لدراسة

مسقط ولأنه كان ينوي أن يعود إلى داخل إيران من طريق البصرة من أجل ضبط الأوضاع وبسط سيادة إيران على السواحل الجنوبية، فقد عمدت الحكومة الزندية إلى مراسلة المسؤولين العثمانيين وقد اعتبرت معارضة الحكومة العثمانية مرور القوة المتوجهة إلى مسقط من جهة البصرة، أحد أسباب إقدام صادق خان الزند على مهاجمة البصرة[١]. وقد ذكرت المصادر المختلفة، أدلة أخرى في هذا المجال، وكان من جملتها ضرورة دعم تجارة بوشهر في مقابل البصرة[٢]، التنافس مع بريطانيا وإضعاف دورها وتأديب والي البصرة[٣]، ذلك لأنه كان قد حاكم مير مهنّا، المتمرد الذي خرج من جنوب إيران والذي كان قد لجأ إلى البصرة، وعاقبه بالقتل[٤].

← حوادث الصفحات الجنوبية في العصر الزندي ، ظ : مهدي إبراهيم وأحمد موسوي، «فراز ونشيب روابط خارجي كريم خان زند با انگلستان» فصلنامه تاريخ روابط خارجي، خريف ١٣٨٩، صص ١ـ٢٨ و أيضاً: عبدالله متولي، «عوامل مؤثر بر مناسبات ايران وعثماني در دوره زنديه» فصلنامه تاريخ روابط خارجي، ربيع ١٣٨٩، صص ١٤٣ـ١٧٠.

١. سيد علي موجاني، آخرون ، أسناد سلطاني، قم، مكتبة حضرت آية الله المرعشي النجفي(ره) ١٣٨٨، ج ٢، ص ٤٣٩. المصدر السابق، ص ٤٤٩، وبالطبع فإن توفير الأمن للحجاج كان هو أيضاً يمثل طلباً آخر لنشر القوات الإيرانية في البصرة حيث يبدو أن إرسال الجيش وضع على جدول الأعمال بسبب معارضته، المصدر السابق، ن. ص، ص ٤٤٠.

٢. عبدالأمير محمد أمين، القوى البحرية في الخليج العربي، في القرن الثامن عشر، بغداد ١٩٦٦، ص ٦٢.

٣. سليمان آغا.

٤. تشير المصادر القريبة من عهد الزنديين مثل رستم التواريخ حتى إلى نص المراسلة المنسوبة إلى كريمخان مع والي البصرة كالتالي «أيها العديم العقل والفطنة لماذا شنقت أنت خادمنا المتمرد علينا. إن معاقبة العبد المذنب تقع على عاتق سيده لا غيره»... ويجب أن نضيف فيما يتعلق بهذا الهجوم أن صادق خان يبدو أنه جهز الجيش إلى البصرة عبر الطرق البرية على رأس قوات على ما ←

وعلينا أن لا ننسى أن ضعف الدولة العثمانية بموازاة تفوق شيوخ بني المنتفق يمكن أن يكون هو أيضاً من العوامل المهمة لاهتمام إيران بتمشية أمور السواحل الشمالية من الخليج الفارسي. ومن جهة أخرى، فإن استمرار سياسة نادر شاه في فرض سيادة إيران الساحلية وكذلك تسهيل تردد الحجاج بشكل مستقل لا في قوافل أمير الحاج التابع للدولة العثمانية في حين أن طرق مسقط لنگه وبوشهر البحرية كانت قد أغلقت بسبب سلطة «التفاهم السعودي. الوهابي»، كان بإمكانها أن تكون لوكيل الرعايا كريم خان الزندي منفذاً لكي يرسل الحجاج الإيرانيين مع توفير الأمن، عن طريق البصرة جبل شمّر[1].

وفي ١١٩٠هـ / ١٧٧٦م وبعد سنة من العمليات، دخلت القوات الإيرانية المنتفق تحت قيادة صادق خان الزندي واستطاعت أخيراً أن تجبر قبيلة المنتفق على الرضوخ لسيادة إيران السياسية[2]. وأرسلت الحكومة العثمانية، سفيرها،

← يبدو ولم يواجهوه إلا في المنتفق ر.ك. محمد باقر وثوقي، تاريخ خليج فارس وممالك همجوار، طهران: انتشارات سمت ١٣٨٤، صص ٣٧١_٣٧٢. وقد ذُكر في رحلة طالبي فتح الماء على جيش إيران في المنتفق المذكورة، ظ: الميرز أبو طالب خان، ص ٤٢٣ وبالإضافة إلى مجموعة الأدلة السابقة يجب أن نأخذ أيضاً بنظر الاعتبار أن هجوم القوات العثمانية انتقال القوات من البصرة إلى مسقط التي كانت تعتبر المتحالف الطبيعي لإيران لم يبدأ في عهد حكم والي بغداد عمر آقا الذي كان قد أعلن الحرب، ولذلك فإن الحكومة الزندية كانت تميل إلى أن تبدي رد فعل إزاء الموقف العثماني، ر.ك: موجاني، أسناد سلطاني، ج ٢، صص ٥٧٤ ـ ٥٧٥ وأيضاً أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-811-37233-2921189-1

١. كتب والي بغداد عمر باشا في ٦ شوال ١١٨٩هـ رسالة إلى الباب العالي وتحدث فيها عن رسالة سفير إيران عبدالله بك بخصوص انعدام الأمن في طريق الحجاج، ورفض تصريحات سفير كريم خان. ويمكننا أن نستنتج من هذه الرسالة أن موضوع توفير الأمن للحجاج من الطريق المذكور، كان من شأنه أن يكون إحدى أولويات الهجوم على البصرة للطرف الإيراني ظ: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: .HAT-7-218-17za1189

٢. الشيخ محمد النبهاني الطائي، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، بيروت، دار إحياء العلوم

شاوي زاده إلى كريم خان الزندي مطالبة بإخلاء البصرة، مع هدايا نفيسة[١].

وهيأ الصراع في المناطق الشمالية من الخليج الفارسي خلال هذه السنين، الفرصة مرة أخرى لتوسيع رقعة الحكومة المستقلة والحديثة التأسيس المنبثقة من «التفاهم السعودي الوهابي»: فقد استسلمت اليمامة، ١١٩٠هـ/١٧٧٦م[٢]، والأحساء بشكل كامل في ١١٩٢هـ/١٧٧٨م في الصراع مع عبدالعزيز وانضمتا إليه[٣].

تأسيس السياسة المستقلة في طهران و بغداد

على إثر موت كريم خان الزندي ومبادرة آقا محمد خان القاجاري إلى تشكيل حكومة مستقلة في مناطق شمال إيران، كان العهد الطويل نسبياً من فقدان حكومة مركزية وشاملة لإيران، في طريقه إلى النهاية. وأدخلت الدولة العثمانية من جهة أخرى أسلوباً جديداً في الإدارة في المعادلات السياسية داخل المنطقة من خلال اختيار سليمان باشا[٤]. والياً لبغداد ومنحه الاختيارات الاستثنائية ومنها القيام بالعلاقات المستقلة نسبياً مع الدول المجاورة واستطاع سليمان باشا أن يقيم حكومة بغداد شبه المستقلة من خلال هذه السنين وأن يتمتع بصلاحيات واسعة قياساً مع ولاة الدولة العثمانية الآخرين؛ ولذلك، فقد اعتبر مؤسس حكومة

← والبحرين، المكتبة الوطنية، ١٩٨٦م، ص ٤٣ وأيضاً بخصوص كيفية الموضوع، ظ: حميد حمد السعدون، صص ١٢٢ ـ ١٣٠.

١. موجاني وآخرون، أسناد سلطاني، ج ٢، ص ٤٥٠.

٢. ابن بشر، صص ١٢٨ ـ ١٢٩.

٣. السابق، صص ١٣٦ ـ ١٣٧؛ أيضاً: صلاح الدين المختار، صص ٤٣ ـ ٤٨. كان عبدالعزيز وابنه سعود متورطين بالصراع والمعارك المتفرقة منذ هذه السنة وحتى نهاية القرن ١٢هـ.

٤. كان يعرف أيضا بلقبي سليمان باشا الكبير و«أبو المماليك».

مماليك العراق[1].

وبذلك فقد أسس تعيين سليمان باشا أبي المماليك في ٥ شوال ١١٩٤هـ / ١٧٨٠م على بغداد، عهداً جديداً في النظام السياسي الحاكم في العراق. وتحولت العلاقات بين القوتين الإيرانية والعثمانية والتي كانت مباشرة قبل ذلك، إلى تابع للعلاقات بين حكومة بغداد وإيران بالنسبة إلى رجال الحكم العثمانيين. وقد تركت هذه القضية تأثيراً سلبياً على العلاقات بين البلدين، وأعادت الدولة العثمانية أخيراً في حوالي ١٢٢٠هـ / ١٨٨٠م النظر في هذه السياسة التي كانت قد كبدت تلك الدولة نفقات باهظة[2].

---

١. بشأن فترة حياته وتأثيره ظ: علاء موسى كاظم نورس، صص ٦٥ ـ ٤٦.

٢. تم إيفاد جلال أفندي ثم ياسينجي زاده عبدالوهاب أفندي في سنة ١٢٢٦هـ / ١٨١١م بهذه المهمة إلى بلاط إيران، كي يؤكدا في معرض الاعتذار بسبب السلوك عير المسؤول لوالي بغداد في الهجوم على الأراضي الإيرانية في منطقة كردستان، على أن نطاق العلاقات بين الجانبين يجب أن تتابع مرة أخرى على مستوى السفير المقيم في طهران وإستانبول. وقد أقام فترة طويلة في طهران استناداً إلى التعليمات التي كان يحملها وبذلك فقد تهيأت الأرضية لافتتاح السفارة الكبرى لحكومته ثم سفارة إيران في إستانبول. وبالطبع فإن بإمكاننا أن نشير في مجال تنفيذ السياسة الجديدة لرجال الحكم العثمانيين آنذاك إلى توصيات أحد الصدور العظمى لتلك الدولة فيما يتعلق بمستوى العلاقات وشكل الاتصالات الدبلوماسية. فقد أوصى في عام ١٢١٧هـ / ١٨٠٢م، أي تزامناً مع بداية حكم فتح علي شاه وعند التوجه إلى بلاط إيران من أجل إيصال رسالة من جانب الدولة العثمانية، أوصى السلطان قائلاً: «إن الشاه المستقل والمستبد ليس من أصل وسلالة ملكية، فكل خان من خانات الولايات والممالك الواقعة في إيران يتفوق على الآخرين ويتغلب عليهم، يطلق على نفسه لقب الملك. وباباخان [فتح علي شاه] الذي يتربع الآن على عرش الملوكية بعد وفاة آقا [محمد] خان، ليس من سلالة ملكية كما قلنا ولم يتبوأ مثل هذا المقام إلا لتفوقه على الآخرين، حيث وكما جاء في رسائل جلالة الملك والتي من المقرر أن تكتب إليه، فلتحرر الألقاب التي كانت تطلق قبل ذلك في رسائل جلالة الملك إلى ملوك إيران الحقيقيين، فإنها سوف تؤدي إلى أن يسود التصور بأن سلطنته قد تم تأييدها من قبل الدولة العلية حيث إن من

←

وقد اتاحت فترة تلك السنوات وانتقال قوة القرار من إستانبول إلى بغداد، الفرصة لعبدالعزيز بن محمد في إطار التمردات العسكرية في مناطق نجد المختلفة وأطرافها[١].

وكان الحدث الوحيد بعد انتقال السلطة السياسية إلى بغداد في نجد، ثورة أهالي وادي القصيم على الوهابيين حيث قمعها الأمير عبدالعزيز هي أيضاً[٢]. ويبدو أن قوة أمير الدرعية عبدالعزيز الحديثة الظهور، أثارت اهتمام القرى خارج المنطقة اعتباراً من هذه السنين.

اتجاه القوى الفوإقليمية

كانت فرنسا قد اهتمت إلى حد كبير بالمحافظة على ارتباطها مع الهند لتأمين حاجاتها وذلك خلال السنوات العسيرة والمنتهية بالإنقلاب الكبير وبعد عهد حروب سلالة بوربون الطويلة. وكان اقتراح التعاون مع الحكومة الإيرانية في عهد كريم خان الزندي وتأمين تجهيزات إيران العسكرية إزاء استلام المواد التي تحتاجها، نموذجاً من حاجة المسؤولين الفرنسيين للعثور على شريك موضع ثقة في المنطقة. ورغم أنه المنافس الرئيس لفرنسا كان قد استطاع خلال هذه السنوات أن يسبق المنافس من خلال افتتاح الممثلية التجارية السياسية في

← البديهي أن مثل هذا التأييد فيه محاذير في الوقت الذي لم تؤيد الدول الأخرى سلطنته بعد. ومن جهة أخرى فإن من الواضح والبديهي أنه إذا خوطب بلقب خان الممالك الخاضعة لسيطرته بدلاً من الألقاب الملكية، وتطلق عليه ألقاب بهذا المستوى، فسوف يُخشى أن يرفض مثل هذه الرسالة في حين أنه يدعي التفرد الملكي». أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: .HAT-00094-03816-0001

١. للاطلاع على هذه المصادمات، ظ: صلاح الدين المختار، ج ١، صص ٤٥ ـ ٤٦.

٢. المصدر السابق، ج ١، صص ٤٧ ـ ٤٨.

البصرة والتواجد فيها ثم في بوشهر، إلا أنه قرر في ظروف ضعف الحكومتين الإيرانية والعثمانية أن ينسى سياسة الارتباط بالمركزية السياسية، سواء في بغداد، أم شيراز وتسعى لأن تقيم من خلال اتخاذ سياسة عملية والتواجد في المنطقة أساساً جديداً في علاقاتها مع الشيوخ والقوى المحلية الحديثة الظهور. وفي ظل هذه الظروف، كانت منطقة الخليج الفارسي قد اكتسبت دوراً أهم بمرات عديدة بالنسبة إليهم، لثلاثة أسباب:

- لأنها تمثل أهم أسرع طريق للحصول على الرسائل الإدارية لسعاة البريد السياسيين وانتقالها بين مستعمراتهم في الهند مع لندن وباريس،

- لأنها تمثل أهم إمكانية لكل منهم إزاء الآخر، حيث كان بإمكانهم في حالة نشر أسطولهم في السواحل الهادئة للخليج الفارسي أن يضمنوا أمنهم البحري إزاء عواصف المحيط الهندي من خلال النشر المؤقت للأسطول في الخليج الفارسي، ولكي تشرف أيضاً من خلال هذا الطريق، على مسار حركة الملاحة الهجرية للوصول إلى الهند من خلال سواحل عمان،

- لأنها كانت تمثل أولى الجبهات المحتملة للمقاومة إزاء أي نوع من الأعمال العدوانية للعدو الرئيس والمشترك لكلا البلدين، أي روسيا، التي لم تكن تخفي رغبتها في الوصول إلى السواحل الجنوبية منذ عهد بيتر.

ويعتقد المؤلف أن أحداث هذه السنوات تتمتع بأهمية كبيرة. وقد سعى الباحثون السعوديون في القرن الأخير لأن يؤكدوا على هذه الملاحظة وهي أن الأساليب العدائية والحادة للأمراء السعوديين مع العناصر الغير مسلمة، سواء في الحكومة المستقلة المنبثقة من التفاهم السعودي الوهابي، أم في عهد حكم عائلة سعود، تمت بهدف تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية وإبعاد الكفار والمشركين عن المناطق المقدسة. وتظهر أحداث السنوات موضوع البحث أن اتجاه عبدالعزيز، ابنه سعود وحلفائهما الوهابيين في منطقة نجد، لم يكن يتبع هذا النموذج

السلوكي، خلافاً لهذا التحليل.

وقد بدأت العلاقات بين أمير نجد السعودي وبين ممثلي بريطانيا السياسيين التجاريين منذ هذه السنين. ويرى أحد المسؤولين البريطانيين الرفيعي المستوى قائلاً: «إننا حافظنا على هذا التقليد وعلى علاقات صداقتنا مع ابن سعود... وبلك فقد كان هنالك تفاهم ثنائي جيد بين مركز التمثيل التجاري لبريطانيا وزعيم الوهابيين على أساس الاحترام المتبادل. وقد كنت أعلم لأسباب مختلفة أن ابن سعود كان يرغب بمقدار ما نرغب في المحافظة على هذا التفاهم»[١]. وقد أسس هذه العلاقات مانستي أولاً ثم لا توش الذي غادر في أواخر عام ١٧٨٤م / ١١٩٩هـ منطقة مهمته في البصرة. ولم يدل المسؤول البريطاني أي حديث أبداً عن «الأسباب المختلفة» التي أشار إليها، إلا أن هذا القسم مما ذكره وهو أن «ابن سعود يرغب بقدر ما نرغب في المحافظة على هذا التفاهم» يدل على توافق وتعهدات أهم مما التزم به، حيث إنه نزّل هذا المستوى نفسه فيما بعد في أثره إلى مستوى «تبادل الهدايا القليلة الأهمية»[٢].

وإن التقارير المعدودة المتبقية من تلك السنين والتي حصل عليها المؤلف تدل على التعامل المزدوج لأمراء نجد في التفاهم السعودي الوهابي مع الأجانب الأوربيين والذين كانوا يترددون خلال ذلك العهد في نجد والحجاز. ويعد الضابط الفرنسي الشاب دوبرغ الذي هوجم، نموذجاً ومصداقاً واضحاً في هذا المجال[٣]. ومن خلال مطالعة نماذج من هذا القبيل وإشارات مثل «تبادل الهدايا وأسباب المختلفة» والتي كانت تنظم علاقات بريطانيا مع أمراء نجد، يبدو أن

---

١. جونز، ص ٢٩٦.

٢. المصدر السابق، ن. ص.

٣. حكاية العقيد جيمس كابر في كتاب گزارش روزانة سفر در صحراي بزرگ أز جلب تا بصره ذيل وقائع ٢٤ كانون الثاني ١٧٧٩ نقلاً عن جونز، صص ٤٠٠ ـ ٤٠٥.

وهابيي نجد لم يكونوا يتخذون القرارات على أساس معتقدات الشيخ محمد بن عبدالوهاب أو تعاليمه فقط، خلافاً للتصور السائد: فقد كانوا يعرفون ويدركون البيئة الدولية إلى درجة بحيث كان بإمكانهم أن يعتبروا بين المواطن الفرنسي والمواطن البريطاني، أحدهما «صديقاً» ومن «أهل الكتاب» والآخر عدواً و«كافراً».

وعلى أي حال، فإن هالة الغموض والشك في مجال كيفية علاقات المسؤولين البريطانيين في المنطقة مع «التفاهم السعودي الوهابي» ما تزال واسعة في تاريخ الشرق الأوسط والطريق مفتوح أمام أخذ أي احتمال بنظر الاعتبار. ولعل كتاب «مذكرات همفر الجاسوس البريطاني في البلدان الإسلامية»[1] والذي صدر أولاً في العراق باللغة العربية، ثم نشرت ترجماته الفارسية مراراً في إيران، أن يكون نموذجاً مهماً أكثر من أي كتاب آخر، بين الآثار المتعلقة بهذا العهد[2].

---

١. مذكرات همفر الجاسوس البريطاني في الممالك الإسلامية.

٢. كما جاء في هذا النص فقد دخل همفر رقعة حكم الدولة العثمانية بمهمة «جمع المعلومات الكافية بهدف البحث عن طرق هزيمة المسلمين» مع ٩ أشخاص آخرين، من جانب وزارة المستعمرات مزوداً بتخصيصات مالية كافية ومعلومات دقيقة مثل الفهرست الكامل لأسماء الوزراء، الحكام، المسؤولين الرفيعي المستوى، العلماء وشيوخ القبائل (ص١٥) ويوجد في هذا الكتاب الكثير من التناقضات حيث تدل)بالطبع على ضعف أساسي لمؤلفه، ومن جهة أخرى، فإنها تظهر التناقض في سلوك الحكومة السعودية إزاء بريطانيا وفرنسا. وفي الحقيقة، فإن الاهتمام بهذه المذكرات مهم بنفس المستوى الذي يجب فيه على الباحث أن يحقق حول أصالة لمع الشهاب في مسيرة محمد بن عبدالوهاب ومن الملاحظات التي تشكك في الأصالة التاريخية لهذا النص، كما هو الحال بالنسبة إلى لمع الشهاب، المعلومات المنسوبة إلى همفر. وقد لا تنسجم عبارات هذا الكتاب أحياناً مع تقاليد الكتابة الشائعة في ذلك العصر)أي قبل ثلاثمائة سنة(. وعلى سبيل المثال، فإن الحديث عن الاختلافات العرقية بين البيض والسود)ص ٣١) في حين أن تجارة الغلمان كانت شائعة في أسواق البصرة، بل لم تكن تعتبر مذمومة ومدانة، هو مما

←

وبعد خروج قوات الحكومة الزندية من البصرة، تهيأت مرة أخرى إمكانية اكتساب قبيلة المنتفق للسلطة والنفوذ. وقد هاجم إخوة ثويني عبدالله، حاكم المنتفق في عام ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م وادي القصيم في نجد على رأس جيش قوامه ٧٠٠ جمّال[١]. وبالطبع فإن المعلومات حول هجومهم هذا محدودة وتمكننا الإشارة فقط إلى المصادر البريطانية الموجودة في المنطقة والتي تفيد بأنهم كانوا

← يستحق التأمل والتوقف عنده. العبارات والكلمات التي تم الاصطلاح عليها بشكل عام في أواسط القرن ١٩ للميلاد أو حتى القرن الأخير، مثل الاستعمار)ص٧)، المؤسسات الخيرية (ص٨٧)، طاجيكستان، وتركمنستان (ص ٩١)، الاقتصاد القومي (ص٩٦). ويستدعي حديث كاتب هذا النص، والذي اختير من بين ٩ أشخاص لوزارة المستعمرات البريطانية، أنه كان جاسوساً للحكومة الروسية بحد ذاته (ص ٢٥)، يستدعي إلى الأذهان أن أخبار أجواء سنوات التنافس المحموم بين القدرتين روسيا وبريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر، قادت ذهن المؤلف إلى تشبيه الأحداث المعاصرة له بالأحداث التي وقعت قبل قرن ونصف. وعبارات كتاب همفر في وصف شخصية الشيخ محمد ابن عبدالوهاب متناقضة. وعلى سبيل المثال، فإن همفر، يعتبر الشيخ «شاباً متحرر الفكر بمعنى الكلمة» إلا أن المؤلف يرى في موضع آخر بحزم أن هذا «الشاب المتحرر الفكر» نفسه سوف يبقى متصلباً إزاء عقائد شيعة مدينتي أصفهان وشيراز (ص٥٨). ويمكن القول بشكل مختصر إن الحجم المحدود للمصادر والدراسات التاريخية بسبب غلق المراكز الوثائقية في بلد السعوديين، مع تركيز المؤرخين السعوديين على دراسة تاريخ حركة الوهابيين من منظار القضايا الإيديولوجية، وسكوتهم إزاء الروايات من الإشارات التاريخية للعلاقات بين عمال بريطانيا وبين القسم السعودي من «التفاهم السعودي الوهابي»، وربما التهرب من النقد التاريخي لأحداث السنوات الأولى لهذه الحركة، كل ذلك أدى إلى ازدياد التخمينات العديدة، الشكوك الجدية بل وحتى اختلاق القصص حول أساس قواعد ظهور الوهابية وتشكلها.

١. في هذا الخصوص انظر: تقرير والي بغداد إلى الباب العالي أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00002-0064-0001. وقد أورد المؤرخون النجديون تاريخ ورد وجيش ثويني في محرم السنة التالية، في هذا الخصوص أنظر: ابن بشر، صص ١٥٨-١٥٩، أيضاً: صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٤٩.

يعتبرون السواحل الجنوبية من الخليج الفارسي رقعة سلطتهم السياسية[١]. ولكن تجب الإشارة فضلاً عن ذلك إلى الموارد المالية المتحصلة في الاستيلاء على المنطقة، والتي تحصلت من حركة قوافل الحج.

دور بلاد الشام وبداية تنافس الولاة

أدت مجموعة العوامل مثل الاعتداءات والاشتباكات العديدة بين القبائل الوهابية في نجد مع أمراء شبه الجزيرة العربية الآخرين، تحرُّك قوى عشائر جنوب العراق وخاصة بني المتفق وكذلك مبادرة كريم خان الزندي إلى قطع طريق وصول الدولة العثمانية إلى شبه الجزيرة عن طرق العراق، إلى أن يضع الباب العالي في هذه المرحلة الزمنية، مبادرة جدية أخرى في برنامج عمله: ففي سنة ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م اختار السلطان العثماني، الجزار أحمد باشا، والي عكا في منصب أمير الحاج لقافلة الشام المهمة[٢].

---

١. جونز، ص ٢٩١.

٢. خدم الجزار أحمد باشا البوسني (توفي ١٢ محرم ١٢١٩هـ/ ٢٣ نيسان ١٨٠٤م) والي الدولة العثمانية في بلاد الشام (سورية وفلسطين)، كان يخدم أيضاً لفترة في مصر، خلال الدورة التاريخية المتعلقة بموضوع هذا الأثر. وسمي بالجزار بسبب عنفه وبطشه لمعارضيه. وكان أهم حدث تاريخي تخلد فيه اسمه هو الهزيمة التي أوقعتها القوات الخاضعة لأمره بنابليون بونابرت، قائد جيش الجمهورية الفرنسية وراء تحصينات مدينة عكا. وباحتلال مصر من قبل القوات الفرنسية، عين الجزار أحمد باشا من قبل الدولة العثمانية قائمقاماً عاماً لولايات الشام ومنطقة مصر المحتلة وتقرر أن ينبري لتحرير مصر المحتلة. وقد استطاع الجزار أحمد باشا وبمساعدة الأسطول البريطاني الذي كان يقصف الجيش الفرنسي من البحر، استطاع أن يدحر قوات نابليون بعد أكثر من شهرين من الحصار، من عكا وأن يهزم جيوش الجمهورية الفرنسية لأول مرة، للاطلاع على هذه الحادثة، انظر: آريل ديورانت، تاريخ الحضارة وكذلك للإطلاع على مصير

←

ولذلك فقد كانت قافلة الشام تتمتع بمكانة أكبر بحيث أن معظم رعايا الدولة العثمانية كانوا يمرون بدمشق ويتوجهون منها للحج بهدف مرافقة قافلة الشام، التي كانت تحمل «المحمل الشريف»[١]. وكانت إقامة المراسيم العامة، إظهار الفرح والدبكة خلال استقبال القافلة التي كانت تحمل كسوة بيت الله الحرام إلى مكة، إحدى الروائع الرئيسة لقافلة الحجاج في مسارات المدن.

وكان أحمد باشا الجزار، يتمتع بشأن ومكانة عالية بين ولاة الدولة العثمانية آنذاك. وقد أشار أحد الباحثين الغربيين إلى ملاحظة حول أحمد باشا الجزار لا نجدها في المصادر الأخرى. وإذا ما أخذنا برأيه، فإن بإمكاننا أن نحتمل أن اختياره تم بهدف التأثير المباشر على وهابيي نجد. وهو يرى أن نسب الجزار باشا البوسني كان يصل إلى أهل بيت نبي الإسلام ﷺ بل إنه يذكر أن أهالي دمشق كانوا يعتبرونه «الحجة الموعود»[٢].

ورغم أن الجزار باشا اكتسب شهرة عالمية في السنوات اللاحقة وبعد هزيمة نابليون أمامه في قلعة عكا، إلا أن انتماء الجزار إلى الأشراف أو ميله إلى الشيعة غير مقبول؛ خاصة وإن نائب السلطنة في إيران عباس ميرزا القاجاري، ذكر بمرارة في حواره مع جوبير الممثل السياسي للحكومة الفرنسية، السلوك الوحشي للجزار باشا مع الزائرين الشيعة[٣].

→ الجزّار أحمد باشا، انظر:

Islam ansiklopedisi, turkiye dianet vakfi, isltanbul 1993, Cilt 7, pp516-518.

١. كانت الدولة العثمانية ترسل سنوياً مجموعة من النذور والهدايا خلال بعض المراسم وكان من جملتها كسوة الكعبة من إستانبول إلى مكة مع قافلة الحجيج.

٢. جرالد دو غوري، حكام مكة، القاهرة، مدبولي ٢٠٠٠، صص ٢١٢-٢١٣.

٣. كتب جوبير في هذا المجال قائلاً: «تشرفت في اليوم الآخر بزيارة الأمير [عباس ميرزا القاجاري]. وسألني عن فتوح الجيش الفرنسي في مصر وعن أحمد الجزار قائلاً: ماذا تعرف عن ←

كما كان اختيار الجزار باشا من جانب السلطان العثماني، من بين المساوين له في المرتبة أي والبي بغداد ومصر، له معنى خاص. ويبدو أن التنافس الداخلي بين ولاة الدولة العثمانية في المدن المختلفة، ازداد إلى حد كبير منذ هذه السنين فصاعداً. وكان توقع كل من هؤلاء الولاة، اتساع نطاق الصلاحيات أو رقعة الحكم، من الباب العالي. وكان السلطان والصدر الأعظم يسعيان دوماً إزاء هذا الطلب، لأن يحولا دون اتساع سلطة الولاة. ويجب أن لا ننسى أن الرقعة الواسعة للدولة العثمانية وضرورة تفويض الكثير من الأمور للولاة، مثل العزل والتعيين أو قيادة الجيش في المناطق الحدودية، الاتصال بالمسؤولين في البلدان المجاورة وكذلك متابعة الأمور الوقفية والشرعية، كان من شأنها أن تهيئ في ظروف خاصة أرضية التمرد والحكم الذاتي بينها أو تجعل الحكم وراثياً في أسر الولاة. وعلى سبيل المثال، فقد كان سليمان باشا الكبير الملقب بـ«أبي المماليك» نفسه صهر أحمد باشا الوالي السابق وجلس من بعد موته على مسند ولاية بغداد، صهره هو نفسه، كد خدا علي باشا وشغل من بعد كد خدا علي باشا ابن أخته سليمان بك، منصب خاله.

وبناء على ذلك، فقد كان يخشى في حالة أي نوع من عدم الاهتمام بإدارة تقسيم السلطة بين الولاة، من أن تواجه الدولة العثمانية ادعاءات الولاة بالاستقلال. ولذلك فقد كان من المبادئ السياسية للباب العالي، في تنظيم التوازن الداخلي، إيجاد نوع من التنافس بين الولاة، لمزيد من التقرب من منصب الخلافة والسلطنة من خلال تفويض المسؤوليات المهمة، كي يتقرب بذلك نظراء الوالي،

← هذا الوحشي الجرئ؟ وأحمد الجزار ليس عدو العيسويين فقط، بل إن عداءه للطائفة الاثني عشرية أكثر وحشية وقد قتل ونهب مؤخراً جماعة من الحجاج الشيعة كانت متوجهة لزيارة مكة المعظمة» انظر: محمد حسن خان اعتماد السطنة، مرآة البلدان، بتحقيق عبدالحسين نوابي وميرهاشم محمدث، طهران، جامعة طهران، ١٣٦٧، ج ١، ص ٥٨٧.

ويكسبوا اهتمام السلطان والصدر الأعظم من خلال تقديم المزيد من الخدمات.

وقد سبقت الإشارة إلى أن الأخوة الثويني هاجموا وادي القصيم في نجد في سنة ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م على رأس جيش قوامه ٧٠٠ بعير وطلب الثويني أمير قبيلة المنتفق بعد سنة من خلال إرسال مفتي سوق الشيوخ إلى الباب العالي، من السلطان أن يفوض إمارة البصرة إليه[١]. وكانت قبيلة المنتفق تظهر دوماً في خلال هذه السنوات في دور الحائل بين العراق وشبه الجزيرة العربية وكانت قد تهيأت في هذه الفترة الفرصة المناسبة للاستقرار الدائم لهذا الدور لهم: فقد كانت عشائر المنتفق ملأت فراغ خروج الدولة الزندية كما لم يكن الجهاز الإداري لسليمان باشا أبي المماليك قد امتلك بعد القدرة اللازمة على فرض السيادة على المناطق الجنوبية من العراق. ومنذ هذه الفترة لفتت بعض المناطق من جنوب العراق اهتمام المجاميع الوهابية، استناداً إلى الأخبار التي وصلتنا.

نجد تستهدف العتبات العاليات ذات الدرجات التي تضاهي درجات العرش

إن سبب اهتمام وهابيي نجد بعراق العرب، يثير تساؤلاً أساسياً في موضعه؛ فليس من الواضح فيما إذا كانت دوافعهم المذهبية هي التي جرتهم وحدها نحو البصرة، كربلاء والنجف أم إن الاطلاع والعلم بالاستثمارات الواسعة لحكومة نادر شاه الأفشاري لتوسيع العتبات المقدسة وخاصة النجف وإعمارها أثارت كما مرّ دافع الهجوم على العتبات المقدسة ونهبها؟ يرى المؤلف أن من غير الممكن الإجابة على هذا السؤال بشكل دقيق، وبناء على ذلك، لعل من المناسب أن نلتفت إلى «الفصل المشترك» لكلا الدافعين. وبالطبع فإن هنالك عاملاً آخر يجب أن نأخذه هو أيضاً بعين الاعتبار: إذ يبدو أن قسماً من النظام الإداري للدولة العثمانية

---

١. ابن بشر، ص ١٥٩.

كان له دور في مراحل زمنية خاصة، في تسهيل وصول القوات الوهابية إلى هذه المناطق.

وعلى سبيل المثال، فقد طلب الصدر الأعظم في أحد العهود التاريخية توظيف إمكانية توجيه اعتداءات القوى الوهابية نحو حدود إيران. كما قمع سليمان باشا أبو المماليك في بعض الحالات، العشائر الشيعية في جنوب العراق، في مقابل قدرة هذه العشائر وصراعها ضد القوى الوهابية المعتدية، خلافاً للمصلحة[1].

وفضلاً عن أن هذه الإجراءات، كانت «تكتيكية» بالنسبة إلى الدولة العثمانية أو «استراتيجية»، فإن ما تمخض عن هذه السياسة لتلك الدولة ثم المنطقة برمتها، كان الإشراف المخابراتي لوهابيي نجد على الطرق وإزالة العقبات الطبيعية في طريقهم مثل عشائر بني المنتفق في الجنوب؛ فقد هاجم وهابيو نجد المدن الشيعية في جنوب العراق مراراً مستغلين هذه الفرصة خلال العقدين اللذين تليا هذا التاريخ، تحت غطاء «الغزوات» ، ولكن بهدف القتل ونهب كنوز العتبات المقدسة ونفائسها.

وفي العام ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م وقعت حادثة مهمة أخرى في شبه الجزيرة العربية نفسها هيأت نتيجتها الأرضية لمزيد من القوة لـ«التفاهم السعودي الوهابي»: فقد بدأ في منطقة الأحساء هجوم ضد الأمير سعدون أحد أمراء بني خالد وحاكم تلك المنطقة. وقد لجأ الأمير سعدون إلى الدرعية أخيراً في الاختيار بين الأباضية في عمان والوهابيين في نجد واستقبله أمير نجد عبدالعزيز. وبذلك، فقد انشق شيوخ بني خالد الذين كانوا قبل ذلك نقطة الارتكاز الوحيدة في المناطق الشمالية من شبه الجزيرة ضد الوهابيين وانضمت إمارة الأحساء بعد هذه الحادثة إلى رقعة الوهابيين. ومن أجل دراسة هذه الأوضاع، يجب أيضاً الالتفات إلى سياسة والي

---

1. Zederiyya Kursun. Necit ve Ahsa da Osmanli Hakimiyeti, TTK 2000, p.33.

بغداد سليمان باشا، الذي كان قد قطع المساعدات التي التزمت بها الدولة العثمانية إزاء شيوخ بني خالد، نظراً إلى قلة الموارد المالية في خزانة بغداد، ذلك لأن ظهور السخط في الأحساء يبدو أنه كان على علاقة بهذا الموضوع[١].

وربما قرر عبدالعزيز في عام ١٢٠٢هـ / ١٧٨٧م، بناء على اقتراح الشيخ محمد بن عبدالوهاب أن يأخذ البيعة من العشائر والشيوخ، لابنه سعود بن عبدالعزيز[٢]. وقد هيأ التسلط على إمارة الأحساء أرضية الجوار بين الإمارة الوهابية في نجد والإمامة الأباضية في مسقط. وقد طلبت سلطنة مسقط المساعدة من الحكومة البريطانية في بومباي؛ ولكن اللورد كرزن يرى أن حكومة بومباي كانت مصممة في ذلك العهد على أن لا يحدث صدام[٣] بين القوتين في شبه الجزيرة[٤].

وفي ظل مثل هذه الأوضاع، فقد انتهجت الحكومة البريطانية، على ما ذكر كرزن، سياسة عدم التعرض بين نجد ومسقط. ويتضح من الأحداث اللاحقة أن هذه السياسة المتوازنة في المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة، كانت في أولوية «التفاهم السعودي. الوهابي». وفي هذه الحالة، أي الإحساس بالأمن من ناحية عمان، فقد تحول اتجاه القوات الوهابية من المنطقة الشرقية نحو حدود العراق والحجاز.

وإن سليمان باشا والي بغداد الذي كان قد أدرك أن تبعات تطورات نجد من شأنها أن تُحكم قبظة الجزار باشا على شؤون المناطق التي يهتم بها مجتمع المسلمين أي الحرمين الشريفين، قرر أن ينتهج سياسة مختلفة وخطيرة في نفس

---

١. جونز، ص ٢٩١.

٢. صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٥١.

٣. نجد وعمان.

٤. جورج ناتانيل كرزن، ايران وقضية ايران. ترجمة غلامعلي وحيد مازندراني، طهران، ١٣٨٠، ج ٢، ص ٥٤٨.

الوقت في هذه المرحلة: فقد سارع جيشه في منطقة نهر الفاضلية، إلى مواجهة قوات شيخ المنتفق، الثويني بن عبدالله وكانت حصيلة مبادرته هذه، إيقاع هزيمة فادحة بعشائر جنوب العراق وإحلال شيخ جديد على قبيلة المنتفق باسم حمود بن ثامر[١]. كما منع قبول السفن البريطانية في البصرة، وكان قراره مستنداً إلى أن هذه السفن تتردد في الخليج الفارسي ضد قوات نجد[٢].

وتزامناً مع ذلك، فقد استطاع سليمان باشا أن يتوصل إلى تفاهم مع حاكم مكة الجديد، الشريف غالب بن مساعد والذي كان قد عين في هذا المنصب في ربيع الثاني ١٢٠٢هـ / ١٧٨٧م، بحيث أن الشريف اقترح على الباب العالي أن يوكل إلى سليمان باشا مسؤولية أمن مكة والإقدام لمقابلة هجوم الوهابيين المحتمل؛ في حين أن الجزار باشا كان في طريق التوجه إلى مكة من خلال الإعلان المسبق عن هذا الهدف نفسه.

وأخيراً، فقد أدت مجموعة الأحداث وكذلك التبعات الناجمة عن قلة الاهتمام، لأول مرة إلى أن يوضع موضوع نجد في برنامج عمل إستانبول بشكل جدي. ويبدو أن النزعة التوسعية لسليمان باشا في توسيع رقعة حكمه والانعكاس غير الحقيقي لبعض حوادث نجد، استطاعت أن تغير الصورة الأولى

---

١. ابن بشر، صص ١٦٠ ـ ١٦١؛ أيضاً ظ صلاح الدين المختار، ج ١، صص ٥٠ـ٥١ لقد بنى سليمان باشا من رؤوس الموتى ثلاث منارات.

٢. يبدو أن قرار سليمان باشا كان على خلاف الواقع القائم ذلك لأن الممثلية التجارية البريطانية انتقلت من البصرة إلى منطقة جرين بعد تنفيذ السياسات المتشددة للدولة العثمانية واستناداً إلى تقرير السير هارفورد جونز فقد أقامت من تلك المنطقة ارتباطاً أكثر وثاقة مع القوات الوهابية المتقدمة. وكانت سياسة بريطانيا في ذلك الوقت الامتناع عن أي نوع من التعرض للقوات المهاجمة، والتي كانت تشن الهجمات من حين لآخر على مدينة جرين (قرين الحالية في الكويت). وقد أكد جونز بصراحة أن ممثلية بريطانيا امتنعت عن التعاون معه في مواجهة القوات الوهابية وذلك على الرغم من طلب شيخ جرين وإصراره.

لتهديدات الوهابيين وإقدامات الشيخ محمد ابن عبدالوهاب والتي كانت قد أخذت مكانها في أذهان المسؤولين في إستانبول، بحيث أن بعض علماء عاصمة حكم الدولة العثمانية، كانت تعتبر نشاط الشيخ مصداق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه المرحلة، وقد ناقش الصدر الأعظم للدولة العثمانية في اجتماع حضره شيخ الإسلام والمتصدون الآخرون للأمور وتحت تأثير إيحاءات بغداد في الغالب، موضوع آراء الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأحداث صفحات نجد والحجاز. وكانت نتيجة هذا الاجتماع أن أوكلت مسؤولية مواجهة القوات الوهابية والدفاع عن مكة، إلى سليمان باشا أبي المماليك والي بغداد وذلك في النصف الأول من سنة ١٢٠٤هـ / ١٧٨٩م.

ومن أجل إدراك أفضل لأسباب التنافس بين سليمان باشا وأحمد باشا الجزار في هذه المرحلة، يجب الالتفات إلى بعض الأسباب الرئيسة: الأول الإعفاءات الضريبية العديدة، حيث كان بإمكان كل واحد من هذين الواليين بعد التصدي لهذه المسؤولية، أن يضع تحت تصرفه عوائد الإقطاعات في رقعة حكمه استناداً إلى النفقات اللازمة للإجراءات أمامهم. وبذلك كان الوالي أو الحاكم، يعفى من نقل الموارد المالية إلى خزانة السلطان في فترات الأزمات. والملاحظة الثانية البالغة الأهمية، المحافظة على تعادل القوى في داخل ولاية بغداد من جانب سليمان باشا. ويبدو أنه هو وعامله كانوا يريدون من خلال إدارة مسار هجوم الوهابيين أن يؤثروا بشكل ما عن طريق خلق الصراع «الوهابي. الشيعي» على حفظ تعادل القوى الداخلية لولاية بغداد حيث كان الشيعة يشكلون أغلبيتها ويدل تعاون عمر آغا، حاكم كربلاء[1] في دخول القوات الوهابية كربلاء في يوم

---

١. الميرزا أبو طالب خان، ص ٤٠٩. أشار أحد الباحثين الأتراك والذي استند في بحثه إلى الوثائق ←

عيد الغدير سنة ١٢١٦هـ / ١٨٠١م أو عدم اكتراث سليمان باشا وخليفته بالتقارير العديدة بشأن احتمال الهجوم على المدن الشيعية في جنوب العراق، على هذا الاتجاه[1].

وتظهر تقارير السنوات اللاحقة أن هنالك عاملاً آخر كان قد أدى إلى أن يكون الوهابيون في البدء بمثابة أداة مؤثرة لتحريك إيران، من وجهة نظر سليمان باشا وخليفته: فقد كان من شأن اعتداءاتهم على العتبات المقدسة أن تثير تألمات الإيرانيين وكان بإمكان باشوات بغداد أن يطلبوا المزيد من الامتيازات من الباب العالي من خلال الضغوط السياسية للحكومة الإيرانية وبياناتها الحادة أحياناً. ويبدو أن هذه الملاحظة تتجلى من خلال الدوافع الشخصية لحكام المناطق في استغلال الإبقاء على الأزمة واستمرارها، بهدف بقائهم في مناصبهم وتوسيع رقعة حكمهم بإلحاق الأقسام المجاورة. وقد انتهج ولاة بغداد، الشام وعكا على قدم المساواة مثل هذه السياسة. وعلى سبيل المثال فكما أن كدخدا علي باشا، كان يريد في خطابه للسلطان في إستانبول من خلال الإشارة إلى التهديد من جانب

← المحفوظة في رئاسة وزراء جمهورية تركيا، إلى ملاحظة مهمة؛ وبالطبع فإن رأيه لم يدعم بتقديم وثيقة، إلا أن الخبر المدرج في تحليله يؤيد بشكل ما التفاهم بين قوات سعود وولاية بغداد وأن العمال قدموا بعض المساعدات للمهاجمين النجديين. وعلى حد ما ذكره فإن «الزعماء السعوديين أعلنوا فيما بعد للدولة العثمانية أنه وفي حالة عدم التعاون فإن العثمانيين سوف يكون بمقدورهم أيضاً أن يدخلوا الحرب مع الإيرانيين، وهو ما يدل على ظهور الكراهية بين الشيعة والعثمانيين» انظر: أسرادوغان، ص ٢٢٣.

١. وعلى سبيل المثال فقد طلب أهالي النجف من الحكومة الإيرانية عام ١٢٠٣هـ / ١٧٨٨م، أن تبذل الاهتمام بسور هذه المدينة للمحافظة على العتبات المقدسة في النجف الأشرف من الاعتداءات المحتملة لأعراب نجد [الوهابيين] (جعفر باقر آل محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، بيروت، دار الأضواء، ١٤٠٦، ج ١، ص ٢١٤).

الجار الخارجي[1] أن يوسع نطاق ممتلكاته حتى دياربكر، فإن والي عكا تحدث بهذا الاستدلال نفسه عن ضرورة انضمام مصر إلى نطاق حكمه.

وقد هيأ التنافس الداخلي بين ولاة الدولة العثمانية وتعطيل أمور نجد والحجار

---

١. وفي نموذج آخر كانت إيران تعبر دوماً عن غضبها من خلال إرسال الرسائل على عدم اكتراث حكام العراق بالدفاع عن العتبات المقدسة، الشيعة والرعايا المقيمين في الأراضي العثمانية، وذلك إزاء هذه السياسة خلال هذه السنوات وبعد اعتداءات القوات الوهابية. وكان ولاة بغداد يطلبون بدورهم الامتيازات المذكورة من الباب العالي مستغلين شائعة احتمال هجوم إيران على الأراضي العثمانية. وعلى سبيل المثال، فقد كتب علي باشا في رسالة له إلى السلطان قائلاً: «إن ولاية الرها بحاجة ماسة الآن إلى وزير رشيد وقوي يكون قادراً على تأديب أشقياء العرب وضبط المملكة والأنحاء والتصدي لأعداء الدين والدولة ويسهر لعدة سنوات ومن خلال بذل المال والسعي والجهد ودون توقع لنفع مادي، على راحة العباد والإعمار والزراعة والحراسة. وعلى أي حال، فإن استمرار الوضع الحالي المستهجن من جميع النواحي، ليس مناسباً بأي شكل من الأشكال.

وإن تبرير وإحسان وزير عالي الشأن وحائز على الصفات المذكورة لولاية الرها من أجل تحريرها من الاضمحلال وتسلط الآخرين، محول إلى الرأي الرزين للعالي الشأن. ولأن عبدكم هذا أقرب إلى الولايات المذكورة ومطلع على جميع أحوالها وكيفياتها، فإنه ما يتوجب على ذمة صدقي أن أعرض وأعلن الأمور المسموعة والمرئية والمعلومة لي أنا خادمكم وفقاً للحقيقة.

وإذا ما لم نعتبر مستحقين لهذا الواجب، فاعفوا عن تصديعاتنا فالمرحمة لسيدنا وإذا ما كانت معروضاتنا الأصوب والأصلح للدين والدولة، فليتلطفوا بالعمل بها وتنفيذها على وجه السرعة فالأمر لسيدنا. نسأل الحق (جل وعلا) التوفيق للجميع في تنفيذ خصوصيات الأصلح للدين والدولة وأن يقرن ويرفق بها توفيقه العالي في كل الأحوال، أمين!

... وأنا أطلب منه الإحسان من باب صيانتهما كليهما، إذا مادخل الوزير المشار إليه إحدى الولايات التي لا تمكن إدارتها، وفي هذه الحالة فسوف تحيي المشار إليه وستمنون علي بمحبتكم. والولايتان المذكورتان مشرفتان على الاضمحلال كلية في الوضع الحالي والأهم من ذلك فإن هذا الوضع سينتهي إلى استيلاء أعداء الدين والدولة وهو ما يتسبب بدوره بمتاعب جسيمة والاحتمال الأقرب أن تلقي مسؤولية دفع تلك الفتنة علينا، ظ: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00104-04111-A-00001.

بل وحتى فسح المجال للقوات الوهابية في الاعتداء على جنوب العراق، والذي كان قد أصبح ممكناً بإزاحة الثويني بن عبدالله، وكذلك اختلاف علماء إستانبول في إصدار الفتوى بشأن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ظروفاً مناسبة تماماً للشيخ كي يطلب من علماء مكة من خلال بعث رسالة إليهم أن يهدموا الأبنية المقامة على القبور المباركة المتعلقة بالذاكرة التاريخية للعالم الإسلامي[1].

الاعتداء على العتبات المقدسة وهدمها

ولقد أدى مجموع الظروف التي ذكرناها إلى أن يقرر شريف مكة بنفسه بشكل مباشر على الوقوف في وجه الوهابيين، رغم شعوره بأنه وحيد إزاء التهديد القائم، وهكذا، فقد أرسل الشريف غالب بن مساعد، أخاه عبدالعزيز على رأس جيش مؤلف من ٢٠ ألف مقاتل، نحو الدرعية. وقد سجلت قصة هذا الهجوم بشكل مبالغ فيه في المصادر التاريخية السعودية: وعلى حد روايتهم، فقد توقف تقدم جيش الشريف المؤلف من ٢٠ ألف مقاتل أمام الحرس الثلاثين لـ«قصر بسّام» وبضعة من المدافعين عن «قرية الشعراء»[2]. وفي ظل هذا الوضع، وكما يروي أحمد بن زيني دحلان، لم يحدث تغيير في التوازن السياسي لساحة القتال، رغم التحاق الشريف بأخيه عبدالعزيز ولم تتمخض هذه المبادرة عن نتيجة وواجهت الفشل[3]. ومن جهة أخرى، فقد كان قد أصبح من الواضح في هذه الظروف وبعد إبلاغ فتوى الشيخ محمد ابن عبدالوهاب لعلماء مكة، أن اتجاه سهم الاعتداءات المتفرقة لقوى التفاهم «السعودي. الوهابي» والموجه نحو أنحاء نجد، قد تغير

---

١. ابن بشر، صص ١٧١ ـ ١٧٢.

٢. ابن بشر، صص ١٧٤ ـ ١٧٦، صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٥٣.

٣. أحمد بن زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان امراء البلد الحرام، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٨٨٨، ص ٢٢٨.

الآن إلى مكة وبهدف سياسة هدم القبور.

وكان موت الشيخ محمد بن عبدالوهاب في آخر ذي القعدة ١٢٠٦هـ / ١٧٩١م[1] وآخر فتاواه بشأن هدم القبور، متزامنين مع بداية عهد جديد من الهجمات اللاحقة لقوة «التفاهم السعودي الوهابي» المجمَّعة. ومن جهة أخرى، فقد تهيأت إمكانية مناسبة لتفوق الفرع السعودي من هذا التفاهم في هيكل قوات نجد. وقاد سعود بن عبدالعزيز الذي كان يلازم أباه منذ عنفوان شبابه، وشهد الاعتداءات المختلفة، قاد من الآن فصاعداً الهجمات المختلفة باعتباره قائد القوات. وواصل عبدالعزيز حياته البسيطة في الدرعية، من خلال التفاهم مع أولاد الشيخ وصالت وجالت قوات الجيش المحررة من قيود العقائد الوهابية ومحدودياتها، مؤتمراً في هذه المرة بأمر أميره الشاب، سعود بن عبدالعزيز وحتى موته، في البلاد الإسلامية المختلفة من الشام وحتى حدود مصر، ومن كربلاء والنجف وحتى حدود اليمن طامحاً إلى فتح البلدان المختلفة. ولو كان بالإمكان استخدام تعابير مثل «الهجمات الإيديولوجية» حتى وقت موت الشيخ، فإن الهجمات التي كان يقودها الجناح السعودي للتفاهم، كانت قد اتخذت طابعاً آخر منذ ذلك الوقت فصاعداً وقد تجسدت نماذج من عمليات النهب، الاستغلال بل وحتى التطهير العرقي بل حتى استخدم المؤرخون السعوديون أنفسهم بشأنها عبارات لاذعة وذات لهجة عتاب، مثل هجوم سعود على المدينة ونهب كنوز خزانة الروضة النبوية وبيعها:

«ولكن سعود ارتكب بعد ذلك خطأ سياسياً استغله خصومه استغلالاً شنيعاً، وهو استيلاؤه على أموال الحجرة الشريفة، فقد اشترى قسماً منها لنفسه وباع

---

١. حسين خلف الشيخ خزعل، ص ٣١٦. وقد ذكر البعض وفاته يوم الاثنين اليوم الآخر من شوال ر.ك. حسين بن الغنام، ص ٩٠ أيضاً صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٥٦.

قسماً ووزع قسماً على عدد من الأعيان»[١].

وكأنه كلما قل الوجه العقائدي من سلوكيات القوات الوهابية في طريق هجمات سعود، كلما تجلى المزيد من العنف والوحشية في أساليب الدعوة إلى هذا الفكر. وقد وقعت حادثة مدينة كربلاء أو الهجوم على قافلة الحجاج بحجة «أن النبي عليه الصلاة والسلام كان قد قطع طريق أهالي مكة[٢]، فقطع هو أيضاً الطريق للسبب نفسه ودعا كل أهالي البلدة الطيبة إلى الدين الإسلامي. ورغم أن صحة الأهالي وسلامتهم مطلوبتان، إلا أنه سوف يتوسل بالعنف إن رفض وامتنع»[٣]. وهذه العبارة هي نموذج لإصدار الأحكام حول بداية سياسة جديدة من جانب القوات الوهابية المؤتمرة بأمر سعود ابن عبدالعزيز حيث يعتبرون مشركي عهد النبي الأعظم ﷺ على حد سواء مع المسلمين المرددين لنداء الحج ويسمحون لأنفسهم بقتلهم.

وقد أدى إخفاق شريف مكة في الهجوم على نجد إلى أن تتجه الكثير من القبائل المحيطة بمدن الحرمين الشريفين، وذلك من خلال إدراك المحور الجديد للسلطة السياسية مع الوهابيين[٤].

---

١. منير العجلاني، ج ١، ص ٤٨.

٢. بداي بن مضيان قائد القوات السعودية في الهجوم على المدينة.

٣. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT -00093-03789-E-00001.

٤. انظر في هذا المجال: رسالة الشريف غالب إلى أحمد باشا الجزار والذي كان قد دخل منطقة مدائن صالح في تلك الفترة مع قافلة حجاج الشام أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00095-03855-K-00001 واستناداً إلى رواية أخرى لشاهدي ذلك العهد، فقد كانت قوة الوهابيين في هذا العهد تفوق التصور، حتى أن جونز الذي كان متواجداً في جرين، في مكان بعيد للغاية عن مكة والمدينة عن «الإحساس بالخطر اليومي والرعب الدائم الذي كان قد ملأ المدنية بسبب رؤية مجاميع من الجيش الوهابي أو المرتبطين به في المنطقة أو خبر رؤيته.(جونز، ص ٢٩٢).

والتهديد الذي كان موجهاً في البدء من منطقة الدرعية إلى الإمارات الصغيرة المجاورة مثل الرياض، حريملا بل وحتى الأحساء، كان الآن في طريقه للتحول إلى قوة قاهرة ومتعارضة بشكل كامل مع السيادة المتزلزلة للدولة العثمانية على الحرمين الشريفين. كما لم تتمخض الإجراءات المرحلية للجزار باشا بعد انطلاقه باعتباره أمير الحاج في الشام، عن نتيجة في تغيير شيخ الحرم وتعيين إدريس آقا الرئيس السابق لدار السعادة في المدينة بدلاً منه لإدارة شؤون الحرمين، في تمشيته الأمور وتثبيت اقتدار سيادة الدولة العثمانية[1]. وقد دفعت الأخبار المقلقة عن الحرمين الشريفين واحتمال سقوط مكة والمدينة، السلطان إلى أن يأمر الصدر الأعظم وشيخ الإسلام في الدولة العثمانية للتشاور مع الأشخاص المؤثرين الآخرين وأن يعلنوا نتيجة تشاورهم إليه.

ويبدو أن هذا الاجتماع اقيم بعد ربيع الثاني ١٢٠٨هـ/١٧٩٤م في بيت شيخ الإسلام في إستانبول بحضور المسؤولين الرفيعي المستوى. وقد أبلغ الحاضرون بعد بعض المباحثات، نتائج الاجتماع، إلى السلطان: إرسال ٥٠٠ جندي مع ٣ مدافع واحتياطيات المواد الغذائية مع تأمين مبلغ معين من الديون الميرية للمحافظة على الحجاز من قبل عبد الله باشا والي الشام، وبموازاة ذلك، تشكيل جيش بقيادة سليمان باشا والي بغداد أو قائمقامها أو العمدة باشا، للانطلاق إلى نجد لقمع الوهابيين في الدرعية[2].

ويتضح من تقارير الباب العالي أن مسؤولي الدولة العثمانية كانوا يواجهون في هذه الفترة في إستانبول عدة أسئلة مهمة كانت تمتد جذورها في المعلومات والأخبار المحرفة وغير الصحيحة لسليمان باشا والجزار باشا. وكان من جملتها:

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00093-03803-00001.

٢. المصدر السابق: HAT-00093-03801-A-00001.

هل انبثقت حركة المتمردين الوهابيين من التنافس والعداء الشخصي بين عبدالعزيز وربما الشيخ محمد بن عبدالوهاب وبين شريف مكة؟ أم إن الهجوم على مكة هو هدف الوهابيين من التمرد ودافعهم إليه؟ وما إلى ذلك من أسئلة[١].

وعلى إثر هذه الإبهامات والتساؤلات قررت الدولة العثمانية أن ترسل لأول مرة ، مبعوثاً خاصاً باسم آدم افندي[٢] للحصول على الأخبار الدقيقة والارتباط المباشر مع وهابيي نجد إلى ذلك الصوب. ووصل أحمد آقا قابوجي جهاز السلطنة في بغداد باعتباره الممثل الخاص للصدر الأعظم بهدف إبلاغ قرارات الاجتماع المذكور. والتقرير الذي قدمه عن هذه المهمة ، يحظى بأهمية بالغة. وعلى سبيل المثال، فقد كتب للصدر الأعظم حول سليمان باشا واتجاهه الشخصي:

«إنه يطالب بين الحين والآخر بالذخيرة العامة والجنود ضمن رفع تقرير بالأوضاع إلى الدولة العلية، ويبدو أن ذلك هو لرعاية الاحتياط»[٣]. وإن سليمان باشا الذي كان يتبع إلى حد كبير آراء صهره وقائم مقامه كد خدا علي باشا، يبدو أنه تصرف على أساس تعليمات كدخدا في الحوار مع ممثل الباب العالي. ولذلك

---

١. لمطالعة نتائج هذه الجلسة أنظر تقرري الصدر الأعظم للسلطان الموجود في أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00093-03801-A-00001.

٢. كان آدم أفندي (توفي ١٢١٩هـ / ١٨٠٣م)، من أكراد الإمبراطورية العثمانية وقد خدم لفترة طويلة بإستانبول في منصب مفتش الأوقاف، وقد كلف في عام ١٢٠٨هـ باعتباره الممثل الخاص للدولة العثمانية أن يتفاوض في نجد مع زعماء التيار الوهابي. وفي سنة ١٢١١هـ تم عزله عن الخدمة لفترة وفي سنة ١٢١٥هـ أرسل إلى نجد وفي سنة ١٢١٨هـ عين في منصب في أدرنا ثم قاضياً في مدينة القدس الشريف للاطلاع أكثر عنه، انظرة محمد علي الصويري الكردي، الموسوعة الكبرى لمشاهير الكرد عبر التاريخ، دار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٨، ج ١، ص ٢٠٢.

٣. التقرير المؤرخ ١٦ شوال ١٢١٨هـ لكدخدا علي باشار وإلى الصدر الأعظم: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00160-06675-00001.

يجب تعميم خطاب تقرير ممثل الباب العالي على هذه الروح الواحدة المنقسمة في جسدين. وحكم الممثل الخاص في هذا الباب ويمكن تأييده من حيث إن كدخدا علي باشا وبعد بلوغه منصب الوزارة في بغداد بعد عقد، لم يكن يتصور باعتباره والياً تهديداً من جانب إيران من الناحية الأصولية. وقد أدهش سلوك الوالي هذا الذي أدى إلى نقض قرار الصدر الأعظم للدولة العثمانية، الباب العالي؛ بحيث أن الصدر الأعظم كتب إلى السلطان قائلاً:

"كما تعلمون فقد أعددت هدايا لمعتمد الدولة باباخان والآخرين كما سُطرت تحريرات من جانب هذا العبد تتضمن التأكيد على الصفوة والصداقة وأرسلت ضمن اختيار سفير خاص من هنا إلى بغداد وإذا بالمشار إليه عبدهم والي بغداد، يوقف السفير والتحريرات والهدايا عنده وأعادها كلها بحجة أنه أرسل قبل ذلك الهدايا للإيرانيين وأن مسألته جلبهم وتأليفهم قد حصلت ولا حاجة لإرسال هذه الهدايا والتحريرات من جديد، وكتب بشكل مفصل أنه لا توجد أية وسوسة عند الإيرانيين وأن المسالمة الكاملة قائمة. ورسالته الأخيرة هذه تتناقض مع رسائله السابقة. ونحن نظن أن طرح هذه المسألة بهذا الأسلوب من جانب المشار إليه، هدفه كسب الوقت لتمديد مهمته العسكرية في قضية المتمرد [الوهابي][1].

كما استخدم علي باشا في مجال تهديد إيران في هذه الرسالة نفسها عبارات مبالغاً فيها وبعيدة عن الواقع، ذلك لأن دراسة تاريخ إيران في ذلك العهد تُظهر أن حكام إيران آنذاك لم يكونوا يضمرون مثل هذه النية. ويرى علي باشا أن الإيرانيين «يفكرون في استرداد أموال الإمام الحسين (رضي الله تعالى عنه) والتي

---

١. بل إنه يتهم في هذه الوثيقة نفسها ملك إيران بالعداوة الذاتية لأهالي الروم والعراق بشأن أصل السند، انظر: التقرير المؤرخ ١٦ شوال ١٢١٨ هـ كدخدا علي باشا، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00160-06675-0001.

نهبها الوهابي وأغار عليها، منا. وبالطبع فإن الوهابيين وباعتبار أن المشهدين الشريفين هما قاعدة قوافل الزوار ومسكن الإيرانيين ومجمع الخزائن والأموال والنذور، فقد وجهوا أنظارهم إلى القصبتين المذكورتين أكثر من كل مناطق العراق، ونفذوا في الفرصة التي سنحت لهم، الخباثة التي كانوا مجبولين عليها»[١].

كما أطلع الممثل الخاص، أحمد آقا الباب العالي على بعض المواضيع بصراحة حول دور كد خدا علي باشا وتأثيره حيث كانت تربطه علاقة المصاهرة مع سليمان باشا أبي المماليك[٢].

ولأول مرة تكلم الممثل الخاص للباب العالي، أحمد آقا قاپوچي باشي في تقاريره، استناداً لإشارات والي بغداد، عن احتمال تعدي القوى الوهابية على العتبات المقدسة، خاصة تربة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[٣].

---

١. التقرير السابق، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00160-06675-0001.

٢. وحسب روايته فإن سليمان باشا «شخص يبحث عن الرضا ومطيع حقاً لكل أوامر الدولة العلية وهو مجد في تنفيذ تلك الأوامر، ولكن إن صدرت منه بين الحين والآخر بعض الاقتراحات غير المتوافقة مع المزاج أو صدرت منه مغالطة في خصوص مسألة ما، فإنها ليست بناء على رأيه الشخصي، بل بتحريك وإصرار من خادمه فقط، ذلك لأن المشار إليه تابع لخادمه وهو بدوره شخص مستبد برأيه حيث استبد بكل الأمور. بل إن المشهور أنه لم يبق في بغداد أحد إلا ونافسه» المصدر السابق، ن. ص.

٣. استناداً لرواية أحمد آقا «كما سمع منه، رغم أن المتمرد المذكور، يبدو أنه لا يقوم بأي حركة في الوقت الحاضر، لكنه سمع بأنه قد تدخل في بعض الترب والمراقد، لذا ولأنه يحتمل أن يقوم الوهابي باعتداء على تربة الإمام علي عليه السلام، فإن المشار إليه عين العديد من الجنود أن يحرسوا المضجع الشريف للإمام علي عليه السلام على التناوب وبهذا فإنه يدقق في حراسته»: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية:HAT-00161-0671-00001. ومع كل هذا، فإن مسيرة الأحداث أظهرت أن تمهيدات والي بغداد وخادمه كدخدا علي باشا كانت سطحية ومقطعية؛ حتى إن العمل تفاقم بحيث أنه إثر مساعدة قائمقام كربلاء في ١٨ ذي الحجة من ١٢١٦هـ للقوات السعودية في

←

وتزامناً مع أحمد آقا قاپوچي باشي، فقد ذهب آدم أفندي أيضاً بوصفه ممثلاً خاصاً آخر، إلى نجد كي يطلع المركز على التوقعات الحقيقية عن نيات وقدرات التفاهم السعودي الوهابي[١].

ومن مجموع المعلومات التي تم جمعها واستناداً للنتائج، فإن الحكومة العثمانية أصدرت وأبلغت أمراً ينص على إرسال ٥ إلى ١٠ آلاف كلية من المؤن وانتقال ٥٠٠ جندي من الشام مع ثلاثة عراوات من المدفعية من يافا لتقوية تحصينات المدينة[٢].

وخلال هذه الفترة، أبدى جهاز السلطنة العثمانية مرة أخرى الاهتمام بمماطلة والي بغداد في إرسال الجيش لقمع وهابيي نجد وأصدر تعليمات جديدة بشأن الانطلاق الفوري لوالي بغداد مع عمدته، علي باشا إلى نجد على رأس قوة المخيم الملكي السادس[٣].

ويقرر «التفاهم السعودي الوهابي» في الجبهة المقابلة وبموازاة هذه التحولات، أن يرسل جيشاً للهجوم على مكة. وعين الأمير عبد العزيز، ابنه سعوداً على رأس القوات المرسلة. وغادر الحاكم مكة في مقابل هذا الجيش وتراجع إلى جدة. وقد ذم الصدر الأعظم للدولة العثمانية في مراسلة نقدية، سلوك شريف مكة قائلاً: «في حين أن مهمتكم المحافظة على مكة المكرمة وحراستها وتوفير الأمن للبلدة الطيبة في كل الظروف... ولكنكم عدلتم عن مهمة المحافظة التي أمرتم بها..

← دخولهم كربلاء والإبادة الجماعية التي عملوها، فقد وصف الجهاز الديواني للوالي لدى الرأي العام بالخيانة وعدم الكفائة أحياناً.

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00093-0381-A-00001.

٢. المصدر السابق، ن. ص.

٣. أرشيف رئاسة الجمهورية التركية: HAT- 00093-03801-A-00001.

وانطلقتم إلى جدة حيث أثارت هذه المسألة التعجب والحيرة»[١].

ورغم كل التمهيدات المتوقعة، إلا أن مماطلة والي بغداد سليمان باشا ومبادرة سعود في الهجوم على مكة وكذلك هروب الشريف من المدينة، كل ذلك أبطل مفعول قرارات الاجتماع الذي أقيم في إستانبول قبل أن ترى النور. وقد شكا الصدر الأعظم في إحدى مراسلاته المبادرة غير المسؤولة لأسرة الشريف أولاً ثم عبر للسلطان عن مراتب شكه العميق به.

«إذا ما صدرت عنه والعياذ بالله تعالى في جدة حركة هي خلاف للرضا والتوقع، فإن سلامة حاله ستكون غير ممكنة»[٢].

وقررت الدولة العثمانية التي كانت قد أحبطت نتيجة لسلوك سليمان باشا ويئست من شريف مكة، أن تختار الجزار أحمد باشا باعتباره، مسؤول العمليات في نجد. وكان الجزار باشا يشارك الصدر الأعظم الرأي بشأن شريف مكة[٣].

وكان قد ورد التأكيد في تعليمات الجزار باشا على أن «يرفعوا التقارير بما يعلمونه عن ذلك المتمرد بشكل مفصل من خلال الحصول على المعلومات عن وضع المتمرد المذكور وحركات تمرده وأسلوب تعامله مع أهالي مكة وكذلك تعامله مع الأعراب والقبائل وحقيقة أهدافه ونواياه الأخرى، وليولوا الاهتمام من الآن فصاعداً برفع التقارير المتتالية عن الحالات والأخبار التي يرونها ضرورية»[٤].

---

١. المصدر السابق، ن ، ص .

٢. المصدر السابق، ن.ص. هذا الرأي الذي أدلى به جيرالد دي غوري يخالف النص الصريح لهذه الوثيقة والذي يفيد بأن الباب العالي واستانبول منعا أي إقدام من جانب قوات الشريف وأوصيا الحجاز دوماً بالمحافظة على الاستقرار والهدوء ر.ك: جيرالد دي غوري، ص ٢١٥.

٣. كتب الجزار باشا إلى الباب العالي قائلاً : «إن تنظيم الأمور وربطها مع بعضها البعض ليس من الأمور التي يكنه القيام بها وسوف تنفق كل النفقات دون طائل».

٤. المصدر السابق HAT-00093-03801-A-00001.

ولم يكن هذا المستوى من التأكيد مبالغاً فيه كثيراً إذا أخذنا بنظر الاعتبار معرفتنا عن شخصية أحمد باشا الجزار، ذلك لأن الصدر الأعظم كان يأخذ عليه أن الجزار أحمد باشا يتهرب من تقديم جواب مقنع بسبب عدم تحمله أو تجاهل التوصيات[١]. ومع كل ذلك، فقد كانت كفاءة الجزار باشا قد ظهرت، إلا أن ما غيّر طموح الدولة العثمانية إلى قمع هذه الحركة، كان عنصر من خارج المنطقة وحدثاً لم يكن بالإمكان توقعه.

وقد أدت جاذبية مسؤولية حكم مصر للجزار باشا وظهور قوة جديدة على ساحة السياسة العالمية، أي فرنسا الجمهورية، إلى أن تواجه التمهيدات اللازمة لبدء العمليات ضد نجد، بالتأخير. وبنفس النسبة التي كان فيها الزمان في هذه الجبهة، على خلاف مصالح الدولة العثمانية، فإن الزمان هذا كان قد أتاح في الجبهة المقابلة فرصاً جديدة لازدياد اقتدار القوات الوهابية بقيادة سعود بن عبدالعزيز. وقد أتاح حذف عشائر جنوب العراق على يد سلميان باشا، الإمكانية للقوات الوهابية كي تهاجم البصرة؛ الهجمات التي لم يكن بإمكان الأتراك، حسب معلومات المصادر البريطانية أن يتنبؤوا بها كما لم يكونوا في نفس الوقت قادرين على الدفاع عن رقعتهم أمامها؛ ذلك لأن الوهابيين كان بإمكانهم بسهولة جمع جيشهم وإعداده للانطلاق، وقد أدت سرعة سير الجنود الوهابيين وتنقلاتهم إلى حيرة الجنود العثمانيين البطيئي السير وفزعهم»[٢].

ويبدو من مجموع أخبار سنة ١٢١٠هـ/١٧٩٥م وأحداثها أن الدولة العثمانية

---

١. المصدر السابق HAT-00093-03801-A-00001.

٢. جونز، ص ٢٩١، يذكر جونز أن نطاق انعدام الأمن كان قد بلغ حداً بحيث إن الناس لم يكن بإمكانهم رعي مواشيهم، وقد أكد على أن أهالي بعض المدن الصغيرة، كانوا يقدمون النقود والهدايا سراً كي يشتروا الأمن من الوهابيين وكانت بغداد الضعيفة تفضل أن تغمض عينيها على أن تجبر على المواجهة، (ن.ص، ص ٢٩٢).

أدركت خطأ سليمان باشا الفادح والاستراتيجي في حذف عشائر جنوب العراق وقررت أن تدعو مرة أخرى أمير قبيلة بني المنتفق المنعزل إلى التعاون[١]. وقد ركز الثويني في أول عمله له، اهتمامه على المتبقي من شيوخ بني خالد في الأحساء وتوصل معهم إلى تفاهم بشأن الإقدام ضد القوات الوهابية؛ وحينئذ وصلت قواته إلى الأحساء بسفن صغيرة[٢]. وسارع سعود بن عبدالعزيز إلى تغيير مسار العمليات من البصرة إلى الأحساء وذلك من خلال إدراك التطور الذي كان في حالة الحدوث هزيمة قوات بني خالد. ولجأ شيخ بني خالد إلى البصرة وانطلق بعد ثلاثة شهور نحو رقعة حكمه بالجيش الذي كان شكله الثويني بن عبدالله بناء على طلب الدولة العثمانية[٣]. وخلافاً لتوقع الدولة العثمانية، فإن هجوم العشائر والشيوخ هذا قد فشل بسبب مقتل الثويني بن عبدالله[٤] على يد أحد المقربين إليه والذي اتهم بالنزعة الوهابية[٥].

تأثير حملة نابليون على أحداث نجد والحجاز

أطاحت الثورة الفرنسية الكبرى في ١٧٨٩م بالنظام الملكي السابق. وبعد عهد

---

١. الشيخ محمد النبهاني الطائي، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، بيروت، دار إحياء العلوم بمشاركة البحرين، المكتبة الوطنية، ١٩٨٦، صص ٤٠٨ ـ ٤٠٩؛ أيضاً: ابن بشر، ج ١، صص ١٠٧ـ١٠٨.

٢. النبهاني الطائي، ص ٤٠٩.

٣. ابن بشر، ص ٢٢٥، يبدو أن الثويني نقل قسماً من قواته بالسفن من البصرة إلى شبه الجزيرة النبهاني، ص ٤٠٩.

٤. ٤ محرم ١٢١٢هـ / ١٧٩٧م.

٥. خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٧، ج ٢، ص ١٠٢؛ أيضاً: صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٦٧، تمت الإشارة بأن البعض اعتبر قتله كان على يد وهابي فدائي: سليمان فائق، تاريخ المنتفق، ترجمة محمد خلوصي الناصري، بغداد ١٩٦١، ص ٧٧.

الاغتيالات[١] المتأزم، حيث اتجه الثوار الشباب إلى السلوكيات العنيفة، قرر المجلس الثوري الفرنسي أن يجهز بعض القوات ويرسلها إلى المناطق المختلفة بهدف قمع حركات التمرد وتثبيت سلطة النظام الجمهوري. وقد تمكن أحد ضباط المدفعية الشباب أن «يكنس» على حد تعبيره قاعدة تولون في جنوب فرنسا ويرميها في البحر. وأرسله مجلس قيادة الثورة والذي كان قد دهش من الانتصار غير المتوقع لهذه «الظاهرة» ، على رأس جيش أكبر إلى الحدود الواقعة باتجاه إيطاليا للدفاع. وبادر نابليون بونابارت الشاب المغرور إلى استغلال هذه الفرصة وغير من خلال الهجوم على شمال إيطاليا، الوجه المضطرب للحكومة الجمهورية عند الرأي العام الأوروبي وشعب فرنسا[٢]. وبهذا الانتصار، ظهر منافس جدي لمجلس قيادة الثورة في ساحة السياسة الداخلية. وقررت الحكومة الفرنسية أن تحد من نطاق تطوره المحتمل على الأقل من خلال نقل هذا الضابط المحبوب والباحث عن الشهرة وإرساله إلى نقطة بعيدة، ولذلك، فقد تولى نابليون بونابرت، قيادة الجيش، حيث كان من الواجب بعد القيام بمهمة فتح مصر، أن يدخل أرض الفراعنة التاريخية بعد احتياز البحر.

وتزامناً مع هذه التطورات ، أبلغ الممثل السياسي التجاري لبريطانيا في الخليج الفارسي في تموز ١٧٩٣م، اللجنة السرية لشركة الهند الشرقية في بومباي بأن سفينة حربية فرنسية دخلت مياه الخليج الفارسي ورست في أحد الموانئ. وبعد

---

١. استمر العهد المذكور من ١٧ أيلول حتى ٢٨ تموز ١٧٩٤م/ ١٢٠٨ ـ ١٢٠٩هـ، وبدأت خلاله عمليات تصفية دموية بين الزعماء السياسيين والثوار. وتدل العبارة المعروفة لأحد ممثلي المجلس آنذاك على الجو السائد في المجتمع الفرنسي آنذاك: «يجب أن تكون الاغتيالات على شكل برامج يومية».

٢. بهذا الشأن انظر: ويل و آريل ديورانت، تاريخ تمدن: عصر بابليون طهران، نشر وتعليم الثورة الإسلامية، ١٣٧٠، ج ١١، صص ١٢٥ ـ ١٣٥.

هذا التقرير، تؤيد الأخبار الأخرى أن الحكومة الفرنسية عمدت إلى إقامة العلاقات مع شيوخ المنطقة من خلال إرسال الممثلين السياسيين والمراسلات المختلفة[١]. وأدى دخول فرنسا في المنطقة إلى أن تتبع مواقف اللاعبين الإقليميين في السنوات اللاحقة، دوران أضلاع مثلث القوة الأوروبية والتحالفات والنزاعات بينهم[٢].

وخلال هذه الفترة انصب اهتمام الدولة العثمانية بالأحداث المهمة في المناطق الأخرى: ظهور مؤسس السلالة القاجارية آقا محمد خان في إيران، القوقاز ثم عراق العرب، تواجد العنصر الجديد في المنطقة، أي فرنسا والتحرك الملفت للنظر للمثلين المقيمين التجاريين السياسيين لبريطانيا، مشاكل الباب العالي بشأن المناطق الأوروبية التي يسيطر عليها، النزاع مع الحكومة الروسية،

---

١. أسناد شركة الهند الشرقية Indian offce Records اللجنة السرية ج ١٩، الرسالة ١٦٥٢م مورخة ١٨ تموز ١٧٩٣.

٢. وعلى سبيل المثال، فإن دخول فرنسا في ساحة سياسة إيران الخارجية إلى تحول اتجاه القاجاريين من التعاون مع بريطانيا نحوهم إلى درجة أنه وضع العراقيل أمام قبول السفير البريطاني وذلك في السنوات القريبة من العهد الذي يعنيه.
وقد كتب الميرزا شفيع المازندراني، الصدر الأعظم للحكومة الإيرانية، في رسالة إلى وزير الخارجية الفرنسي، بهدف إيصال وجهة نظر حكومته بشأن المزيد من تظافر الجهود مع فرنسا ومن خلال التعبير عن الود الكامل قائلاً: «الطريقة هي أن الأخ الحنون كان يبذل جهده دوماً بعد ذلك في تمتين علاقة التحالف بين الحكومتين الإيرانية الخالدة الأس والفرنسية»، الرسالة ٢٤ آب ١٨٠٩، الميرزا شفيع المازندراني للشاماني الموجود في أرشيف وزارة الخارجية للجمهورية الفرنسية، ج ١٠، ص ٢٢١، نقلا عن: روابط ايران وفرانسه در دوره فتحعلي شاه قاجار بتحقيق محمد حسن كاووسي عراقي وحسين احمدي، طهران مكتب الدراسات السياسية والدولية ١٣٧٦، ص ١٥٧. وكان التعبير عن الرغبة في التعاون بين إيران وفرنسا قد بلغ حداً بحيث أن الصدر الأعظم الإيراني أكد أنه لم يسمح للممثل السياسي البريطاني بدخول إيران آخذاً بنظر الاعتبار هذا الموضوع نفسه.

انتهازية ولاة مثل سلميان باشا أو الجزار أحمد باشا واختلافات السياسة الداخلية في إستانبول.

وقد كان من شأن كل حدث من الأحداث السابقة أن يوقع الدولة العثمانية في أزمة لا نهاية لها. وفضلاً عن كل هذه المشاكل، فقد عرّض هجوم نابليون على مصر، سقوط القاهرة وكذلك انطلاق الجيش الفرنسي إلى الشام، المعادلات والأوليات في السياسة الخارجية لبلدان مهمة مثل الدولة العثمانية، بريطانيا، إيران بل وحتى روسيا، لتغيير أساسي: فقد توصل البريطانيون الذين كانوا قبل ذلك على نقيض السياسة الإقليمية للدولة العثمانية ، إلى هذه النتيجة وهي أن يلجؤوا إلى مساعدة القوات التركية لمواجهة الجيش الفرنسي. ورغم أن إيران التي كانت قد اعتبرت سياسات القوتين البريطانية والروسية «خادعة» وذلك على مشارف الحروب بين إيران وروسيا، تزامناً مع تغيير السلطنة، اعتبرت وبشدة رسالة نابليون في مستوى «عرض عبودية شخص اسمه بونابرات»، إلا أنها كانت نفسها حليفة لفرنسا في مسار الأحداث وفي بعض المراحل.

مبادرة بغداد إلى الحملة على نجد

تظهر دراسة أحداث تلك السنين أنه وعلى الرغم من أن مسار الأحداث كانت قد أوقعت الدولة العثمانية في العسر والضيق، إلا أنها كانت قد أوجدت في نجد جواً مناسباً لتوسيع القوة الجديدة. فقد التفت سعود بن عبدالعزيز إلى العراق على أعتاب حملة نابليون على مصر، وتجاوز نطاق هجماته في ١٢١٢هـ/١٧٩٧م، البصرة والمنتفق ووصلت القوات الوهابية لأول مرة إلى السماوة في جنوب العتبات المقدسة[1].

---

١. ابن بشر، ٢٤٠.

وكان التهديد قد أصبح أكثر جدية لوالي بغداد: فقد كان يرى نفسه وحيداً أكثر من أي وقت مضى أمام الوهابيين في هذه المرة، ذلك خلافاً للعهود السابقة حيث كان سليمان باشا يؤخر العمليات ضد الوهابيين من خلال بعض الذرائع[١]. وأخيراً دفع الهجوم على الحلة في النصف الأول من سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م في حين أن حاكم تلك المدينة كان قد أطلع بغداد على احتمال العمليات وكذلك نقاط الضعف الدفاعية[٢]، دفعت سليمان باشا لأن يبادر إلى تجهيز القوات وإرسالها إلى نجد من أجل قمع الوهابيين: فقد تم تعيين قائمقام والي بغداد وصهره، كدخدا علي باشا من جانب أبي المماليك قائداً على قوات قوامها ١٥ ألفاً[٣]. وقد ذكرت المصادر التاريخية للحكومة السعودية أن عدد أفراد الجيش بلغ ١٨ ألفاً[٤].

ورغم أن هذا الجيش كان يتمتع بهيبة وسطوة قليلتي النظير،إلا أنه لم يكن يبعث الأمل في الانتصار على حد قول سفير بريطانيا:

«المخيم الذي كان قد اجتمع فيه أشخاص مختلفون كانوا قد جاؤوا من مناطق

---

١. يرى زكريا قورشون أن سليمان باشا لم يكن يبدي رغبة في الإقدام ضد نجد وكان يتذرع في مقابل أوامر الباب العالي بأنه منشغل بترميم سور بغداد.

٢. وكان قد أطلع قبل الهجوم مسؤولي الدولة العثمانية على احتمال العمليات ونقاط الضعف الدفاعية للمدينة: «لا يخفى على الذات العالية أن العدو الحديث الظهور هو عدو قوي ويجب أن نستعد للحرب بالإمكانيات الكافية»، بل إنه كان قد طلب المساعدة من شيوخ المناطق الأخرى. أنظر في هذا المجال: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية الإسلامية: HAT-00002-00064-A-00001

٣. ابن بشر، صص ٢٥١-٢٥٥.

٤. نلاحظ دوماً المبالغة في المصادر المنحازة إلى السعوديين بشأن عدد قوات الطرف المقابل، وعلى سبيل المثال فقد ذكر صلاح الدين أن هذا الجيش بلغ ١٨٠٠٠ ألفاً، وربما كان سبب هذه المبالغة أنهم كانوا يريدون تقديم صورة أكثر هيبة عن القوات الوهابية في نجد آنذاك ر.ك. صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٧١.

البلاد المختلفة البعيدة والقريبة بسبب الترتيبات الشخصية والحرة في كل الأمور... وكان هذا الجيش ذا مدفعية مجهزة ومهيبة... وبالطبع فإن الأشخاص من أصحاب النظر والمطلعين على الأمور، كانوا يتوقعون فشل هذا الهجوم المكثف قبل أن تنمحي قبب بغداد من أمام أنظارهم وكان هذا التوقع على أساس عدم التفكير وعدم الوعي، حيث كان الوزير يبديه[١] في الأمور العسكرية وكذلك بسبب السلوك اللامعقول والمتكبر الذي كان قد سلكه فيما يتعلق بالعرب الذين كانوا قد التحقوا بجيشه»[٢].

وقد ابتلي جيش سليمان باشا أبي المماليك، بعد دخوله الأحساء، بالاضطراب والتشتت وانفرط عقد أمور الجيش بعد بضعة اشتباكات عسكرية محدودة[٣]. ودخل كدخدا علي باشا أمير الأمراء ووالي بغداد ووزيرها والذي رأى الجيش مشتتاً، باب المفاوضات وتوصل إلى اتفاق أمده ست سنوات بهدف عدم التعرض لقوات سعود بن عبدالعزيز. ورغم أنه حرر قسماً من مناطق الأحساء إلا أنه لم يستطع أن يزيل تحصينات الوهابيين وهزم أخيراً في «الهفوف» وقد روى سفير بريطانيا أن سبب هزيمة القوات المرسلة هو أن «عربياً باسم محمد بك والذي كان أحد مستشاري سليمان باشا كان يرافق علي باشا في هذه الحملة باعتباره المستشار الرئيس. وكان هذا الشخص يمتلك عقارات واسعة في ضواحي بغداد وكان يُشك به قبل مدة طويلة بأنه على علاقة سرية مع ابن سعود»[٤].

---

١. كدخدا علي باشا.

٢. جونز، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ اعتبر بعض المؤرخين أفراد هذا الجيش من الأكراد، انظر: حسين خلف شيخ خزعل، صص ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

٣. يبدو فيما يتعلق بسبب هزيمة جيش كدخدا علي باشا أن اختلافه مع أحد أمراء العشائر المرافقة للجيش، هو الذي سبب هذا الإخفاق.

٤. جونز، ٣٠١.

وقد كان لهذا الإقدام الاستعراضي وغير المدروس، تبعتان مهمتان من حيث الدبلوماسية البريطانية: الأولى أنه قلل من هيبة الجيش العثماني وقدراته في أعين الوهابيين ويجب أن لا ننسى أن أي صراع مباشر لم يكن قد حدث أبداً بين القوات الوهابية والجيش العثماني قبل هذه الحملة وكانت المجاميع القليلة العدد من المدافعين عن مكة، البصرة أو الحلة أو جنود قبيلتي بني خالد وبني المنتفق قد حاربت القوات الوهابية في جميع الحروب السابقة. وكانت التبعة الثانية دخول نجد في ساحة المفاوضات والدبلوماسية الدولية، ذلك لأن أحد الممثلين انطلق من نجد إلى بغداد لتأييد اتفاقية عدم التعرض لمدة ست سنوات من قبل كدخدا علي باشا مع الأمير سعود ابن عبد العزيز[١].

وفي ظل الظروف التي احتل فيها نابليون مصر وحاصر أحمد باشا الجزار في قلعة عكا، وكانت حملة سليمان باشا قد فشلت فشلاً ذريعاً أيضاً، اضطرت الدولة العثمانية إلى الاعتراف رسمياً من الناحية العملية بمشروعية هذه القوة الحديثة الظهور والمعارضة لها من خلال السماح بدخول حجاج نجد الوهابيين مكة تحت رعاية الأمير سعود بن عبدالعزيز؛ بل وتم إكرامه من قبل شريف مكة، بالنيابة عن سلطنة آل عثمان[٢]. وقد كتب الصدر الأعظم للدولة العثمانية، في تقريره للسلطان، حول هذه السياسة قائلاً: «يبدو أن المشار إليه[٣] لم يبد تحركاً إزاءه سوى المواقف الودية من باب الاضطرار وكأنه في حالة صلح معه ذلك لأن مصر القاهرة تحت سيطرة الكفار الفرنسيين، وقد ألبس الأشخاص الذين يأتون من جانبه الخلَع ، وانبرى لمداراته بهذا الأسلوب»[٤].

---

١. المصدر السابق، ص ٣٠٤.

٢. صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٧٣.

٣. شريف مكة.

٤. تقرير الصدر الأعظم للسلطان المؤرخ سنة ١٢١٣ هـ/ أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية:

وقرر والي بغداد الذي رأى تزلزل اقتداره وهيمنته بعد العودة المشينة للقوات الخاضعة لأمر كدخدا علي باشا أن يستقبل في ظل إقامة مراسم خاصة المبعوث الخاص لسعود بن عبدالعزيز لتأييد اتفاقية عدم التعرض وأن يتظاهر بأن «النجديين» طالبوا هم أنفسهم بالمصالحة والهدنة وعدم التعرض من خلال إرسال ممثل لهم. وعلى الرغم من هذه التمهيدات والغطاء الدبلوماسي والتشريفات التي لا حصر لها، والتي كان قد خُطط لها كي يستعرض للعرب سطوة جهاز وزارة بغداد وهيبته، إلا أن ممثل نجد دخل المجلس بشيء من سلاطة اللسان غير مكترث بالظواهر والحواشي المذكورة. ومن سوء الحظ أن سفير بريطانيا كان قد دعي هو أيضاً إلى هذه المراسم، وهو الذي سجل وقائع هذا المجلس:

«وقد تقدم المبعوث الوهابي حتى عتبة الدخول في القاعة وكان الضباط الرفيعو المستوى مستعدين في بيت الباشا كي يؤدوا المجاملات المتعارف عليها في مثل هذه الحالات ويساعدوا المبعوث على الصعود من السلّم من خلال اقتياده من تحت إبطه، إلا أن المبعوث الوهابي لم يسمح لهم بذلك وصعد السلم لوحده بكل وقار، ودخل القاعة وجلس أرضاً في مواجهة الباشا دون تأخير ودون استئذان وقبل أن تجري أية مراسم وقال له باللغة العربية: يا سليمان! السلام على كل الذين يفكرون بشكل صحيح. لقد أرسلني عبدالعزيز كي أوصل هذه الرسالة إليك وآخذ منك المصادقة على الاتفاقية التي عقدت بين ابنه سعود ووزيرك علي. عسى أن تنفذ على النحو الأمثل في أسرع وقت.. علماً أنك إذا كنت مهتماً بتعاليم الشريعة فإن بإمكان عبدالعزيز أن يساعدك ويعلّمك»[1].

.→ HAT-00113-04519-00001

١. جونز، ٣٠٣.

وكان من الصعب جداً على سليمان باشا أن يتحمل مثل هذا السلوك المهين. ونظراً إلى ازدواجية السياسة البريطانية فإن من الممكن أن تكون هذه الرواية مبالغاً فيها، إلا أن هنالك وثيقة أخرى تظهر أن قوات نجد الوهابية استخدمت بعد سنتين هذه اللهجة نفسها في إحدى المراسلات الرسمية: «السلام على من اتبع الهدى. وأما بعد فإني أدعوك بدعوة الإسلام. أسلم تسلم!»[١].

وأدى تواجد القوات الفرنسية في عكا، وعلى الرغم من مساعي القوات المسلمة التي يقودها أحمد باشا الجزار وكذلك فشل القوة المرسلة إلى نجد، إلى أن تقرر الدولة العثمانية التعاون مع بريطانيا[٢]. وكان رد فعل بريطانيا التي كانت تعتبر تهديد الفرنسيين جدياً، إيجابياً في هذا المجال. وقرر «صاحب الجلالة الملك واللجنة السرية لشركة الهند الشرقية» أن يرفعوا مستوى الاتصالات وأن يفتتحوا الممثليات المقيمة. وهذا القرار هو الذي أوصل السير هارفورد إلى ممثلية بغداد:

«عُيّنت في عام ١٧٩٨ ممثلاً سياسياً في بغداد من جانب صاحب الجلالة الملك واللجنة السرية لشركة الهند الشرقية وذهبت إلى هناك. وكان الهدف الرئيس من مهمتي، التقرب من سليمان باشا كي أستطيع دفعه إلى المساعدة المالية للباب العالي والحيلولة دون تحقق أهداف نابليون بونابارت في الشرق مهما كانت من خلال دعم الدولة العثمانية ليصاب باليأس»[٣].

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية!: HAT-00094-03830-00001.

٢. جيرالدي غوري، ص ٢١٦.

٣. جونز، صص ٢٩٧ ـ ٢٩٦.

التغيير في توازن القوى داخل شبه الجزيرة العربية

كان من المتوقع أن تعتبر أحداث نجد منتهية على أثر تشكيل حكومة مستقلة من قبل الدولة العثمانية بسبب معاهدة الهدنة وعدم التعرض وكذلك صدور الإذن بالتوجه للحج، إلا أن حادثتين قليلتي الأهمية في الظاهر، غيرت مسار التطورات مرة أخرى:

الحادثة الأولى تتمثل في أن قبيلة بني حرب المهمة التحقت بـ«التفاهم السعودي. الوهابي» وترك هذا التحالف تأثيراً مهماً في تغيير توازن القوى داخل شبه الجزيرة العربية[١]. وتجب دراسة هذه الحادثة فيما يتعلق بسياسة التفاهم السعودي الوهابي في الاستيلاء على مكة، ذلك لأن مشاركة بني حرب في تحالف القبائل الوهابية، لم تزد من عدد الحلفاء الوهابيين وحسب، بل هيأت فرصاً جديدة لتوسيع المناطق الخاضعة لسيطرة الوهابيين.

وربما كان هذا الحدث حسب التقديرات الأولية للمسؤولين العثمانيين، على مستوى انضمام مجموعة أخرى من عرب شبه الجزيرة إلى القوات الوهابية، ولكن ومن خلال دراسة معلومات مثل موضع استقرار قبيلة بني حرب، عدد الفروع المتشعبة منها بل وحتى أصول هذه القبيلة والتي كانت على علاقات وثيقة مع المناطق خارج المنطقة يتضح أن هذا الحدث كان من شأنه أن يترك أثراً عميقاً للغاية: فقبيلة حرب كانت تشرف على منطقة المدينة المنورة العامة وكان ذلك بمنزلة إمكانيات ملفتة للنظر بالنسبة إلى القوات الوهابية للهجوم على شمال الحجاز والشام، واللتين كانتا قد وقعتا تحت سيطرتهم منذ ذلك الحين فصاعداً.

---

١. بهذا الخصوص، انظر: تقرير أدم أفندي، مبعوث الدولة العثمانية إلى نجد بخصوص التحاق وتعاون القبائل المجاورة للمدينة مع القوات السعودية بتاريخ ١٢١٥هـ، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-196930-D-0001.

وبعد تواجد نابليون في شمال الحجاز ومصر ومعاركه ضد القوات العثمانية، والتي أغلقت خطوط الارتباط الشمالية الجنوبية وكذلك الشرقية الغربية في مناطق بلاد الشام ومصر، لعل الطريق الوحيد الممكن في الحجاز، كان استغلال الروابط العشائرية والتحرك في مسار قبيلة بني حرب لاجتياز المناطق المتوغلة في الشرق مثل طريق الأردن وصحراء جنوب العراق نحو الشمال، وأدى تضامن قبيلة بني حرب مع القوات الوهابية إلى أن ينقطع أحد الخطوط الحدودية في منطقة استقرار قبيلة بني حرب والذي كان يمثل الطريق الوحيد لوصول الحجاج إلى الحرمين الشريفين عن طريق جبل شمّر البري وذلك في عامي ١٢١٣ـ١٢١٤هـ/١٧٩٨ ـ ١٧٩٩م. ولذلك، فقد قرر عبدالعزيز وابنه سعود من خلال الاعتماد على الموقع الجغرافي السياسي لقبيلة بني حرب حليفهم الجديد، أن يمنع في هذه السنة توجه حجاج المناطق الشرقية والذين كانوا يسيرون عبر هذا الطريق نحو بيت الله[1].

وتعد دراسة أسباب هذا القرار ملفتة للنظر: حيث يبدو في التقييم الأولي للأوضاع أن عبدالعزيز وابنه سعوداً سوف يستغلا هذه الفرصة قدر الإمكان لاجتذاب الحجاج مرة أخرى والحصول على الواردات المتحصلة من هذه الأسفار خاصة وإن الطريق التقليدي لوصول الحجاج إلى مكة[2] قد أغلق كما أن الدولة العثمانية اعترفت رسمياً ومن الناحية العملية بمشروعية حكومة نجد المستقلة، ولكن وخلافاً للتوقعات، وكما مر، فقد قرر الوهابيون أن يمنعوا انطلاق القوافل من الطريق الوحيد المتاح.

ولا يمكن اعتبار غلق الطريق على الحجاج من اتجاه الجبل إقداماً مصدره

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00160-06674-00001.

٢. الشامات ومصر.

الغضب والتسرع. وقد أظهر سير الأحداث في السنة اللاحقة أن القوات الوهابية كانت قد عزمت في هذه الفترة ومن خلال إدراك محدوديات انطلاق حجاج المناطق الشمالية والغربية[١]، على أن تهيء الأرضية من خلال تقليص عدد الحجاج، للتخطيط لتواجدها في مكة والاستيلاء على هذه المدينة؛ وتسعى من جهة أخرى لأن تزيد من خلال ذلك، الضغوط الاقتصادية على شريف مكة وأهاليها والتي كانت قد ابتليت بنقص ملفت للنظر في مصادرها المالية والاعتبارية بسبب الصراع بين القوات العثمانية والفرنسية.

كما جُرِّبت السيطرة على مكة في عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م: ففي خلال حج ١٢١٤هـ/١٧٩٩م قرر أمير الحاج في نجد سعود وبإشارة من أبيه وإثر بعض المقدمات وكذلك الاطمئنان من عدم وجود إمكانية إرسال قوات الإسناد للدولة العثمانية بسبب اشتباكها مع القوات الفرنسية، أن يرسل قافلة إلى البلد المقدس ثم الاستيلاء على مكة من خلال استغلال فرصة الحج وفي قالب تعبئة وهابيي القبائل وعشائر منطقة نجد وأطرافها.

وقد أعلن أمير نجد في مراسلة للحلفاء الآخرين في شبه الجزيرة العربية، بنيته قائلاً: «لله الحمد والمنة فإن إسلامنا حق وقوي وقد غلب المشركين وها نحن ذا نحقق الشهرة يوماً بعد آخر. وفي هذه السنة المباركة ستكون وقفة عرفات غير مزدحمة إلى حد كبير وستكون فرصة مناسبة بسبب عدم دخول قافلة مصر[٢]. ومن الواجب على الجميع خلال الحج الشريف أن يعدوا أسلحتهم في سبيل الله وأن تكونوا على حذر وتهتموا بإعداد الميرة أكثر من حد الكفاية وحتى يتم تعيين القائد فليأت بأمرنا الشفوي، وليستعد، وينطلق في الفور وبذلك فإن عليكم أن

---

١. الحجاج الأتراك والمصريون والمغربيون.

٢. لفهم أهمية هذه الإشارة المدرجة في نص السند، انظر: سعد بدير الحلواني، صص ٢٤ـ١٦.

تسارعوا في كسر شوكة المشركين»[١]، إلا أن الوهابيين تجنبوا سلّ السيوف والحرب للاستيلاء على مكة بفضل الخطط التي تم إعدادها[٢].

وتتمثل الحادثة الثانية في حدوث المجاعة وقلة الغلة في شبه الجزيرة العربية سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م. فقد قررت الدولة العثمانية التي لم يكن بإمكانها الوصول إلى الحجاز عن طريق البر بسهولة بسبب الاشتباك مع القوات الفرنسية أن توظف

---

١. الرسالة المؤرخة في ٢٣ ذي الحجة ١٢١٤ لشريف مكة إلى الباب العالي، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00113-04519-B-00001 وكذلك التقرير المرسل من قبل الصدر الأعظم للدولة العثمانية المؤرخ في سنة ١٢١٣هـ ن. ص HAT-00113-04519-00001.

٢. روى شريف مكة في بيان ظروف وصول خبر انطلاقهم وسبب امتناعهم عن الحرب قائلاً: وصلنا هذا الخبر المفزع في الحادي عشر من شهر ذي القعدة وأدى إلى القلق والحيرة والرعب. وفي حين أن انشراح الصدر قد حصل ولله الحمد والمنة بسبب حل معضلة مصر، وقد ابتلينا بهذه البلية التي لا نهاية لها وقد بسطنا بالضرورة جيب الغيرة والاهتمام ورغم أنه كان من المعلوم أن سوف لا يكون هناك وقت كاف لإيصال المساعدات، ولكن ولأن إفادة أحداث الخير والشر هي لازمة الذمة العدنانية فقد كتبت ذلك في الفور إلى معسكر جلالة الملك وأفهمته وأرسلناه بواسطة النجاب الخاص. والآن فإن محبتهم هذه استقرت في الجوانب الأربعة وتم إحضار عشائر العرب تحت أمرنا وألبسناهم الخلع وأعطيناهم الهدايا أكثر من اللازم وتم حفر المواضع في الجبال المحيطة بمكة وحصنّا الجانبين الأيسر والأيمن من طريق عرفات وجبال عرفات نفسها والمزدلفة ومنى والمواضع التي كانت متعرضة للخطر وأعددنا المقادير اللازمة من الأرزاق والذخيرة وهذا المحب لهم صعد عرفات ونزل منها خلف كافة الحجاج وفي كامل الاستعداد الحربي، رغم أن طائفة الخوارج تربو على الحصر وكان المراد الحجاج كلهم، ولكن وبمشاهدة الحركة المتبصرة واستعداد محبكم هذا، فإنهم لم ينجحوا في الحركة الخيانية والغادرة وعادوا ولله الحمد والمنة من مكة المكرمة إلى الجانب الشرقي دون تضرر أحد من الحجاج في اليوم الخامس عشر من شهر ذي الحجة» في هذا المجال، انظر: الرسالة المؤرخة في ٢٣ ذي الحجة ١٢١٤هـ لشريف مكة الى اسباب العالي، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية HAT-00113-04519-B-00001.

في هذه الظروف إمكانية الارتباطات البحرية[1].

وكان أهم واجباته في هذه الأثناء، إعداد الغلة من مناطق إيران الجنوبية ونقلها عبر الطريق البحري إلى ميناء ينبع، كي ينقذ بذلك سكان الحرمين الشريفين من المجاعة ويؤمن في نفس الوقت القوات المشتبكة مع القوة الفرنسية المهاجمة من حيث الاحتياجات الأولية. وكان هذا الطريق يبدأ من طريق تستر هويزة ويصل إلى ينبع من خلال الانتقال من البحر في طريق البصرة ـ بوشهر ـ لنكه ـ مسقط ـ جدة[2] وفي الخطوة الأولى من تنفيذ هذه الخطة، تم شراء ٨٠٠٠ كيس من المواد الغذائية من مناطق جنوب إيران وأرسلت عبر هذا الطريق. ورغم أن الدولة العثمانية كانت قد هادنت بشكل تلويحي دولة نجد المستقلة، إلا أنها لم تكن تهتم في مسار مساعدة المتضررين من المجاعة في شبه الجزيرة العربية إلا بأولوية الحجاز وسيناء.

وقرر سكان السواحل في المناطق الجنوبية من الخليج الفارسي، أي القبائل المنضمة إلى وهابيي نجد أو المنحازة إليهم، والذين شهدوا انتقال المواد الغذائية في ظروف الجفاف والمجاعة الصعبة التي استمرت سنتين، أن تسيطر على الحمولات. وكان العامل الذي خدم أصحاب الزوارق في الساحل الجنوبي، نوع السفن الشراعية البحرية العثمانية المستقرة في المنطقة، فقد كانت اليخوت العثمانية صغيرة هي أيضا قياساً إلى الأسطول الشراعي المسلح للحكومة البريطانية، كما كانت مضطرة إلى اجتياز الطريق بسرعة أقل في حاشية الساحل الجنوبي للطريق بسبب استيعابها المحدود؛ وبناء على ذلك، فقد كانت تعتبر

---

١. تقرير رمضان ١٢١٣هـ، والذي لخص الصدر الأعظم ونظم فيه رسائل والي بغداد، واطلع السلطان عليه. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية الإسلامية: HAT-00160-06674-00001.

٢. المصدر السابق، ن. ص.

أهدافاً سهلة للمهاجمين الذين كانوا يستولون على اليخوت وحمولاتها مستغلين ظلام الليل كما كانوا يقتلون الملاحين.

وقد كان لتحركات العرب البحرية في منطقة الساحل الجنوبي، والتي كانت قد بدأت منذ هذه السنوات بشكل جدي، تبعتان مهمان:

الأولى انعدام الأمن البحري في الخليج الفارسي، والذي أدى هو بدوره إلى مزيد من تدخل القوى الأجنبية، أي القوة البحرية البريطانية وكان العامل الآخر، الموقع المغري للسواحل الجنوبية من الخليج الفارسي والذي كان يعد موقعاً مناسباً للحصول على الثروة عن طريق نهب السفن وكان قد هيأت الأرضية لاهتمام سكان شبه الجزيرة العربية الآخرين.

وقد سبقت قبيلة عتوب الآخرين من بين قبائل المناطق الوسطى من نجد في ذلك الأمر واستولت خلال فترة قصيرة على مناطق واسعة من هذه السواحل.

ويجب الالتفات أكثر منذ هذه العهود إلى موضوع الانتقالات والهجرات الداخلية للقبائل المختلفة، والتي أدت إلى استقرارها في مناطق مثل أبو ظبي، دبي، زبارة، رأس الخيمة، الشارقة وغيرها. وإن لم نقل إن كل أحداث السنوات اللاحقة مثل الدعاوى المتعلقة بالقضايا الأرضية لشيوخ السواحل أو الجزر، النطاق البحري ثم الهضبة والتي أدت في نصف القرن الأخير إلى حدوث أنواع التوترات والصراعات السياسية، تمتد جذورها في أحداث هذه المرحلة التاريخية.

وكان هجوم قوات عتوب على البحرين وزبارة في شبه جزيرة قطر والتي كانت تعتبر جزءاً من نطاق سيادة إيران بسبب تواجد الرعايا الإيرانيين، قد أصبح الهاجس المشترك بين الحكومة الإيرانية وإمام مسقط، بحيث أن مسقطاً كانت ترى مستقبلها السياسي والاقتصادي أيضاً متعرضاً للخطر بعد تحركات القوى البحرية المهاجمة. وأخيراً هاجمت قوى إمام مسقط البحرين بناء على اقتراح

إيران، لإخراج المهاجرين المهاجمين[1] ورغم أنها استطاعت أن تدحر قوة قبيلة بني عتبة أو عتوب نفسها إلى زبارة وتجبرها على دفع الخراج للحكومة الإيرانية، بعد الإذعان لسيادة إيران، إلا أن هذا الانتصار المؤقت، لم يؤثر في التوازن السكاني المختل للمنطقة والذي كان قد بدأ.

وقد أوجدت مجموعة أحداث سنتي ١٢١٣ـ١٢١٤هـ / ١٧٩٨ـ١٧٩٩م أي سياسة عبدالعزيز بهدف الاستيلاء على مكة من جهة والتعرضات البحرية لبعض القبائل العربية المهاجرة على السفن الموجودة في الخليج الفارسي، تغييراً في توازن القوى، وكانت استعراضاً واضحاً لقوة الوهابيين وعددهم في شبه الجزيرة العربية ودلالة على تضامنهم في تحقيق الأهداف السياسية. ولعل هذا العامل هو الذي دفع بريطانيا لأن تفتح باب المفاوضات المباشرة مع عبدالعزيز من خلال إرسال ممثل خاص إلى الدرعية[2].

ولا تتوفر سوى معلومات محدودة عن نتائج هذه المفاوضات، بمعنى أن ممثل بريطانيا كان قد طلب نظراً إلى الاستقبال الحار الذي لاقاه أن تضمن

---

١. لدراسة علاقات إمام مسقط مع الحكومات الإيرانية آنذاك، انظر: محمد موسى عبدالله، امارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى ١٧٩٣ ـ ١٨١٨، القاهرة، مكتبة المصري الحديث ١٩٧٨، صص ٨١ ـ ٨٤.

٢. كان الممثل مساعد رئيس ممثلية بريطانيا في البصرة حيث ذكر في الوثائق البريطانية باسم Reinaud. ورغم أن معلوماتنا عن هذه المهمة مستقاة من السير هارفورد، إلا أن علينا أن نلتفت إلى أن هذه الإشارة لا توجد في الترجمة الفارسية للمذكرات المذكورة. ومع كل ذلك، للاطلاع على أصل الخبر يرجى مراجعة:

BRDGES, Sir Harford jones, Alt account of his Majestsy Mission to the court court of Persia in the years 1807-1810 to which is appended: A brief History of the wahhaby, London 1834, vol.2, pp:12-13.

القوات الوهابية أمن الشحنة البريدية بين البصرة وحلب[١].

وإذا ما صحت هذه الرواية، فإن السؤال المطروح هو: هل بالإمكان الحصول على مصدر يدل على تنفيذ السيادة أو العمليات المتواصلة للقوات الوهابية في نجد خلال تلك الفترة على مناطق شمال الكويت في طريق البصرة حلب ؟ من الطبيعي أن المصادر التاريخية المتاحة لا تقدم خبراً ومعلومة في هذا المجال، ولذلك لا يمكن القول بعين الشك إن الموضوع المذكور قد يكون غطاء لمهمة أخرى؟ فتغيير الاتجاه السياسي العسكري لنجد في السنوات اللاحقة قد يدل على أن المسؤول البريطاني استطاع أن يترك أثراً في اتجاه هجمات الوهابيين.

العراق، ساحة تنفيذ سياسة المواجهة «الوهابية ـ الشيعية»

بعد نهاية مراسم الحج في ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م قرر عبدالعزيز بن محمد ابن سعود نظراً إلى الفراغ في السلطة ونزاعات الدولة العثمانية، أن يوسع مسار فتوح وهابيي نجد من شبه الجزيرة العربية إلى خارجها؛ ولذلك فقد أخذت النجف بنظر الاعتبار باعتبارها هدفاً بارزاً.

ويبدو أن هذه المدينة كانت قد لفتت انتباه «التفاهم السعودي ـ الوهابي» من خلال بعدين: الثروة التي كانت قد انفقت منذ عهد نادر شاه في بناء العتبة العلوية والمحافظة عليها وإكساء القبة، المآذن والأيوان بالذهب[٢]، واستمر ذلك بعده

١. عبد الحميد البطريق، ابراهيم باشا في بلاد العرب، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٢٤. سجل جونز أيضاً هذا الاستدلال بنفس هذا الترتب انظر: جونز، ص ٢٩٥.

٢. كانت مهمة تنفيذ أوامر نادر شاه في مجال ترميم قبب النجف وكربلاء وتذهيبها تقع على عاتق مهدي قلي خان بيگدلي ابن خال لطف علي بيگ آذر بيگدلي الشاعر الكبير في ذلك العهد (محمد أمين رياحي، ص ٣٧٧).

←

بالهدايا الثمينة للملوك **الزندية**[1] **والقاجارية**[2] وزاد من المكانة الظاهرية والدنيوية لهذا المضجع الشريف. ومن جانب آخر، فإن هدم قبة التربة العلوية وضريحها كان من شأنه أن يسكّن من المشاعر الدينية للفرع الوهابي من هذه المجموعة. وقد زحفت قوات نجد بقيادة سعود بن عبدالعزيز حتى النجف وحاصروا المدينة لأربعة شهور. وكان هنالك عاملان أنقذا المدينة: الأول هو السور الذي كان قد بدأ إنشاؤه بناء على طلب أهالي النجف وأمر آغا محمد خان الملك القاجاري، تحت

← وقد روي أن نادرشاه أنفق خمسين ألف تومان على الإكساء بالذهب (آل محبوبة، ج ۱، ص ٦٤). وقد ذكر مؤلف فارسنامه ناصري أن هذا المبلغ بلغ عشرة آلاف نادري (ميرزا حسن حسيني فسايي، فارسنامة ناصري، ص ۱۹۳). كما أهدى نادر كاسة كبيرة [وربما جرناً] إلى عتبة أمير المؤمنين عليه السلام التي تحرسها الملائكة حيث سجلت في فهرس عام ۱۲۷٥هـ (انظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية، مجموعة كراسات الأوقاف Nezaret Sonrasi Evkaf Deferleri) وفضلاً عن ذلك، فقد تم إنفاق مائة ألف روبية في سنة ۱۱٥٦هـ / ۱۷۲۳م وحدها من جانب گورهشاه بيگم، أم إمام قلي لتنفيذ القاشاني على جدار الصحن (آل محبوبة، ج ۱، ص ٨٤) وترميم بعض من سور المدينة (محمد حسين حرز الدين مسلمي عقيلي، تاريخ النجف الأشرف، قم، دليل ما، ۱٤۲۷، ج ۲، ص ۳۳٤).

۱. وعلى سبيل المثال، فقد كان محمد جعفر خان قد نذر من أجل ترميم وتزيين العتبات المقدسة وكلف وصيه بتنفيذ القاشاني في الصحن ورواق الحرم بعشرين ألف تومان تبريزي كما أهدى أشياء أخرى. «دفع ۱۰/۰۰۰ تومان لقاشاني الصحن وتزيين الرواق، وإعطاء قنديلين وقارورة ذهب كانت مزينة بالمجوهرات والياقوت والماس، بقيمة ۱۲۰/۰۰۰ تومان، مع عدد من سجاد جوشقان لحرم أسد الله الغالب علي بن أبي طالب عليه السلام (أبو الحسن غفاري كاشاني، گلشن مراد، بتحقيق غلامرضا طباطبايي مجد، طهران: انتشارات زرين، ۱۳٦۹، صص ٦٥٨ـ٦٦٠) وذكر حاجي پيرزاده الذي زار النجف في سنة ۱۳۰٥هـ، حول أحد هذه القناديل المزينة بالمجوهرات تخميناً لقيمته بثلاثمائة ألف تومان (انظر: پيرزادة نايينى، سفرنامة حاجي پيرزاده، به بتحقيق حافظ فرمانفرمائيان، طهران، بابك بدون تاريخ، ص ۳۳۹).

۲. ر.ك عباس العراوي، تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد ۱۳٥۳، ج ٦، ج ٦، ص ۱۰۸. أيضا: آقا أحمد بهباني، مرآة الاحوال جهان نما، بتحقيق علي دواني، طهران، نشر قبلة، ۱۳۷۲، ج ۱، ص ۱٥۰.

إشراف صدره الأعظم الحاج محمد حسين خان العلاّف الأصفهاني من المخصصات الحكومية ثم تولى الصدر الأعظم نفسه مسؤولية تأمين المخصصات المالية اللازمة لهذا العمل من الموارد الشخصية[1]. والعامل الآخر الذي حال دون سقوط المدينة، قتال العلماء وأهالي المدينة من فوق سور النجف[2]. وتولى قيادة المحاصرين العلامة الشيخ جعفر الكبير الملقب بـ«كاشف الغطاء»[3].

وقد دفع الفشل في هذه العمليات واشتباك قبيلة الخزاعل[4] مع الجيش الوهابي، والذي أدى إلى موت ٣٠٠ منهم[5]، سعوداً إلى أن يعطي الأولوية مرة أخرى لداخل شبه الجزيرة العربية على توسيع نطاق العمليات خارجها؛

---

١. ظ: سيد علي موجاني، بازسازي تاريخ فراموش، صص ٩٨-٩٧.

٢. سجل البعض هذا الحدث في سنة ١٢١٤هـ: آل محبوبه، ج ١، ص ٣٢٦، إلا أنه ذكره في مرآة الأحوال في ذيل أحداث ١٢١٥ آقا أحمد بن محمد علي البهبهاني، ج ١، ص ١٥٤.

٣. بعد هجوم الوهابيين على النجف الأشرف، أصدر العلامة كاشف الغطاء، الشيخ جعفر الكبير فتوى في باب وجوب الدفاع ولزومه كما طلب المساعدة من العلماء الآخرين. وهنالك تقرير عن باشا نجد يظهر أن المسؤولين العثمانيين نجحوا في مطاردة القوات الوهابية في تحركهم نحو النجف الأشرف، إلا أنهم لم يبذلوا في نفس الوقت غاية جهدهم من أجل منعهم من الوصول إلى النجف، بل رأوا أن من «المصلحة» أن يكتفوا بأن يكمنوا لهذه المجموعة كي يشنوا عليهم هجوماً مباغتاً في طريق العودة. بهذا الشأن، انظر: تقرير ٢٦ شعبان ١٢١٨ هلوالي بغداد إلى الباب العالي. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT.00082/03381C/00001.

٤. وقعت هذه الحادثة في سنة ١٢١٥هـ / ١٨٠٠م انظر: محمد حسين حرزالدين مسلمي عقلي، ص ٣٨٢.

٥. عثمان بن سند البصري، مطالع السعود بأخبار الوالي داود؛ بومباي، ١٣٠٤، ص ٢٧. اعتبرهم أحد الباحثين الأتراك سكان القرى حول النجف والكبيسة وهي منطقة في محافظة الأنبار الحالية: زكريا قوروشون، ص ٦٠.

فاستولت قوات سعود على ميناء القطيف[١]، كما هدموا عبر الهجوم على جبل أحد قرب المدينة، قبب شهداء غزوة أحد[٢].

وقررت الدولة العثمانية التي كانت متورطة في دوامة الاستئصال أن تحول دون استمرار هذه الإجراءات من خلال انتهاج سياسة الترغيب والترهيب، أي إرسال الجنود وتوزيع النقود[٣]. وقد دخل سعود ابن عبدالعزيز مكة في أيام الحج بكل اقتدار كما استقبل شريف مكة[٤]. كما عمد سعود إلى القيام بابتكار لإظهار اقتداره المعنوي للسلطان العثماني: فقد كتب على ظهر رسالة الشريف غالب، والتي كانت قد سلمت إليه بشكل خصوصي وكان قد أظهر فيها بتبعيته لسعود، نصاً وبعثه إلى السلطان العثماني:

«إن هذه الرسالة التي أبعثها هي رسالة الشريف، حيث كتبت على [ظهرها] رسالة إليك ولم يكن ذلك بسبب قلة الورق، بل لكي تعلم كيف أقر الشريف وأهالي الحرمين بصحة ديني وإسلامي وببطلان الأديان الأخرى»[٥].

ويبدو من نص رسالة الشريف أن شرفاء مكة كانوا قد يئسوا إلى حد كبير. كما قدم الشريف غالب معلومات سرية إلى سعود ابن عبدالعزيز وكان قد عبر بشكل

---

١. لوريمر، ج ١، ص ٢٨٦.

٢. بهذا الشأن انظر: أرشيف قصر الملك عبدالعزيز، قسم أسناد العهد العثماني، صورة رسالة شريف مكة غالب بن مساعد إلى الباب العالي، رقم ١ / ٢ ـ ٤٣٨ مورخة ١٢١٦/٥/٩ هـ.

٣. هنالك أخبار متناقضة بشأن نهج شريف باشا وسياسته. وقد صور الميرزا أبو طالب خان (ص ٤١١)، سياسة الشريف المزدوجة بوضوح قائلاً: «كان شريف مكة يتظاهر بأنه من المتوسلين به، وقد ظهر هذا الولاء بتحريض من أمراء إستانبول، ابن بشر، ص ٢٥٦؛ أيضاً: صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٧٣.

٤. ابن بشر، ٢٥٦؛ أيضاً: صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٧٣، ظ: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-162-6726-29z1215-1.

٥. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00094-03830-00001.

عملي عن تمكينه الكامل إزاء قرارات نجد:

«ليكن معلوماً لك أن أمير الحاج في الشام عبدالله باشا ابن الأعظم ومعه عابدين باشا والي جدة أيضاً وإن جنود عبدالله باشا وهم حوالي ألفان وخمسمائة خيال يرافقون والي جدة . إلا أننا فرّقنا جنود والي جدة، وأرسلنا البعض بالتعريض والبعض الآخر عن طريق البحر. وبقي معه بالتالي عدد أقصاه ١٠ أفراد في مكة وبالطبع فإن الحجاج سوف يعودون اليوم أو غداً... وهم أيضاً جمّالو عبدالله باشا، حيث أرادوا أن نتوسط بينهم وبين أمراء المسلمين، إلا أننا اعتذرنا ولم تشاهد حتى زمان كتابة هذه الرسالة علامة تشير إلى مسير الحجاج، وبالطبع فإننا سوف نعلمكم من الآن فصاعداً عن كل حالة تحدث لهم.. وأنا اعتبرك ولداً صالحاً وقد جربت عداوتي قبل ذلك، فجرب من الآن فصاعداً صداقتي وأنا لست من الأشخاص الذين يتوهمون الشكوك بك ... وكما قلت فسوف لا يبدر مني خلاف في طاعتي لك»[١].

وكان اهتمام الإيرانيين بأحداث نجد وأخبار تلك البلاد، يثار مع بداية موسم الحج. وكان القلق من مشاكل الطريق يؤدي إلى أن يتابع قدر الإمكان أقرباء المسافرين مع قوافل طريق الحجاز، أخبار طريق السفر وأحداثه. وبالطبع فقد كان هنالك شائعات وأخبار صحيحة وغير صحيحة تصل عن الأمراض المعدية، رياح السموم، السيول والمطر، هجوم قطاع الطرق، الغلاء والمجاعة، تضيقات عمال الدولة العثمانية، شحة المياه والجفاف وما إلى ذلك من صعوبات، إلا أن قلق أقارب حجاج بيت الله الحرام كانت تنتهي طبعاً بعودة قافلة الحجاج ووصول الأخبار الصحيحة. ولذلك، فإن المجتمع الإيراني آنذاك لم يكن عديم الاطلاع بالمرة على أخبار تلك الأحداث؛ بل إن هنالك في المصادر والنصوص وكذلك

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00094-03830-00001.

الرحلات العديدة المتبقية من القرن الأخير، أخباراً وتقارير يمكن من خلال دراستها تقديم تحكيمات وتقييمات أكثر دقة عن الرأي العام الإيراني والنظام السياسي في إيران فيما يتعلق بالأحداث.

وإن إشارة الميرزا القمي في حوالي العقد السابع من القرن الثاني عشر باعتباره أحد الإيرانيين المقيمين في النجف، حول أخبار نجد وحركة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب[١] هي علامة بارزة وواضحة أخرى على وصول أخبار نجد والحجاز. ومع كل ذلك، ولأن حادثة لم تكن وقعت بين قوات الطرفين، حتى ما قبل المعركة المشتركة بين قوات إيران وإمام مسقط بهدف تحرير البحرين في سنة ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م، فإن موضوع أخبار نجد وأحداثها، لم يكن في مركز اهتمام النظام الإداري السياسي لإيران.

وأما محاصرة النجف ثم استنجاد أهالي كربلاء، فقد أثارا الرأي العام الإيراني[٢] ثم لفت النظام الحاكم في إيران إلى ظاهرة جديدة كان من شأنها أن تشكل تهديداً مستقبلياً لرعايا إيران ومصالحها. ولذلك، فقد قرر فتح علي شاه أن يفعل شيئاً في هذا المجال. واستناداً إلى معلومات المصادر العثمانية، فإن والدة فتح علي شاه كانت قد أمرت أن يرسل ابنها، حرساً من بين العسكريين مع قافلتها، والتي كانت متوجهة إلى العتبات المقدسة[٣].

---

١. الرسالة المؤرخة ١٢٣٠هـ من الميرزا القمي إلى فتح علي شاه القاجاري. مخطوطة رقم ٥٣٤٨، مكتبة مجلس الشورى الإسلامي ٧١ب ـ ٧٣آ.

٢. انظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-811/37235/128Z29.

٣. كتب والي بغداد إلى الباب العالي في هذا المجال قائلاً: «يبدو أن شائعات تفيد بمحاصرة قصبتي الإمام علي[ع] والإمام الحسين[ع] (رضي الله عنهما) والإحاطة بهما، قد بلغته، وكتبت رسالة إلى ابنها بأن يرسل الكثير من الجنود للمحافظة عليها وقد حرر هو هذه المسألة إلى طرف هذا العبد وهو ينتظر إرادتنا وخبرنا، حيث حملنا القضية مرة أخرى على طريق التحالف، وكتبنا في ←

وكان قرار ملك إيران قد اتخذ على أساس انتشار أخبار الهجوم الوشيك للوهابيين على النجف وكربلاء. وبالطبع فإن سليمان باشا أبا الماليك، والي بغداد الذي كان يعتبر هذا النوع من الأخبار شائعات، كان يعد التصدي لابن سعود قضية بسيطة[١]. وهذه المعلومات الخاطئة والتغاضي عن الحقائق القائمة هي التي أدت إلى أن يعتبر الباب العالي احتمال تعرض القوى الوهابية مرة أخرى ضعيفاً. وكان يوسف ضياء، الصدر الأعظم للدولة العثمانية يرى أن يطفئ «شقاوة» الأمير عبدالعزيز بدلاً من السعي لمواجهته العسكرية، كي لا تحتاج الدولة العثمانية إلى أداة «القوة القاهرة»، وذلك من خلال إرساله رسالة تتضمن المواعظ والنصائح[٢].

وتحظى رسالة يوسف ضياء بالأهمية الكبيرة من جانبين: الأول أنه كان يعتبر إقدام عبدالعزيز على مهاجمة النجف «وهدم مثل هذا الحرم المبارك غير جائز شرعاً وعقلاً» والآخر أن مثل هذا الأقدام سوف يثير رد فعل الإيرانيين. ويمكننا أن

← الجواب أننا لا نحتاج إلى مساعدة أحد في ظل سلطنة السلطان [العثماني] فلقد خصصنا للحدود الكميات الكافية من المؤن ومستقبلي الضيوف»، انظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00162-06726-00001.

١. يعتبر سليمان باشا التصدي لابن سعود «مسهل الأمور» (المصدر السابق، ن.ص) وكانت الدولة العثمانية تتصور حتى أواخر سنة ١٢١٦ هـ أيضاً أن الأخبار المتعلقة بالهجوم ليست سوى شائعة وكانت تصر على قدرتها القاهرة على التصدي لفتنة سعود. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-160-6690A-29Z 1216-1.

٢. تقرير التاسع عشر من رجب ١٢١٦ هـ من الصدر الأعظم للدولة العثمانية إلى السلطان.. وقد كان مفاد الرسالة كما يقول الصدر الأعظم كالتالي: «لقد رأينا التجاسر على هدم الحرم الشريف للإمام الحسين (رضي الله عنه). وحضرتكم من أصحاب العلم والتقوى والمعروفين بالزهد والصلاح. ومن الواضح أن مثل هذا التجاسر وهدم مثل هذا الحرم المبارك غير جائزين شرعاً وعقلاً، خاصة وإن احترام الإيرانيين للحرم الشريف المذكور ظاهر وحسن اعتقادهم باهر وواضح. أنظر: تقرير أوائل سنة ١٢١٧ هـ للصدر الأعظم إلى السلطان، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00094-00001.

نستنتج خلال التحليل «المتفائل» لإشارة يوسف ضياء أن الحكومة الإيرانية كانت قد أبلغت الباب العالي رسائل جدية ومؤثرة وأكدت أن والي بغداد إذا تملص من مسؤولية المحافظة على العتبات المقدسة، فإن الحكومة الإيرانية سوف تجيز التصدي للمهاجمين من أجل المحافظة على المصالح الوطنية، أرواح رعاياها والدفاع عن التراث التاريخي للتشيع. وحسب إشارة يوسف ضياء فإن إقدامات عبدالعزيز من شأنها أن «تثير وتحرك عرق الغيرة لدى طائفة العجم [الإيرانيين] وسوف تؤدي إلى اهتمامهم بالتسلط عليكم وسفك الدماء ومن الواضح أن عدداً من الفقراء سوف يتعرضون خلال ذلك للخسائر والأضرار... وعلى هذا فإن عليكم أن تباشروا بالحصول على رضا الله..»[١].

وإذا ما أردنا أن نقيم الأمور من منظار متشائم فإن علينا القول إن الصدر الأعظم العثماني، يوسف ضياء ربما سعى بدهاء لأن يحرف اتجاه حربة التصادم مع القوات الوهابية نحو إيران وفي مواجهة التشيع. وهذه الملاحظة تتطابق مع بعض المستندات المذكورة سابقاً؛ ويمكن القول على الأقل إن الدولة العثمانية توصلت في مرحلة خاصة إلى هذه النتيجة وهي أن تسهّل أرضية الصراع بين الوهابيين والشيعة. ومما يعزّز هذه الفرضية السلوك السابق لسليمان باشا في التصادم مع عشائر جنوب العراق أو توجيه القوات الوهابية إلى مناطق إيران الحدودية.

اقتراح الشريف بشأن الائتلاف الرباعي

كان شريف مكة وخلافاً للسياسة الرسمية للدولة العثمانية في هذه المرحلة، ما يزال يرى أن مراكز القوة الأربعة بغداد، الشام، مكة ومسقط يجب أن تهزم معاً

---

١. تقرير التاسع عشر من رجب ١٢١٦ هـ من الصدر الأعظم للدولة العثمانية إلى السلطان أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00094-03816-00001.

القوات الوهابية بشكل متزامن[١]:

«استناداً إلى الأمر الآصفي فقد انطلقوا من قلعة العريش واستقر حضرة محمد باشا النابلسي الذي تفضل بتعيينه قائداً على جنود الإسلام، مع خمسة آلاف من الجنود المشاة الخيالة بمعسكره في موضع يبعد سبعة أو ثمانية منازل عن الشام الشريف وهو يقوم بالدوريات في الأطراف والأكناف. والعرب الساكنون في تلك المناطق لا يمكنهم من الخوف ترك عيالهم وأوطانهم وإيصال الإمدادات إلى عبدالعزيز المتمرد وهم مقيدون بالمحافظة على عيالهم وأوطانهم . وقد رتب هذا المحب المثني عليكم مع الأفراد الخاضعين لتبعيتي والمشرف عليهم تمام الإشراف، حوالي خمسة عشرة آلاف شخص من عشائر العرب والإعدادات الكلية حسب الإمكان وأقمتُ الخيم في موضع على مسافة سبعة منازل أو ثمانية أمام الطائف وانشغلت بالقيام بالدوريات في الأطراف والأكناف ، وكما ذكرتُ فإن الأعراب المتمردين في هذه المناطق أيضاً سوف يتحيرون من إمداد المتمرد المذكور. ومن الجهة الثالثة فإن إمام ميناء مسقط الداعي لكم باسم السلطان هو من العقلاء ذوي النفوذ بحد ذاته، وقد دخل ربع الأراضي الخاضعة لحكمه في رقعة حكم ذلك المتمرد من باب الإجبار. والسلطان المذكور تابع منذ فترة طويلة لرأي الدولة العلية ومطيع للأمر الملكي وقد أقام ألفة المراسلة مع هذا المحب على الدوام وتحت تصرفه مدفعيون ماهرون في فن المدفعية. وإذا ما تم إرسال المدافع والمدفعيين الإنجليز أو المدافع والمدفعيين المستقرين في الجيش الهمايوني (الملكي) إلى ميناء مسقط وتم تحريكها من ولايتي الأحساء والقطيف وأقدموا

١. قدم هذا الاقتراح في جمادى الأولى ١٢١٦هـ في حين أن القوات الوهابية أحدثت بعد فترة قصيرة تغييراً أساسياً في الترتيبات الأمنية للمنطقة، من خلال الهجوم على كربلاء. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية: HAT-00094-03838-00001.

على محاصرتهم وأرسلت قطعة من الأمر العالي خطاباً للمذكور، وأن ينطلق السلطان المذكور من تلك الجهة، فإن جهة الإحساء والقطيف سوف تصبح تحت تصرفنا براً وبحراً وسوف يحاصر ذلك المتمرد من ثلاث جهات بشكل كامل وسوف يتحرك حضرة سليمان باشا والي بغداد بنفسه بالمدافع والقذائف ويتجه بشكل مباشر نحو مقر ذلك المتمرد ويخيم في الدرعية ويقوم بمحاصرة ذلك المتمرد ومن البديهي أنه سنزيل بعون الله الملك القدير وجود ذلك المتمرد وسوف تقدم للدين والدولة خدمة ومنة عظيمتان. وعلى أي حال، فإن الحصار من ثلاث جهات سوف يؤدي إلى هزيمته وسوف يكون تأثير هذا الأمر في السهولة أكثر من انتصار مائة ألف جندي إسناد من حضرة الوزير المشار إليه، وفيما عدا هذا الطريق، لا توجد بأي شكل من الأشكال إمكانية للانتصار ومن الواجب أن يتم التنسيق بيننا بخصوص وقت المحاصرة وساعتها من هذه الجهات الأربع وأن تصدر أوامر منفصلة بخصوص مهمة كل واحد منا وننجي في أسرع وقت ومن أجل رضا الله ورسوله، جيران الحرمين الشريفين من هذه البلية العظمى ونبذل الحماية والوقاية في مقابل تسلط الأجنبي»[١].

ويبدو تقيم الشريف صحيحاً، وبالنظر إلى الحدث الذي كان قد وقع في صفر سنة ١٢١٦هـ / ١٨٠١م بين الشيخ «بادي» من عشائر الظواهر من قبيلة بني حرب وبين عبدالله باشا والي الشام. وقد توقفت قافلة الشام التي كانت تحمل القهوة، في صحراء المزيرب[٢] على إثر هطول المطر وتلف ٢٠٠٠ من جمال هذه القافلة.

---

١. تقرير ١٦ جمادي الأولى ٢١٦هـ للشريف غالب بن مساعد إلى الصدر الأعظم، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00094-03838-00001.

٢. تقع المزيرب على بعد ٢٤ فرسخاً من الشام (دمشق) وكانت أحد المراكز الرئيسة في طريق تلك المجموعة من الحجاج الذين كانوا يتوجهون من الشام نحو الحرمين الشريفين. وكان مزار الشيخ ←

ورغم أن مجاورة موضع الحادثة بمركزية قبيلة بني حرب أدت في البدء إلى حدوث مصادمات بين الطرفين، إلا أن هذا الأمر هيأ أخيراً لوالي الشام إمكانية أن يشتري عدداً كبيراً من جمال قبيلة بني حرب لنقل حمولته. ويمكننا أن نستنبط من التقارير الموجودة أن وهابيي قبيلة بني حرب الذين كانوا قد رُغِّبوا، باعوا جمالهم للشاميين ووجهوا بذلك ودون أن يعلموا ضربة إلى القدرة اللوجستية للجيش الوهابي. وقد كان إقدامهم عسيراً على أمراء نجد إلى درجة بحيث تمت مؤاخذتهم وتوبيخهم[١].

وبناء على ذلك، يمكن اعتبار تقييم شريف مكة في تلك المرحلة التاريخية، مطابقاً الحقائق؛ وذلك بأن الجيش الشامي المجهز لو كان تصرف مع قافلة الصحراء أو جمال وهابيي النجد، مع الأضلاع الثلاثة الأخرى لهذا الحلف، لتمت محاصرة قوات نجد التي كانت تفتقر إلى القدرة على التحرك السابق في قلب الصحراء.

ويبدو اقتراح شريف مكة في الهجوم من أربع جهات، ذكياً نظراً إلى ضعف القوة اللوجستية للقوات الوهابية في ذلك التاريخ، إلا أن اتخاذ مثل هذه السياسة لم يكن كما بينا لا في برنامج عمل والي بغداد سليمان باشا ولا يوسف ضياء باشا، الصدر الأعظم للدولة ، العثمانية.

وفي ظل هذه الظروف، فشلت القوات الفرنسية في محاصرة عكا وتلاشت، وتمت محاصرتها في الساحل الشرقي من نهر النيل، من قبل البحرية البريطانية بمشاركة قسم من قوات الدولة العثمانية الخاضعة لأمر شريف باشا، وذلك إثر

← سعد الأسمر التكروي، من طرق أهل التصوف يقع في هذا الموضع وتفيد إحدى الروايات بأن أراضي تلك المنطقة وقفاً لخانقاهه. أنظر: اعتماد السلطنة، سفرنامه حاج علي خان اعتماد السلطنة در بيان منازل شام الى مكة معظمة.

١. أنظر أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00094-03838-00001.

الغارات الليلية لقبائل صحراء سيناء. وأسر شريف مكة الذي كان من المفترض أن يعتبر الوهابيين عدوه الرئيس، مجموعة من الجنود الفرنسيين في تلك المرحلة. وقررت قوة المكيين وبغض النظر عن الالتفات إلى مسؤوليتها الرئيسة في المحافظة على أمن الحرمين الشريفين، أن تتعاون مع القوة البريطانية في سواحل نهر النيل، وبناء على ذلك، فقد تم تسليم الأسرى الفرنسيين «فقد أعطى بمقتضى السنّة الحسنة للسلطة السنية إلى المسفورين الرأي والأمان، وتم تحويلهم إلى المشار إليه القبطان باشا والبحارة الإنجليز»[١].

القوى الكبرى و«التفاهم السعودي الوهابي»

وفي هذا الأثناء، قرر نائب السلطنة البريطاني المقيم في بومباي (= الحكومة الهندية) أن يرسل ممثلاً خاصاً إلى نجد والحجاز لدراسة أوضاعهما. ولذلك ، فقد توجه شخص باسم «الميرزا محمدي خان» والذي ربما كان إيراني الأصل بسبب لقبه «الميرزا»، إلى المنطقة بتلك المهمة[٢]. ولا تتوفر معلومات كثيرة عن تفاصيل سفره أو لقاءاته بسبب عدم حصول المؤلف على وثائق الحكومة الهندية، إلا أن من الممكن التفكير في هذا السؤال وهو: ما هي الأولوية التي كانت قد أدت إلى أن تركز الحكومة البريطانية في تلك المرحلة التاريخية، حيث كان منافس مثل فرنسا قد خرج من الساحة، اهتمامها على التطورات الداخلية في منطقة نجد والحجاز؟

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00094-03838-00001. خلافاً للتواريخ العامة الأوروبية اعتبرت الضربات الموجهة إلى جيش نابليون بعد العودة من مكة، على أثر إقدامات القوة البحرية البريطانية في الغالب، فإن بإمكاننا أن نستنبط من هذا التقرير أن القوة البحرية البريطانية، عمدت إلى مطاردة الفرنسيين بغطاء دفاعي من العمليات البرية لحكام الدولة العثمانية المحليين.

٢ جيرالد دي غوري، ص ٢١٦.

ويجب القول إن تطورات أوروبا في تلك المرحلة ، كانت تدل على انهيار الترتيبات الأمنية في أوروبا البرّية[١] وكان احتمال الاعتداء المشترك للقوتين الروسية والفرنسية على هذه المنطقة قائماً. كما أن هنالك تقارير تؤيد سعي فرنسا لتشكيل تحالف مشترك مع الدولة العثمانية وإيران في مواجهة السياسة البريطانية[٢]. وفي حالة حدوث مثل هذا الوضع، فإن خشية التعاون بين قطبي السلطة الحديثي الظهور المذكورين في تقسيم أوروبا ثم اتجاههما إلى توسيع المناطق التي يسيطران عليها نحو المناطق الجنوبية أي إيران والدولة العثمانية، كان من شأنها أن تكون تهديداً مؤثراً لمصالح بريطانيا في هذه المنطقة والممرات المائية المؤدية إلى مستعمرات الهند. وبناء على ذلك، فإن إيجاد «حزام أمني» للسيطرة على مسيرة النزعة التوسعية الاحتمالية لهذين البلدين، كان من شأنه أن يعتبر حلاً ملفتاً للنظر. خاصة وإن أمير نجد كان قد وضع فرنسا في طبقة «الكفار» وذلك خلال سنوات ليست بالبعيدة، وفي الاختيار بين بريطانيا وفرنسا وكانت إمكانية التعاون مع الممثلين السياسيين التجاريين لبريطانيا متوفرة أكثر له لـ«أسباب مختلفة». كما كان شريف مكة واستمراراً في سياسة الباب العالي الذي كان يعتبر مهاجمي مصر جبهته المعادية، قد اعتبر «حضرة الكابتن باشا والبحارة الإنجليز» مناسبين للتعاون، وذلك في الاختيار بين قوات «الإفرنجة» أو الفرنسية المتبقين عن جيش نابليون وبين القوات البحرية البريطانية.

وبناء على ذلك، فإن بالإمكان أن نخمن في ظل مثل هذا الوضع، أن بريطانيا وضعت مهمة الميرزا محمدي خان والنقيب السير جان ملكم[٣] الذي توجه إلى

---

١. أوروبا البرية هي المنطقة الشرقية من أوروبا.

٢. عبد الرضا هوشنگ مهدي، تاريخ روابط خارجي ايران، طهران. امير كبير ١٣٨٤، ص ٢١١.

٣. رغم أن تقرير سفره تم نشره، إلا أننا لا نلاحظ فيه أية إشارة إلى أهداف المهمة وشرح مفاوضاته

←

الخليج الفارسي في مهمة مشابهة وذلك من أجل معرفة ملموسة أكثر لشريك يستحق الاهتمام للتحالف معه في مواجهة فرنسا، وربما توجيه الاتجاه العسكري السياسي لهاتين القوتين المتعارضتين نحو أهداف جديدة.

وهذا التحليل يسترعي الاهتمام، نظراً إلى السياسة المشابهة للحكومة الهندية، في إرسال محمد علي خان بهادر جنگ إلى بلاط حكومة فتح علي الملك القاجاري قبل مهمة الميرزا محمد خان بسنة ونيف[١]. وكما أذعن المؤرخون الإيرانيون ، فقد استطاع بهادر جنگ في تلك المهمة أن يحول اتجاه انطلاق قوة إيران العسكرية من كابل[٢] كما استطاع النقيب ملكم أن يشكل بين البلدين تحالفاً أمام فرنسا.

وهنالك ما يكفي من الوثائق الدامغة التي تثبت أن الحكومة البريطانية كانت آنذاك عازمة على أن تستغل أية إمكانية ممكنة للحيلولة دون تواجد فرنسا السياسي العسكري في جزر الخليج الفارسي وسواحله. ويمثل النص التالي الفصل الخامس من المعاهدة السياسية المنعقدة بين الدولتين الإيرانية والبريطانية في كانون الثاني ١٨٠١م/ ذي القعدة ١٢١٥هـ:

«حينما ينبري العسكريون الفرنسيون من باب الحيلة للاستقرار في إحدى الجزائر، أو السواحل الإيرانية، سوف تقوم القوى المشتركة للدولتين المتحالفتين

← مع الحكومة القاجارية . فليم هالينغبري، روزنامه سفر هيئت سرجان ملكم به دربار ايران، ترجمة أمير هوشنگ أميني، طهران، كتابسرا، ١٣٦٣.

١. جاء إلى طهران بالكثير من التحف والهدايا لتقديم التهاني بمناسبة تتويج فتح علي شاه. انظر: محمد حسين خان اعتماد السلطنة، تاريخ منتظم ناصري، طهران، دنياي كتاب، ١٣٦٧، ذيل وقائع سنة، ١٢١٤هـ.

٢. محمد حسن خان اعتماد السلطنة، :صدر التواريخ، بتحقيق محمد مشيري، طهران، روزبهان، ١٣٥٧، ص ٢٣.

بإخراجهم وستقلع جذور هذه الخباثة... وكلما طلب أحد عظماء دولة فرنسا الاستقرار أو الإقامة في جزء من الجزائر أو الأراضي الإيرانية ويصر على أن يستقر فيها، فإن الحكومة الملكية سوف لا توافق على مثل هذا الطلب»[١].

وبناء على المعلومات المذكورة، يمكن الحدس بأنه ينبغي أن تكون سياسة بريطانيا في المنطقة الجنوبية من الخليج الفارسي متناسبة ومتناسقة مع النصف الآخر يعني إيران أيضاً. وعلى هذا الأساس، فإن أهمية الإمارة التي تدعى «التفاهم السعودي الوهابي» في نجد والتي تم قبولها أخيراً على شكل «دوفاكتو» من قبل الباب العالي قياساً بالسنوات السابقة، حيث إن الحكومة البريطانية كانت تكتفي بـ«تبادل الهدايا» معها بطبيعة الحال «بدلائل مختلفة»[٢]، قد ارتقت ارتقاء ملحوظاً والشاهد المهم الآخر على صحة هذا الظن هو التعاون بين بريطانيا والدولة العثمانية بشأن أمن وتجارة الخليج الفارسي والذي انتهى بإعادة العلاقات بين الجانبين وافتتاح القنصلية في البصرة من جديد وكذلك أمر الباب العالي إلى شريف مكة للتعاون الكامل مع بريطانيا[٣].

وبهذه الصورة للسياسة الإقليمية لبريطانيا، والتي تدل على مبادرة متوازنة ومتزامنة وكذلك نظراً لسلوكيات وهابيي نجد تزامناً مع سفارة الميرزا محمدي خان، يمكن أن نستنتج بأن ما كان بشأن إيران في أولوية السياسة البريطانية مثل إرجاع إيران من العمليات العسكرية في كابل والتعاون المشترك في الخليج الفارسي، يمكن أن تتسرى في مهمة الشخص المذكور في نجد أيضاً.

---

١. مجموعة عهدنامه هاي تاريخي ايران؛ تجميع وحيد مازنداني، طهران، وزارة الخارجية، ١٣٧٥، ص ٩١.

٢. للاطلاع على الموضوع، أنظر: شرح أحداث سنة ١١٩٩هـ الموجود في هذا النص؛ جونز، ص ٢٩٦.

٣. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00094-03838-E-00001.

إن أكثر العبارات صراحة والتي تدل على سياسة بريطانيا في هذه الفترة الزمنية هو جدول الأعمال الذي وجهه جورج كانينغ وزير الخارجية البريطانية إلى السفير المرسل من طرف تلك الدولة إلى بلاط إيران:

«إذا لم يحالفك التوفيق في مهمتك [في إيجاد العلاقات مع إيران] فمن الأصلح إن أمكن أن تقيم علاقات صداقة باسم الحكومة الهندية مع رؤساء الوهابيين ولأن اعتداءات وأعمال أفراد هذه الطائفة تتعارض مع مصالح باشا بغداد ودولت إيران، فينبغي أن تتم هذه العلاقات بمنتهى المهارة، خصوصاً إذا ما تواجد الأمل لتضمين مصالح بريطانيا العظمى من قبل الدولتين، أو إحداهما»[١].

ويمكن أن ندرك من هذا النموذج بأن الحكومة البريطانية في هذه الفترة التاريخية لم تتجه إلى نفس السياسة المبتدعة لقسم من رجال الدولة العثمانية أي إيجاد الأزمة الوهابية الشيعية فحسب، بل إنها كانت قد أدركت بأن نجد يمكن لها أن تكون ثقلاً مؤثراً في الاتجاه السياسي للدولتين العثمانية وإيران بالنسبة للأهداف والمصالح الإقليمية لإنجلترا. وفي الحقيقة فإن مثل هذا الفهم ينبغي في الدرجة الأولى أن يؤدي إلى التفات لندن لمنطقة نجد الجافة والجرداء وكذلك عقيدة الوهابية.

ومنذ هذا الزمن، فإن مسيرة العمليات العسكرية للوهابيين التي كانت قبل ذلك تستهدف تحرير الحجاز والحرمين، أصبحت تستهدف المراكز المذهبية في العراق. ومن جهة أخرى، فإن دعم عنيزة، أي قبيلة آل سعود الأصلية لعتوب في أحداث البحرين وكذلك التغييرات الداخلية وعصيان أخي إمام مسقط الذي أصبح

---

١. علي اكبر بينا، تاريخ روابط سياسي وديبلماسي إيران با إنكلستان أز أواخر قرن هفتم هـ ق تا انعقاد معاهدة باريس رجب ١٣٧٣، طهران، مؤسسة علوم سياسي وامور حزبي، ، ١٣٥٢، ص ٩٠.

وهابياً[١] كانت تدل على دخول الوهابيين المباشر في التركيبة الأمنية لسواحل الخليج الفارسي الجنوبية. ونظراً للسياسة الإقليمية لبريطانيا والتي تم الحديث عنها، يبدو أن المملكة البريطانية رحّبت بهذا التدخل مقيداً ببعض الملاحظات.

كارثة كربلاء

كانت عمليات كربلاء بقيادة سعود سنة ١٢١٦هـ / ١٨٠١م، تمثل ذروة التواجد العسكري للوهابيين في العتبات المقدسة بالعراق. وقد كان لعدم انتباه المسؤولين في الحكومة السعودية للاحتمالات ونظرتهم الساذجة اتجاهها، وعدم اطلاعهم العميق على نيات أمرا نجد الوهابيين ، وربما نهجهم الخاطئ في تبديل الأزمة الوهابية العثمانية إلى الأزمة الوهابية الشيعية، دور في بروز هذه الكارثة. وطبعاً ينبغي ألاّ ننسى العوامل الخارجية، مثل الاستشارات الرسمية للحكومة البريطانية مع أمراء نجد السعوديين والتفاهمات المنعقدة فيما بينهم أيضاً. وفي الحقيقة، فإن

---

١. ابن بشر، ص ٢٥٨. لقد التف في هذا التمرد جمع من العناصر الوهابيين حول أخي الإمام: «اختاروا مسلكه [محمد بن عبدالوهاب] وتمردوا على سلطانهم وأصبح أخي السلطان الذي أدعى السلطنة وهابياً ولقب بإمام المسلمين، وبناء على هذا، فإن السلطان لا يمتلك شيئاً سوى السور والمدينة وحوالي مسقط وإن سعوداً الذي يعلم بأن نهاية الأمور تتم تلقائياً، فإنه لا يهجم عليها» إنظر: أبو طالب خان، صص ٤١١ـ٤١٢. وإثر هذا التمرد، فقد طلب إمام مسقط العون من إيران وأخيراً فق أنهت القوات الإيرانية هذه الغائلة. وبناء لإشارات المصادر السعودية، فإن عمل إمام مسقط هذا، ووجه بردود فعل القوات الوهابية وانتهى بموت ١٠٠٠ جندي من القوات العمانية. انظر: صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٧٤، للاطلاع على أخبار إخراج الوهابيين من مسقط، انظر:

Winder R.B. Saudi Arabia in the 19th Century, New York, 1965.pp.92-93.

كما ورد أصل خبر المطالبة بالعون في هذه المصادر:

sSalil-ibn-Razik, History of the Imanas and Seyyids of Oman, London, 1871, 248-250.

عبدالعزيز وابنه وبعد أن قبلت الحكومة العثمانية إمارتهم بشكل تلويحي، كانا يريان أنفسهما حكومة يبعث إليها سفير للتشاور معها من قبل حكومة مثل الحكومة البريطانية، ومنذ ذلك الحين كانا يجعلان أنفسهما في موضع قوة تكون أحد أطراف الحوار.

وجاء في بعض المصادر الحديث عن تباني الحاكم المتعصب لمدينة كربلاء، عمر آغا مع الوهابيين: يبدو أنه كان قد دعم «البعض منهم» الذين «كانوا قد دخلوا المدينة من قبل ملبسين بملابس نسائية»[١].

ففي صبيحة يوم عيد الغدير، ١٨ ذي الحجة ١٢١٦هـ/١٨٠١م وحينما كان الأهالي قد تركوا مدينة كربلاء للقيام بتقليد البيعة مع أمير المؤمنين عليه السلام متوجهين تلقاء النجف للزيارة، دخلت القوات الوهابية تحت إمرة سعود بحوالي ١٢ ألف نفر[٢].

واستناداً لأغلب المصادر، فإنهم ذبحوا ما يقارب من ٥ آلاف نفر من سكان المدينة، الزائرين وجمع من الأتباع الإيرانيين وهم يهتفون «أقتلوا المشركين» و«إذبحوا الكافرين»[٣] والروايات بشأن عدد المهاجمين والمقتولين مختلفة:

«لقد خمّن المصدر الإيراني عدد المهاجمين ٢٥ إلى ٢٠٠ ألف نفر»[٤]. «وقد قلّل المؤرخون الوهابيون عدد شهداء هذه الحادثة إلى ١٠٠٠ نفر»[٥].

---

١. الميرزا أبو طالب خان، ص ٤٠٩.

٢. لقد اعتبر مؤرخ آخر من العهد القاجاري عدد القوات التي كانت تحت إمرأته عشرة آلاف نفر. انظر: محمود ميرزا قاجار، تاريخ صاحبقراني، بتحقيق نادره جلالي، طهران، مكتبة، متحف ومركز الوثائق في مجلس الشورى الإسلامي، ١٣٨٩، ص ١٤٤.

٣. الميرزا أبو طالب خان، ص ٤٠٩.

٤. ذكر أبوطالب خان، عدد هذا الجيش ٢٥/٠٠٠ نفر (الميرزا أبو طالب خان، ص ٤٠٨. وتحدث البعض عن أن عدد القوات التي كانت تحت إمرة الوهابيين يعادلون ٢ لك (٢٠٠/٠٠٠ مقاتل). انظر: آقا أحمد بن محمد علي بهبهاني، ج ١، ص ١٥٩.

٥. ابن بشر، ص ٢٥٨.

«وعلى أي حال، حتى إن المصادر التاريخية للوهابيين أيدوا هذه الحقيقة وهي أن المقتولين لم يكونوا مسلحين في هذه الواقعة وأن أغلب أهالي المدينة قتلوا في الأسواق والبيوت بأبشع وضع ممكن»[١].

وبعد هذه المجزرة الواسعة، فقد بدأت القوات الوهابية بالهجوم على حرم الإمام الحسين عليه السلام واستناداً لتقرير المسؤولين الدبلوماسيين الروس، فإن المنائر والقبب قد هدمت[٢]. حطم المهاجمون أبواب الصحن ثم دخلوا الرواق والروضة. سرقوا الآجرات الذهبية من القبة؛ فكسروا الضريح والصنوق المقدس الموجود فوق تربته ونهبوا كل ما وعثروا عليه فيه من ذهب وفضة وأشياء ثمينة[٣]. وقد

---

١. كمثال على ذلك «... وقتلوا غالب أهلها في الأسواق والبيوت وهدموا القبة الموضوعة بزعم من اعتقد فيها على قبر الحسين...» انظر: ابن بشر، ص ٢٥٧. «... وقتلوا أكثر اهلها في الأسواق والبيوت وخرجوا منها قرب الظهر ومعهم أموال كثيرة»، أنظر: صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٧٣.

٢. أرشيف السياسة الخارجية الروسية الديوان ١٨٠٣، الملف ٢٢٣٥، صص ٣٨ ـ ٤٠ استناداً لرواية واستيليف، ص ١٧، وكذلك لمطابقة رواية هذه الحادثة مع المصادر الغربية، انظر:

J.I.Burchardt, Notes on the Bedouins & Wahabys CollectedDuring His Travels in the East, London 1831. vol.2.p.186.

f.Mengin, Histoire de l Egypte sous le Governemet de Mohammad Aly. Paris 1823, vol.2.pp. 424-522.

j.raymond, les Wahabys Document Indeit de 1906. Caire 1925.p.16.

J.Rousseau. Description du Pachalik de Bogdad Suivic d une Notice Histtorique sur les Wahabis, Paris, 1899. pp.72-75.

يؤكد روسو القنصل الفرنسي في بغداد بأنه يروي تقريره لهذه الحادثة استناداً لإدلاءات السفير الروسي. وإنه نفسه يروي هذه الأخبار مباشرة من شهود عيان كانوا متواجدين في كربلاء.

٣. استناداً لرواية علي قلي ميرزا اعتضاد السلطنة في إكسير التواريخ: «.. حطموا الضريح الذهبي لحضرته بظلم، وقيدوا الأيدي، هشمو الأرجل. سلوا السيوف، قطعوا الرؤوس وشقوا الصدور.. وموجز الكلام، فإن الوهابيين قتلوا في تلك العتبة المحروسة بالملائكة مايقارب من خمسة

←

وصف أحد السياح الإيرانيين الذي زار كربلاء بعد سنين، هذه المدينة بأنها «فقيرة ومنهوبة»[١].

كما وصف الغربيون والسياح الذين كانوا يمرون بهذه المدينة بعد هذه الحادثة، الأبعاد الرهيبة لهذه الحملة. ولعل أن تكون هذه الحادثة من حيث عدد القتلى من الأهالي العزل عديمة النظير في تاريخ حركة الوهابيين: لقد قطعت رؤوس سكان مدينة خلال عدة ساعات.

لقد تم تسجيل حادثة عيد الغدير سنة ١٢١٦هـ / ١٨٠١م في كربلاء بوصفها المصداق البارز «للإبادة الجماعية» في تاريخ الوهابية[٢]. فإن كان قسم من

← آلاف من العلماء والعرفاء والزوّار وسائر الناس» (علي قلي ميرزا اعتضاد السلطنة، اكسير التواريخ، بتحقيق جمشيد كيانفر، طهران، ويسمن، ١٣٧٠، ص ١٠٠) وإن القوات الوهابية لابن سعود، فضلاً عن هذه الجنايات الوحشية التي اقترفوها بحق الأهالي وزوار كربلاء الشيعة ونهب الخزائن والنفائس المهداة والموقوفة التي تم جمعها طوال سنين، فإنهم قاموا بنهب المجاميع الثمينة جداً للمخطوطات والمصاحف الشريفة الموجودة في الروضة الحسينية أيضاً. وأستناداً لما كتبه سلمان هادي طعمة، لقد تلفت ٢٧٢ مخطوطة نفيسة ومن بينها قرآن منسوب لحضرة الإمام السجاد عليه السلام كان مكتوباً بالخط الكوفي القديم على جلد غزال (سلمان هادي طعمه، تراث كربلا، بيروت، الأعلمي ١٤٠٣، ص ٣٢٩) أما ناصر الدين شاه الذي ذهب لزيارة العتبات سنة ١٢٨٧ هـ فقد ذكر قرآناً منسوباً لحضرة زين العابدين عليه السلام وكان قدر رآه بعينه (ناصر الدين شاه قاجار، سفرنامه، طهران، مكتبة سنايي، ١٣٦٤، ص ١٤٢) وفضلاً عن متون ومخطوطات الروضة الحسينية، فإن المتون والمخطوطات التي كانت موجودة في مكتبة العلامة الميرزا محمد مهدي الشهرستاني في محلة آل عيسى قد نهبت على أيدي قوات ابن سعود (سلمان هادي طعمة، صص ٣٢١_٣٢٢).

١. الميرزا أبو طالب خان، ص ٤٠٧.

٢. على الرغم من وجود الآليات والأساليب الدولية في العصر الحديث وبعد مضي السنين، فإن دولتي إيران والعراق الشيعيتين الذين ذبح أتباعهم في هذه الحادثة، لم يقوموا بأي بادرة لطرح الموضوع وتسجيله بوصفه مصداقاً عينياً للإبادة الجماعية التاريخية وجريمة ضد الإنسانية لدى ←

المسؤولين العثمانيين ووالي بغداد يرغبون حقيقة بتبديل الأزمة الوهابية العثمانية بالأزمة الوهابية الشيعية، فيمكن القول بأنهم حققوا هدفهم في حادثة كربلاء.

وعقب هذه الحادثة، تشتت الدولة العثمانية بوصفها المسؤول الرئيس. وقد كانت هناك وجهتا نظر مختلفتان أمام أعمال سعود بن عبدالعزيز: «قال البعض، إنه وبسب الإهانة التي وجهها المذكور لحرم الإمام الحسين عليه السلام فلم تبقى شائبة على بغيه وطغيانه، ونتيجة لذلك، ينبغي أن يعين ويرسل لقمعه عدد من المأمورين بقدر كاف وقد طرح البعض الآخر أنه وبسبب صعوبة الطريق فلا يمكن قمعه عسكرياً ، لذا ينبغي الاكتفاء في المحافظة على الحرمين الشريفين»[1]. حتى إن السلطان نفسه كان حائراً وكان يعتبر نظم الأمور قد تلاشى وكان يعد مثل هذه الأوضاع سبباً يوسوس للقيام بالأعمال التالية[2]. وطبعاً فإن الجهاز السياسي للصدارة العظمى وبعد دركه للأبعاد الفضيعة لحادثة كربلاء، اعترف أيضاً: «إذا ما حصل الشقي المذكور على فرصة، فإنه سيستمر بالتعدي والتعرض على حدود المملكة العربية السعودية ومن البديهي والمبرهن أن تراوده أفكار فاسدة للاستيلاء على كافة تلك الأطراف حتى الشام وحلب[3].

وقد قررت الحكومة الإيرانية نظراً للأخبار المدهشة الواصلة من كربلاء بإرسال سفير لدى الدولة العثمانية. وقد أبلغ إسماعيل بك بيات رسالة فتح علي

← المجتمعات الدولية في حين أن بعض الدول تبذل قصارى جهدها في تسجيل ومتابعة الحوادث المشابهة كمجزرة الأرمن والحمر في الكمبوج وكارثة سربرنيتسا، دارفور وما إلى ذلك.

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00093-03793-00001.

٢. يؤيد توشيحه لتقرير الصدر الأعظم، هذا النظر: «يا وزيري! في مثل هذه البرهة الزمنية، حيث ظلت المدينة بلا محافظ وجدة بدون وال وإن الأوضاع في بغداد كما ترى، فكل ذلك يبعث للوساوس». المصدر السابق، ن. ص.

٣. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00093-03793-00001.

شاه إلى سليمان باشا كما يلي:

«إن لا تتضايق الدولة العثمانية، إننا نرسل جيشاً لصد عبدالعزيز وإلا فينبغي ألاّ تمنعوا من هلاكه ودماره قبل أن تستّب أموره»[١].

رغم أنه لم يتم العثور على سابقة لمتن رسالة ملك إيران في أرشيف وزارة الخارجية في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، إلاّ أن جواب رسالة ملك إيران الموجود في أرشيف رئاسة الوزراء التركية"»[٢] وفحوى حديث والي بغداد وكذلك بعض المعلومات المتفرقة الأخرى ، يمكن بالحدس والتخمين التعرف على محتوى رسالة فتح علي شاه»[٣]. وطبعاً فقد أشارت بعض المصادر الفارسية إلى رؤوس نظرات دولة إيران أيضاً[٤]. بناء لتصريح المصادر الفارسية، فإن الدولة الإيرانية حاولت ألاّ يستنبط رجال الدولة العثمانية من هذه الرسالة استنباطاً سيئاً:

١. الميرزا أبو طالب خان، ص ١١٩.

٢. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT.1315/51272A/1217R18, HAT.1315/51272Z29.

٣. لقد قررت الدولة العثمانية أن تتهيء أسباب قمع مواد فساد تلك الطائفة اللئيمة من كل جانب عن قريب وسوف لا يبقى أثر لهم في صفحة الدهر ولا حاجة المزاحة الجيش الإيراني لهذا العمل الجزئي (دتبلي، ص ٧٨) عن أصل الجواب، أنظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-1315-51272A-18R1217-1, HAT-1315-51272-29Z1217-1.

٤. إن رواية مآثر سلطانية هي كالآتي: «من منطلق تدخل الجيش الإيراني في المملكة العثمانية فإن لم يراود خواطر أولياء تلك الدولة العلية العالية بعض الهواجس البعيدة عن الطريق، يجب القول بأنه ينبغي مساعدة حضرت باري لصد مادة فساد الطائفة الوهابية ، لا زالت أمورهم لم تستتب والقضاء عليهم بسهولة (عبدالرزاق دنبلي، مآثر سلطانية، تحقيق فيروز منصوري، طهران، معلومات ١٣٨٢، ص ٧٨ وأيضاً اعتضاد السلطنة، ص ١٠٠) وبناء على المصادر الفارسية فإن رسالة شاه إيران كانت تتضمن اعتراض دولة إيران الشديد إلى المسؤولين العثمانيين، انظر: محمد أعظم بني عباسيان بستكي، تاريخ جهانكيرية وبني عباسيان بستك، تحقيق عباس أنجم روز، بهمن، ١٣٣٩، ص ٢٠٦.

"من منطلق تدخل الجيش الإيراني في المملكة العثمانية، فإن لم يراود خواطر أولياء تلك الدولة العلية العالية بعض الهواجس البعيدة"، ثم تدخل الدولة الإيرانية وطبعاً وعلى أي حال، فإن رسالة فتح علي شاه كانت تتضمن في داخلها الاعتراض الشديد للدولة الإيرانية إلى المسؤولين العثمانيين. ويبدو أن سليمان باشا. امتنع متعمداً من إيصال متن رسالة دولة إيران: رغم أن فتح علي شاه كان قد أكد على أن اجتياز الجيش الإيراني اتجاه نجد كان قد تم لقمع الوهابيين ومن أجل الانتقام لدماء الأتباع الإيرانيين وشهداء شيعة كربلاء وإنها لا تشكل انتهاكاً للسيادة العثمانية وحكمها الوطني، إلاّ أنه يبلغ الرسالة متضمنة تفسيراً محابياً وبشكل آخر إلى الباب العالي:

«ينبغي أن يتعهد المشار إليه بقلع جذور مفسدة المعاندين المذكورين أو أن يسعى بإعداد عتاد الجيش الإيراني الذي سيتوجب دخولهم[1]. وقد انبرى سليمان باشا ودون أن يتشاور مع الباب العالي بتنظيم إيصال الجواب لفتح علي شاه: «سوف لا تكون حاجة لأن يتحمل الجيش الإيراني الزحمة لهذا العمل البسيط..»[2]. وحسب رأي السفير البريطاني فإن سليمان باشا في هذه الأثناء «استغل كل السبل الممكنة والتي كان بمقدوره أن يسلكها كي يوقع الخلاف بين البلاطين ويشعل نار الغضب بينهما»[3]. وقد أدى استبداد سليمان باشا في رأيه بإرسال سفير إلى البلاط العثماني، إلى أن تقرر الدولة العثمانية بعزله[4]، إلا أن هذا

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-01315-51272-A-00001.
أيضاً الميرزا فضل الله خاوري شيرازي، تاريخ ذو القرنين، تق: ناصر أفشار فر، طهران، مكتبة، متحف ومركز الوثائق في مجلس الشورى الإسلامي ١٣٨٠، ج١، ص ٢٤٦.

٢. الدنبلي، ص ٧٨.

٣. جونز ص ٣٠٥.

٤. Zekeriyya Kursun, Necit ve Ahsa da Osmanli Hakimiyeti, TTK 2000,p.33.

القرار لم يتحقق بفوت سليمان باشا[١] وتولى كدخدا علي باشا لمقاليد الأمور.

واستناداً للأسناد الرسمية للدولة العثمانية ، فإن اعطاء مسؤولية الأمور لكدخدا علي باشا، صهر سليمان باشا والذي أثبت عدم كفائته في الهجوم على الأحساء، ومن الصدفة أن روايتنا بشأن عدم كفائته كانت تستند إلى تقرير السفير البريطاني في بغداد قد تم بطلب السفير البريطاني في الباب العالي فحسب[٢].

وقد قررت الدولة العثمانية في هذه الأثناء أن توجه سفيراً إلى طهران، ولكن وحسب رأي الصدر الأعظم «ومنذ الفترات الماضية وحتى الآن، فإن الذين يدعون الملوكية في إيران لم يكونوا ملوكاً مستقلين ومستبدين ومن ذرية الملوك ، فكل واحد من قوانين الولايات والممالك الواقعة في إيران يتفوق ويتغلب على الآخرين يطلق على نفسه عنوان الملك وإن بابا خان الذي يتصدى منصب الملك بعد وفاة آقاخان كما قيل لم يكن من ذرية الملوك وبلغ مثل هذا المقام بسبب تفوقه على الآخرين وإذا ما تم تحرير الألقاب التي كانت تدرج في رسالة الملك المقرونة بالأبهة الملكية مخاطباً فيها ملوك إيران الحقيقيين في مخاطبتك إيّاه فإنه سينبعث إلى هذا التصور بأن سلطنته تأيدت من قبل الدولة العلية وهذا ما يوجب للمحاذير . ومن جهة أخرى، من الواضح والبديهي إذا ما خوطب بدلاً من الألقاب الملوكية بوصفه خان الممالك التي تحت تصرفه وأن تطلق عليه ألقاباً بهذا لمستوى وفي حين أنه يتفرد ويدعي بالملوكية فإنه يخشى أن لا يقبل مثل هذه الرسالة»[٣]

وبناء على ذلك، فلم يتوجه سفير إلى طهران وتقرر على أساس العلاقات

---

١. ابن بشر، ص ٢٥٨؛ زامباوز، ج ٢، ص ٢٦٠.

٢. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: Hat-161-6709-29z1217-1.

٣. المصدر السابق، HAT-00093-03816-00001.

الشخصية بين الصدر الأعظم وسليمان خان أن يكتب الصدر الأعظم بدلاً من السفير «إلى الخان المذكور رسالة ويبحث في مضمونها في معرض التذكير بالألفة السابقة، توجهنا إلى مصر وعودتنا المظفرة والمنتصرة إلى إستانبول بحمد الله تعالى ، وتتهيء الأرضية إلى حدما في سياق السؤال عن الحال، واختيار أحد عبيد صاحب الجلالة البالغ للغاية في الدراية والمقتدر في التكلم باللغة الفارسية ويمكنه أن يقيّم بشكل مدروس أسلوب الخان المشار إليه وسلوكه وكلماته وحديثه، ويتحسس، نوايا ومرام العجم السيئي العاقبة، ويجب أن يكون هذا العبد من ذوي الرتب، ويعين حيث متعلقات العبودية من المراتب السفلى كما ستهيأ وترسل من جانب هذا الخادم بعض الهدايا، بما يناسب. ويجب أن يؤدي إرسال المأمور المذكور إلى تأكيد الصداقة والمصافة وتأييدهما بين الدولة العلية والإيرانيين وأن يهتم كما ينبغي ويدقق في التمهيد للعلاقات وفي استطلاع واستكشاف نوايا الإيرانيين ومرامهم. ورغم أن طائفة العجم [الإيرانيين] معروف عنها المفسدة إلى حد كبير ويسود الظن الآن أن يلتفتوا إلى الهدف الحقيقي من هذا الأمر، إلا أن من الواجب في الظروف الحالية ومن أجل الحيلولة دون أية حركة أن يتم التحقيق أولاً بخصوص نواياهم، ضمن المبادرة إلى مثل هذه التدابير ثم التحرك كما يقتضي الأمر»[1].

وفي الحقيقة، فإن الدولة العثمانية رغم أنها كانت قد أدركت من حادثة هجوم الوهابيين على كربلاء، أن السياسة السابقة لتلك الدولة حول الوهابيين، كانت عديمة الفائدة وحافلة بالأخطاء، إلا أنها لم تكن تتمتع بالقدرة الكافية لتصحيح الخطأ وكذلك الوصول إلى سياسة واحدة. كما ابتليت قرارات اجتماع البيت

---

١. أرشيف رئاسة الوزاء في الجمهورية التركية: HAT-00093-03816-00001.

الساحلي للصدر الأعظم بمصير قرارات الاجتماع التشاوري لشيخ الإسلام[١].

عمليات الحجاز

وقد هيأت هذه الحيرة وإقامة الاجتماعات العديمة الجدوى، الفرصة من كل جانب لتقوية الوهابية: فقد سقطت الطائف[٢] في ٢٥ شوال ١٢٦٧هـ؛ وهدمت قبة مزار عبد الله ابن عباس[٣]؛ وحوصرت المدينة من قبل القوات الوهابية التابعة لقبيلة بني حرب بزعامة بداي؛ وهاجمت قوات بداي حجاج قافلة المدينة. ورغم أن أمير الحاج في الدولة العثمانية عبدالله باشا قاوم مقابل هذا الهجوم وذهبت القافلة إلى مكة، إلا أن عدداً من الجنود المحافظين قتلوا.

ولم تسقط المدينة، إلا أن التقارير المرفوعة إلى الباب العالي، تفيد بأن الوهابيين «هدموا ركناً من مسجد سيدنا حمزة عليه السلام وحطموا ضريحه المنيف ونهبوا ثرياته وسجاده والأشياء النحاسية والستائر النفيسة كما هدموا الباب الشريف للسيد علي [العريضي] وحطموا تابوته الشريف وما إلى ذلك من جرائم لم يجرؤ حتى يزيد وفرعون على ارتكابها حيث أدت هذه الأعمال إلى إثارة الخوف والفزع بين الجميع. وفي شهر شوال حاصروا أطراف الطائف واحتلوها، وقتلوا معظم الأهالي، ونهبوا أموالهم وأشياءهم»[٤].

---

١. تم تقديم تقرير اجتماع البيت الساحلي للصدر الأعظم إلى السلطان، انظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00093-03793-B-00001 وقارن نتائج تقرير هذه الوثيقة بتقرير HAT-00093-03793-A-00001.

٢. للاطلاع على خبر وقوع هذه الحادثة وكيفية حدوثها، انظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00345-19693-B-00001.

٣. ارشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00093-03789-E-00001.

٤. المصدر السابق، HAT-00093-03789-00001.

وكان أحد الواقع خارج سور المدينة أكثر تعرضاً للضرر. ويروي والي المدينة قائلاً:

«هدم الجيش الوهابي المسجدالشريف لسيدنا حمزة سيد الشهداء عليه السلام عم طه المجتبى صلى الله عليه وآله من إحدى الجهات وحطموا تابوته المنيف وأحرقوه ونهبوا الثريات والسجاد والبسط الموجودة وكسوة القبر المنيف. كما أحرقوا المرقد الشريف لسيدنا علي العريضي ابن سيدنا جعفر الصادق عليه السلام الواقع قرب البلدة الطيبة وباب المقبرة وحطموا تابوته الشريف. ومن العجائب أن العديد من أمثال مسيلمة الكذاب ويزيد والفراعنة لم يفعلوا هذا النوع من الخبائث ولم يوجهوا مثل هذه الإهانة إلى القبور المنيفة لسادتنا الأنبياء والصحابة الكرام وأهل البيت الفخام بحيث أن هذه الفجائع هي من قبيل الأمور التي أدهشت الجميع»[١].

كما هاجم هذا الجيش مقبرة البقيع، وعلى حد ما ذكره شيخ حرم المدينة:

«فإنهم وجهوا أنواع الإهانات وأقسامها إلى مقامات الصحابة المنتجبين وخاصة عم رسول الله سيد الكونين (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين)، ومن البديهي جزماً ويقيناً، ظاهراً وباطناً، أنه يبذل السعي الوافر حسب عقله الفاسد في الدفاع عن الشرع الشريف بكل وجه من الوجوه»[٢].

وقد زلزل انعكاس أخبار منطقة الحجاز والسلوك الوحشي للوهابيين مع سكان كربلاء، الأركان الضعيفة لسياسة الدولة العثمانية أكثر فأكثر. وقد خرج عثمان بن عبدالرحمان المضايفي زوج أخت شريف مكة ووزير الجهاد الإداري لشرفاء مكة، من هذه المدينة والتحق بالقوات الوهابية[٣]. بل إن تقرير أحد السياح

---

١. المصدر السابق، تقرير والي المدينة HAT-00093-03789-A-00001

HAT-00093-03789-E-0001

٢. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-0093-03789-F-00001.

٣. صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٧٥.

الأتراك «أن الشريف عبدالمعين الذي كان قد استخلف أخاه على إمارة مكة، دب إليه الخوف في غيابه أمام القوات الوهابية، أرسل ثلاثة من وجوه أهالي مكة الشيخ محمد طاهر، السيد محمد أبو بكر الميرغني والسيد محمد العكاس عبدالحفيظ العجمي إلى عبد العزيز أمير نجد واسترحمه، وهكذا فقد أيد سعود قائمقامية عبدالمعين بعد دخول مكة إلا أنه أمره بهدم القبب»[١].

وأما ذلك القسم من الدولة العثمانية الذي كان قد سعى لأن يخلق الأزمة الوهابية الشيعية، فإنه كان قد وضع جهاز السلطنة أمام مشكلتين رئيستين: الأولى التألم الشديد للشعب الإيراني بسبب أحداث كربلاء التي كانت تتصاعد على أثر عدم اكتراث الدولة العثمانية[٢]. وإلى جانب هذا العامل، فإن ضغط الرأي العام على فتح علي شاه لإبداء رد فعل جاد إزاء القوات الوهابية، كان قد طرح هذا الاحتمال وهو أن تجتاز إيران الأراضي العثمانية وتتدخل لقمع الوهابيين. وقد أطلق السفير العثماني في هذا المجال التحذيرات اللازمة لحكومته وكان قد توقع بأن الشاه سوف يهاجم الوهابيين بعد العودة من خراسان. والشاهد على ادعائه، الصدور المتزامن لمرسومين من جانب الحكومة القاجارية لجمع القوات[٣]. وتزامناً مع هذه الأحداث، فقد بعث فتح علي شاه رسالة تهديد إلى عبدالعزيز في نجد: «إن لم ترجع الأموال المنهوبة إلى الأرض المقدسة [كربلاء] وامتنعت عن أداء دين القتلى، فإن سنابك خيل الفرسان سوف تذرو تراب الدرعية في فصل الشتاء حيث تنكسر سورة (حدة) حرارة الجو»[٤].

---

١. أيوب صبري باشا، مرآة الحرمين (رحلة مكة)، ترجمة عبدالرسول منشي، تحقيق: جمشيد كيانفر طهران، الميراث المكتوب، ١٣٨٢، صص ٨١ ـ ٨٠.

٢. موجاني، أسناد سطلاني، ج ٢، ص ٤٥٨.

٣. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-161-6706D-20R1217-1.

٤. أبو طالب خان، صص ١١٩ ـ ١١٨.

وكانت المشكلة الثانية غرور سعود بن عبد العزيز وانتشاءه بالهجوم على كربلاء، الحصول على الغنائم، وعدم تحرك الدولة العثمانية أمام جيش نجد، حيث هيأ ذلك أسباب الاعتداءات اللاحقة للوهابيين على الطائف والمدينة. ولم يكن الباب العالي يعلم كيف يجب أن يساعد جو انعدام الثقة القائم شرفاء مكة؟ خاصة وإن سعوداً كان قد أرسل قبل ذلك وثيقة مكتوبة إلى السلطان عن تبعية شريف مكة[1].

وفضلاً عن أن انضمام عبدالرحمان المضايفي، وزير جهاز شريف مكة إلى الوهابيين، كان ينبؤ بتضعضع أركان السلطنة واضطراب الأمور في مكة، فإن السياسة المزدوجة والانتهازية لوالي بغداد سليمان باشا أبو ليلة، إزاء قضايا نجد، كانت قد تسببت في عدم ثقة الباب العالي بخليفته[2].

كما لم تكن الدولة العثمانية تميل إلى دعم الوالي الجديد لبغداد، علي باشا ، الذي كان قد فشل مرتين في الهجوم على الأحساء. وسبب كل هذه الحالات، كان قد أوقع السلطان في الشك والتردد بشأن استخدام كل الوسائل والإمكانيات

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية : HAT-00160-066667-A-00001 كتب السلطان بخط يده في حاشية تقرير الصدر الأعظم، حول تعيين ممثل في جدة لإدارة مكة، قائلا: «كما عينت لجدة وزيراً صاحب تدبير باعتباره والياً، واهتممت من أجل دعمه بتخصيص مالا يقل عن ألف جندي والتجهيزات والعتاد الكامل، فما كان من الوالي المشار إليه إلا أن نظم جدة وجمركها وقطع اليد المتطاولة للشرفاء وعرب بين الحرمين وأعادهم إلى ربقة الطاعة طوعاً أو كرهاً وبذلك فقد بذل الدقة في مهمة حراسة مكة المكرمة أيضاً» انظر : أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية : HAT-00093-03793-A-00001.

٢. اعترف الصدر الأعظم في هذا المجال قائلا: «غضضنا النظر عن تدبير إرسال الجنود إلى جانب الحرمين آخذين بنظر الاعتبار صعوبة الطريق وخشية أن يؤدي هذا الأمر والعياذ بالله تعالى ازدياد تسلطه على حوالي الحرمين الشريفين». أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية : HAT-0093-03793-A-00001.

المتوفرة لحسم قضية «نجد والوهابية»[١]. وحتى في حالة صدور المراسيم اللازمة، فإن أوامر السلطان والصدارة كانت ترد بذكر المعاذير العديد. وعلى سبيل المثال، فقد تجاهل الأهالي في الشام مرسوم الباب العالي لتجهيز القوات وتأمين الجمال باعتبار ذلك من ضروريات إرسال الجيش إلى صحارى الجزيرة العربية؛ بل إن مسؤولي حكومة الشام، كانوا قد أبقوا الأمور معطلة[٢]. وقد اعترف الصدر الأعظم بأنه قد تم غض النظر عن إرسال الجنود إلى جانب الحرمين «بملاحظة صعوبة الطريق والخوف من أن هذا الأمر قد يؤدي والعياذ بالله تعالى إلى ازدياد تسلطه على حوالي الحرمين الشريفين»[٣]. وحتى اللجوء إلى الحجاج المغاربة الذين كان بإمكانهم أن يكونوا عاملاً مؤثراً في مواجهة الجيش الوهابي بسبب بنيتهم القوية وقدراتهم الفردية ونزعتهم الصوفية أيضاً، فإنه كان قد بقي دون نتيجة بسبب استنكافهم. وكان صوت «الأمان، الأمان» يبلغ المسامع من الحجاز[٤]، إلا أنه لم تكن

---

١. كان رجال الدولة العثمانية مطلعين على ضرورة تجهيز الأماكن المقدسة والمحافظة عليها، لكنهم لم يقفوا على النوايا الحقيقية للوهابيين نظراً لعبارة واحدة للصدر الأعظم، هو أمر لا يعتد به: «للمحافظة على الحجرة الشريفة المعطرة لسيدنا حضرة سيد الأنام والمقامات المطهرة والمباركة من شر ذلك الخبيث، نحتاج إلى مقادير كافية من الأجهزة العسكرية والإعدادات الحربية والجنود الغفيرة والمؤونة» انظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-0093-03789-00001.

٢. ذكر قاضي الشام في تقريره إلى الباب العالي، رد فعل وجوه الأهالي إزاء ممثلي السلطان الذين كانوا يريدون الذهاب إلى نجد، فقال: إن أهالي المدينة «أدوا مراسم الطاعة كرهاً، ثم قالوا لا توجد هنا جمال بالعدد الذي يكفي لنقلهم وحتى إذا وجدت فإنهم لا يثقون بالعرب». انظر في هذا الموضوع: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-0092-03762-00001.

٣. المصدر السابق HAT-00093-03793-A-0001.

٤. وصف شيخ حرم المدينة في رسالة إلى جهاز الخلافة الأوضاع قائلاً: «حضرة السيد ولي النعم، مراحم الشيم، أوفر الهمم، وفير الإحسان، عديم الامتنان! إن ما شهده هذا العبد الرافل في نعمكم

←

توجد في إستانبول ، القدرة على اتخاذ القرار وتنفيذ السياسة.

وتُظهر وثائق الدولة العثمانية أن شريف مكة سعى في هذه المرحلة لأن يهيء أرضية المقاومة إزاء الهجوم من خلال تأمين المصادر المالية وعقد الاجتماعات[١]، إلا أن إجراءه لم يتمخض عن نتيجة في ذلك أيضاً.

→ أنه ومن أجل المحافظة وتأمين أمن الروضة المطهرة لحضرة سيدنا، سيد الأنام، صاحب الشفاعات للخاص والعام، فخر العالم وسيد العالمين (صلى الله عليه وسلم) وحجرته الشريفة المعطرة والمقامات المباركة والمطهرة والبلدة الطيبة اللطيفة من شر مثل هذا العدو المبين، غير قابلة للعلاج وهنالك حاجة ماسة إلى التجهيزات الحربية والإمدادات القوية والعدد الوافي من الجنود والعتاد الكافي بكميات كبيرة. الأمان، الأمان، الأمان!» أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-0093-03789-F-00001.

١. اقترح الشريف في هذا المجال قائلاً: «الآن وقد اجتمعنا كلنا في مكان واحد فإن نويتم العودة دون حسم هذه الفقرة بحيث يؤدي ذلك إلى الثقة والاطمئنان، عبر التذرع بقلة المؤونة وكثرة الحجاج، فسوف يخلي كل أهل مكة المدينة وسوف لا يبقى أحد في مكانه. وفي مثل هذا الوضع سيكون من المتعين أن نعود نحن أيضاً معكم وحينئذ سوف لا يكتفي المتمرد الخبيث بالاستيلاء على مكة وجدة والمدينة، بل إنه سينهب الحجاج أيضاً. وفي مثل هذه الحالة، سيكون ترك مكة المكرمة بهدف أمن الحجاج عبثاً. وسوف أرسل الحجاج العاجزين ونساءهم وصبيانهم وخاصة شريحة المزارعين والرعاة والذين سيؤدي عدم وجودهم إلى القحط، من هنا إلى جدة ومن جدة إلى السويس بواسطة الزوارق. إلا أن أمراء الحجاج وجنودهم والحجاج غير القادرين على الحرب والضرب، يجب أن يبقوا في مكة. والحمد لله ولأن جدة في يدنا، وفي مجال المؤونة فإننا سوف لا نصل إلى درجة الهلاك بسبب فرط الجوع حتى إذا واجهنا الصعوبات. هذا هو رأيي. فإن تابعتم، فبها، وإلا فلا أنا ولا أهل مكة يمكننا أن نبقى هنا. وفضلاً عن ذلك، فإنني أتعهد بأن اقترض ما مجموع ألف اكيس من التجار وغيرهم لتأمين النفقات المهمة وأسلّم لكل واحد من أمراء الحجاج ألف كيس من النقود كما سأوؤمن الكمية الكافية من المؤنة، وأنهي جوابي ببيان هذا الموضوع» انظر تقرير ٩ من محرم ١٢١٨ هـ لوالي جدة إلى أمير البحر العثماني في البحر الأحمر، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-0095-03845-00001

وفي المقابل فقد كان هجوم سعود بن عبدالعزيز على مكة في سنة ١٢١٧هـ / ١٨٠٢م ناجحاً[١] فقد احتُلت المدينة وهدم مقام ولادة النبي (صلى الله عليه وسلم) والقبب الشريفة وقبة مقام الوحي وقبة التربة الشريفة لخديجة الكبرى (رضي الله عنها) وقبب سائر المقابر والمزارات ورفع كسوة مقام إبراهيم (عليه السلام)، وغيّر الصلوات التي كانت تقام على أساس المذاهب الأربعة، وعيّن الإمام الواحد على جماعاتهم وغير خطبة صلاة الجمعة ودعا علماء مكة إلى دينه الباطل ولم يتورع عن أنواع الأذى والجفاء. وبعد العودة من جدة، أبقى حوالي ثمانمائة من أراذل العرب كجنود في مكة المكرمة، وقد آذوا بدورهم أحاسيس الأمة المحمدية وباختصار فقد كنا كلنا أسرى بيد ذلك المتمرد»[٢].

وقد اقترن الهجوم على مكة وهدم الأماكن المقدسة، بغضب الطبيعة على أهالي نجد والحجاز: فقد عم الجفاف والقحط المنطقة لمدة سنتين[٣]. وبعد الاستيلاء على مكة، بعث سعود برسالة إلى السلطان سليم الثالث[٤]. وتزامناً مع أحداث نجد والحجاز، وجهت ضربة أخرى إلى الدولة العثمانية: طُرد من تلك

---

١. صلاح الدين المختار، ج١، ص ٧٦_٧٥ استناداً إلى تقرير شيخ حرم المدينة فإن «حجاج المسلمين انطلقوا إلى المدينة المنورة بعد العودة من عرفات إلى مكة المكرمة وبعد بضعة أيام من الإقامة ولم يكادوا يبتعدون منزلاً واحداً حتى هاجم المتمرد المذكور داخل مكة المكرمة بسرعة وبعدد كبير من الجنود والتجهيزات الواسعة، وأغلق أبواب بيت الله الحرام الذي هو مشهد رب العالمين وقبلة المؤمنين وتصرف وتحرك حسب ضميره، وأعلن عن نيته لإخضاع العرب كلهم في المناطق المختلفة». راجع في هذا المجال تقرير شيخ حرم المدينة إلى الباب العالي، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-0093-03789-F-00001

٢. راجع تقرير قاضي مكة المكرمة إلى مسؤولي الدولة العثمانية في إستانبول، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-0092-03784-H-00001.

٣. المصدر السابق أرشيف: HAT-0092-03781-00001.

٤. حسين خلف خزعل، ص ٢٧٨.

الديار خسروباشا حاكم مصر، والذي كان قد أرسل إلى مصر بعد إخراج القوات الفرنسية، على أثر تمرد المماليك في ذلك البلد[١]. كما كانت أخبار إيران تثير قلق السلطنة العثمانية:

«استولى الشاه على مشهد المقدسة وخراسان ولم يبق في إيران أحد من المخالفين والمعارضين. وهو ينوي في هذه السنة أيضاً ويعد العدة لأن ينطلق لزيارة العتبات العاليات مع عدد كبير من الجنود وسوف يسترد أموال حضرة سيد الشهداء عليه السلام»[٢].

وفي ظل هذه الظروف أرسل الأمير عبد العزيز رسالة إلى فتح علي شاه خشية احتمال تدخل إيران[٣] وأعلمه فيها أن أحد علماء نجد أرسل إلى بلاط إيران كي يُعْلِمِ الملك بـ«حقيقة الطريقة الوهابية»[٤]. ولم يصلنا نص هذه الرسالة، إلا أن فتح عليِ شاه أعرب عن استعداده لاستقبال ممثل علماء نجد ضمن إظهار شكه في أعمال الوهابية وأفكارها بل إنه طالب بالإسراع في إرسال الممثل. كما أشار ملك إيران في الرسالة المذكورة بشكل ضمني إلى دعم حسين علي ميرزا حاكم فارس

---

١. إن العبيد الأتراك والشراكسة الذين كانوا قد دخلوا في البدء باعتبارهم حراس القصر منذ عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب الأجواء السياسية في مصر وهيمنوا على أمور مصر لمدة ٢٧٥ سنة وكانوا قد أعلنوا تمردهم من جديد بعد عهد السلطان سليم الأول في ٩٢٣هـ. استغلوا في هذه الأثناء اضطراب الأوضاع، وأخرجوا حاكم الدولة العثمانية من القاهرة.

٢. التقرير السري لبوداق خان حاكم ساوجبلاغ إلى والي بغداد، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00163-06675-00001.

٣. كان تدخل إيران في هذا العهد استناداً لتقرير الوثائق البريطانية قد نظم في إطار دعم إمام مسقط فقط. للاطلاع على أصل التقرير أنظر:

Bombay Government Selections of the Records, vol.24, p:430

٤. ابن بشر، ج ١، ص ١٢٣.

لهم، في حالة ثبوت صدق ادعاءات وهابيي نجد[1].

ورغم أن قبول مواضيع رسالة الملك صعب نظراً إلى احتجاجات المجتمع الإيراني على إثر أحداث كربلاء، إلا أنه واستناداً إلى قرائن أخرى، فإن الحكومة الإيرانية كانت قد أجرت بعض التغييرات في هذه المرحلة في سياستها الخارجية فيما يتعلق بالمنطقة والنظام الدولي؛ بحيث أن مسؤولي الدولة العثمانية علموا أن أربعة ممثلين أرسلوا إلى بلاط إيران من جانب الحكومة الفرنسية[2]. وبعد فترة ليست بالطويلة، تأزمت العلاقات بين إيران وبريطانيا وامتنعت الحكومة الإيرانية

---

١. نص جواب ملك إيران: «تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. وبعد فقد اتانا منك كتاب مصدق لساناً عربياً تضوح منه عرف المعارف منتشراً ومطوياً. والعجب ثم العجب عنك دعوتنا إلى التوحيد ونفي التشريك عن الله الحميد المجيد ونحن بين يديه ومفطورون عليه، تحدث به قديماً وان هذا صراطي مستقيماً. نعم وجدوا أوليائنا كتابك دليلاً على أنك قد أخذت في هذا الطريق سبيلا إذا لا تخدوك خليلا ولا تجد لسنتنا تحويلا، والمؤمنون بعهضم أولياء بعض، وعز من قال: وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض. وقد ذكرتم أنكم ترسلون منكم إلينا لنطلع عليكم وتطلعوا على مالدينا، ليكون لكم مالنا وعليكم ما علينا، فارسلوا وعجلوا فيه فإنم المعروض على حضرتنا من مذهبكم غير ما تكتبون والناس من عندهم يقولون ويسمعون وإن يتبعون إلا الظن وان هم الا يخرصون، ثم استعجلوا حتى ينكشف من امركم الحجاب ويرفع الارتياب. وان كان الأمر كذا فهذا اتفاق المسلمين وكان حقا علينا نصر المؤمنين، نمدكم بأموال وبنين، وموقعين على شبل هزّ برّ الخلافة ومن له على سواحل العمان قدرة وشرافة: حسين علي ميرزا أن يعاملكم بالمودة سراً وجهراً ويمدكم بما تستمدونه براً وبحراً. فإن الله سخر لنا الامصار ودبر لنا البحار. وهو الذي يسيركم في البر والبحر انه على ما يشاء قدير. ونحمد الله على ما هدانا ونسلم على النبي البشير والنذير» انظر المقالة العلمية المهمة للأستاذ مدرسي طباطبائي، بررسي هاي تاريخي، السنة الحادية عشر، العدد ٤ (مهر و آبان ١٣٥٥)، صص ١١٣ ـ ١١٤.

٢. موجاني، وآخرون، أسناد سلطاني، ج ٢، ص ٤٦٧. لدراسة العلاقات الإيرانية والفرنسية طوال تلك السنين، أنظر: عبدالحسين نوايي، ايران وجهان، مؤسسة نشر هما، ١٣٦٩، ج ٢، صص ٩٥ ـ ١٦٧.

عن استقبال سفير بريطانيا[١].

وأصبحت رقعة شطرنج سياسة إيران الخارجية، موضع العملاء الفرنسيين مثل «غاردان خان» و«فابويه»[٢]. وتظهر المفاوضات بين جوبير، أحد السفراء الأوائل وعباس ميرزا نائب السلطنة في إيران حول قضايا الدولة العثمانية، أن الأمير الإيراني كان يعمل على جمع المعلومات عن القدرة العسكرية للدولة العثمانية[٣]. وربما لو أن الحروب الإيرانية الروسية لم تكن قد اندلعت، لكان من المحتمل جداً أن يلجأ رجال الحكم في إيران إلى الحل العسكري لمواجهة أحداث كربلاء. وبناء على ذلك، يجب اعتبار رسالة فتح علي شاه التي دار الحديث فيها عن حضور ممثل الوهابيين ودعم حاكم فارس لنجد، في إطار هذه السياسة نفسها.

اغتيال الأمير عبدالعزيز الأول

وقعت حادثة بسيطة في قلب نجد لتدق ناقوس الخطر للوهابيين عندما لم يكن هنالك أمل للسيطرة على الوضع: فقد قتل عبد العزيز الأول، في مسجد الطريف بالدرعية على يد رجل اسمه عثمان من أكراد منطقة العمادية قرب مدينة الموصل، عند صلاة العصر في اليوم الثامن عشر من شهر رجب ١٢١٨هـ/١٨٠٣م واستناداً إلى المصادر السعودية فقد كان القاتل من شيعيي كربلاء حيث دخل

---

١. زار ملكم بوشهر تنفيذاً لمرسوم الحكومة الهندية التابعة لبريطانيا، إلا أن الحكومة القاجارية عارضت استمرار سفره باتجاه طهران. وقد اكتفى مؤلف مآثر سلطانية في بيان هذه الحادثة بهذه العبارة: «لم ترغب الحكومة الإيرانية إلى إكمال سفارته» انظر: الدنبلي، ص ١٦٩.

٢. للاطلاع على مهمة ونتائج سفر الجنرال غاردان ضابط مدفعية الإمبراطورية الفرنسية والذي أرسل إلى إيران من جانب نابليون، انظر: الكونت دوغاردان، مأموريت زنرال كاردان در ايران، ترجمة عباس إقبال، طهران، نكاه، ١٣٦٢.

٣. محمد حسن خان اعتماد السلطنة، مرآة البلدان، ج ١، صص ٥٨٧ـ٥٩٢.

الدرعية في لباس درويش مهاجر لتعلم القرآن[١]؛ وحينئذ هاجم الأمير عبدالعزيز في خارج الدرعية وكان يتواجد في منطقة المشيرفة[٢]. وبعد عملية الاغتيال هذه بفترة قصيرة، كان موت بادي بن مضيان أحد أهم زعماء قبيلة بني حرب. وكان لتزامن هاتين الحادثتين. تأثير مباشر على الترتيبات الأمنية وتوازن القوى داخل نجد: فقد عاد سعود الذي كان على مشارف فتح المدينة وجدة والاستيلاء الكامل على شبه الجزيرة، إلى الدرعية. وبالطبع فإن علينا أن نأخذ بنظر الاعتبار أيضاً انتشار المرض بين الجيش الوهابي المحاصر لجدة في اتخاذ هذا القرار. وكانت نهاية محاصرة جدة وعودة قوات شريف مكة نحو هذه المدينة وتجريد الوهابيين من السلاح والاستيلاء على مدينة مكة، كل ذلك كان يمثل أولى علامات تغيير الموازنة بين القوى[٣]. ورغم أن الأجهزة الإدارية للباب العالي، قدرت القوات الوهابية آنذاك بحوالي ستين ألفاً[٤]، إلا أن اغتيال عبدالعزيز، ألقى الرعب والهلع في قلوب هذه القوات. وقد سعى والي بغداد كدخدا علي باشا بشكل انتهازي لأن يعتبر اغتيال عبدالعزيز الأول حصيلة درايته وتخطيطه:

«عندما ثارت الغيرة والديانة عند أحد الأشخاص المؤمنين المتدينين والمسلمين الناصرين للدولة من المقربين لهذا الحقير باسم الحاج عثمان، عند حدوث قضية مكة المكرمة (كرّمها الله الملك العلاء)، والتمع على ناصية حاله هكذا ورغب وأراد أن يمحي من أجل رضا الرب تعالى بكل نحو ممكن ويعدم مصدر الفساد، ومبدأ الشقاء والعناء، عبدالعزيز بن سعود صاحب البدعة وابنه سعود وأن يرفع كأس الجديدة من أجل استئصال هذه الشوكة المدمية للقلوب

---

١. صلاح الدين المختار، ج ١، صص ٧٩ ـ ٨٠.

٢. حسين خلف خزعل، ص ٣٨٨.

٣. أيوب صبري باشا، ص ٨١

٤. ابن بشر، ج ١، ص ١٢٣.

من شارع المؤمنين، كما وقد تم التحريص والتحريض من جانب هذا العبد، وأصبحت حوصلة جبلته مستعدة لقبول نوال الهداية وعزم عزماً أكيداً في هذه النية الباهرة، ولم يقبل رغم الاقتراح والإصرار على المكافأة العامة، واقتنع بنفقات الطريق بالمقدار الكافي، وخطى في جادة إفداء النفس وسارع صوب المقصود. وعندما وصل الحاج عثمان السعيد إلى الدرعية التي تضم سكاناً متجرين كالحمير، لم يظفر بسعود بن عبد العزيز رغم أنه سعى كل السعي من أجل تحقيق رأس مال الآمال، إلا أنه باغت عبدالعزيز عند صلاة العصر، وتمسك بحبل الله المتين وبالنص الكريم: «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله وليستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون» وجعل جسد ضلالة فطرة ذلك السندان من نار كبر الشر والنفاق وزعيم قافلة الفساد والشقاق مضرب خنجر الانتقام، فأعدمه كما ألحق بأخيه جرحاً مهلكاً وضرجه بالتراب والدم. وفي هذه الأثناء أذاب أنصار الشر والفساد، ذلك المؤمن الطاهر السريرة في بوتقة الشهادة وزينوا العليين بروحه المتألقة»[1].

وخلافاً لتقرير باشا بغداد، فإن هنالك وثيقة أخرى روت الحادثة للسلطان العثماني كالتالي:

«جاء إلى الدرعية شخص أعجمي في هيئة الأفاغنة، وطلب اللقاء بسعود بحجة أنه أتى له برسالة. ولم يتم لقاؤه مع سعود، ولكن عندما كان أبوه عبدالعزيز يقيم صلاة العصر، شارك هو أيضاً في هذه الصلاة وحينما هوى الجميع للسجود، ألقى الأعجمي المذكور بنفسه على عبدالعزيز، وقتله بالسكين التي كان قد صنعها

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00082-03381-00001.

خصيصاً لهذا الغرض، كما ضرب وجرح أخاه عبدالله ثم قُتل هو نفسه»[١].

واستغلت الدولة العثمانية الفرصة وقررت أن ترسل جيشاً إلى نجد وتحسم أمر الوهابيين. وسعى والي بغداد علي باشا أولاً وبالأعذار والذرائع أن يلقي بهذا الأمر في مسار آخر، ولذلك فقد كتب إلى السلطان قائلاً:

«هل سيتم الإقدام على الانطلاق في تنفيذ مهمة العبودية وإن لم يكن بالمقدور الانطلاق من هناك، فلتفكر الدولة العلية بحل آخر لهذه المصلحة»[٢].

وأجبرته ضغوط الدولة العثمانية أخيراً على أن يرسل جيشاً إلى نجد. وتهرب علي باشا، كما يذعن هو نفسه بذلك، من قبول مسؤولية قيادة الجيش وأرسل مجموعة من العشائر والجنود وجوّالي الصحراء للقتال:

«كنت قد أحطت جنابكم قبل ذلك علماً فإنه وإذا ما تيسر انطلاق هذا الحقير من بغداد من أجل إعداد تنفيذ المهمة الموكلة بخصوص قمع الوهابي صاحب البدع، فنعم المطلوب، وسوف أذهب دون توقف، وإذا ما لم يتيسر انطلاقنا بسبب عدم إمكانية إعداد الجنود الرماة والمستلزمات التي نحن بحاجة إليها، فإننا وبمصداق «لو لم يدرك كله لم يترك كله»، سوف لا نتراجع حتى النهاية. بحول الله تعالى، وسوف يتم ترتيب وإرسال صنائع الإعمال من جهة والأفواج المقاتلة من جهة أخرى، ضمن قمع المتمرد المذكور . ورغم أن إمكانية انطلاق هذا الحقير بنفسه لم يتيسر بسبب بعض الأعذار مثل صعوبة الطريق وعدم الإمكانية والتي سبقت الإشارة إليها، إلا أن مجموعة من عشائر العراق والجنود الرماة الخيالة ورعايا المناطق المركزية ومجموعة البحارة الراكبين على الجمال وهكذا الأفواج المقاتلة وكذلك تم تحميل الجمال المؤونة اللازمة وتم إرسالها في اليوم السابع

---

١. المصدر السابق: HAT-00082-03381-G-00001.

٢. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00094-03808-A-00001.

عشر من شهر شعبان نحو المقصد المعلوم».[١]

إمارة سعود الثاني على التفاهم السعودي ـ الوهابي

أدت المبادرة الاستباقية لسعود في الهجوم على البصرة[٢] بحجة الانتقام لأبيه ـ[٣]. وكما حدث في المرحلة السابقة إلى أن يغير جيش علي باشا المجتمع أهدافه ويتفرق في الصحراء لمطاردة القوات الوهابية. وهيأ اختلاق علي باشا للمعاذير وهدره للفرص أرضية خلاص الوهابيين مرة أخرى:

«عندما كانت الغزالة الذهبية لبدن الشمس آيلة إلى الغروب في مبيت الأفق الغربي، اصطدمت مع المتمردين، وأصدرت أنا الخادم الأمر بالهجوم على الأشقياء المذكورين، وعين المتمردون بدورهم تسعة أفواج، وعلى رأس كل فوج قائداً معتبراً وباسم ورسم وعلى رأس الجميع آمراً عسكرياً باسم مطرود بن كنفذ. ورغم أن عددهم كان أكثر بأضعاف من أفواجنا، إلا أن هذا الحقير انطلق من جهة الصحراء باتجاههم وأغلق طريقهم، وقام بالتجسس والاستخبار المتواصلين لحظة بلحظة، بفارغ الصبر ونصبنا الكمائن بانتظارهم، بحيث لم يكن بمقدورهم الوصول إلينا. ثم اصطدمت أفواجنا بالمتمردين ودار قتال عظيم ومرّغنا عدداً كبيراً منهم في تراب المذلة كما جرحنا وفرقنا جمعاً كبيراً منهم، حتى ظهر كمال التشتت والنكبة في فريق شقائهم. وتم نهب ما يقرب من خمسمائة من جمالهم وأصبحت من نصيب مجاهدي الإسلام كغنائم. وتفرقوا كلهم واضمحلوا حتى

---

١. المصدر السابق: HAT-00082-03381-00001.

٢. اعتبر ابن بشر (ص ٢٨٠) هذا الهجوم ذا نتيجة وهدف مستقلين أيضاً بسبب هدم البقاع خارج قلعة المدينة في منطقة الزبير. وتؤكد المصادر العراقية أن مقاومة قبيلة بني المنتفق حالت دون نجاح جيش النجديين في مقابل هذا الهجوم.

٣. ابن بشر، ص ٢٦٤؛ أيضاً: العجلاني ج «عهد سعود الكبير»، ص ٣٦.

حلول ظلام الليل. وقد رأى أصحاب البدع الأشقياء المحيطين بنا والذين كانوا في معية الأفواج وترصد كل منهم كالأسد الهصور وإذا بهذا الخادم يشن الهجوم عليهم، ويزلزل ثباتهم حتى فضلوا الفرار على القرار. ولأن هذه المواجهة تزامنت مع الليل، فقد أدى ظلام الليل بمصداق «الليل جنة الهارب» إلى النجاة والنعمة غير المتوقعة، ولم يطق العدو شدة القتال وترك أحماله وزاده بل وحتى علوفته غنيمة لنا، وولوا أدبارهم فراراً بمصداق «فمن نجا برأسه فقد ربح» كالكوكب المنحوس مأيوسين ومنكوبين، خائبين وخاسرين نحو مأواهم. وعندما وصل هذا الخبر إلى هذا الخادم، فقد طاردتهم من فوري ودون توقف حتى أوائل نجد، وطاردنا المتمردين وبقدر الإمكان من «الأخيضر» الذي كان موضع كميننا وانتظارنا بسبب بعد المسافة. ولأن الهاربين كانوا قد جروا وسارعوا إلى طريق خلاصهم قبل يوم من بدء المطاردة، فقد استطاعوا بلوغ ساحل السلامة»[١].

وقررت الدولة العثمانية بسبب الظروف التي حدثت، أن تعرض عن بغداد وأن ينطلق الجزار أحمد باشا إلى نجد مرة أخرى مع القوات المؤتمرة بأمره والتي كانت قد حققت شهرة واسعة بسبب إلحاق الهزيمة بنابليون بونابرت، إلا أن يد الأجل خطف الفرصة في هذه المرة من كف الحكومة العثمانية وهدر موت الجزار أحمد باشا في محرم ١٢٩١هـ / ١٨٠٤م حظ العثمانيين.

وبالطبع فإن الأوضاع في منطقة بلاد الشام ووادي النيل لم تكن مناسبة كثيراً، ويبدو أن سعوداً ومن خلال إدراكه الدقيق الأحداث والتطورات من حوله، وفي حين أن الدولة العثمانية كانت تنقل جنودها في العراق وبلاد الشام، قررت أن تنتظر ليتضح أخيراً الهدف النهائي من نقل القوات؛ وبمجرد أن علم أن الجزار باشا لم يعد له وجود في رقعة شطرنج سياسة الدولة العثمانية وأن إستانبول تتابع

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00082-03381-C-00001.

أمور مصر بأولوية أكبر[١]، وضع الهجوم على مكة وجدة في برنامج عمله. وقد طلب من عبدالوهاب بن عامر، أمير عسير وتهامة أن يتوجه نحو مكة ويرسل هو نفسه عثمان المضايفي وسالم بن شكبان نحو جدة. وهذا الجيش يجب أن يسلب من شريف مكة إمكانية خروج قوته العسكرية والتي كانت مستقرة عادة في معسكر جدة، ويسيطر على المدينة وذلك من خلال محاصرة المدينة[٢].

وحسب حسابات سعود ومعادلته ولعله بسبب مفاوضاته مع الميرزا محمدي خان ممثل الحكومة الهندية المرسل إلى نجد، فقد تم تجاهل متغير بريطانيا وتعاون قوات الشريف مع القوة البحرية البريطانية المحاصرة وهزيمة الجنود الفرنسيين أو أنه كان يظن، على أي حال أن بريطانيا سوف تبدي التعاون بسياساتها التوسعية الأرضية في تلك المرحلة. واستطاع الشريف من خلال استغلال تواجد القوة البحرية البريطانية أن ينقل في ظل ظروف محاصرة جدة، قوته العسكرية من ميناء جدة إلى ساحل بعيد ويرسلهم بذلك نحو مكة[٣]. وقد هزم سعود على أثر هذه الحيلة وخضعت مدينة مكة مرة أخرى لسيطرة قوات الشريف[٤].

---

١. كتب الصدر الأعظم سنة ١٢١٧هـ إلى السلطان: «الأولوية الأولى: إن التنظيمات في مصر هي أن يذهب]محمد[علي باشا في أسرع وقت ويسيطر على مصر» انظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00095-03850-00001.

٢. العجلاني، صص ٤٥ـ٤٦.

٣. العجلاني، ص ٤٧.

٤. صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٨٨. واجه سعود خلال عودته إلى الدرعية، الصراعات الداخلية والتمرد ضده. وقد جاءت أخبار هذا الحدث في رسالة من شيخ القشعم عبدالعزيز حبيب إلى شيخ الزبيد خطّاب الشلال: «جاء أحد أهالي العارض في اليوم الثاني من الشهر وأخبر أن الشريف، هزم المتمرد المذكور وأنه جاء إلى الدرعية منهزماً. وقد قتل عدد كبير من جماعة سعود. وكتب

←

كانت الدولة العثمانية قد عزمت في الاختيار بين مصر ونجد ومع الأخذ بنظر الاعتبار الأخبار الواصلة عن انسحاب سعود من مكة، على أن تجعل الركيزة الأساسية على إعادة سيادتها على مصر. وواجهت قوات المماليك، التي كانت قد أخرجت قبل ذلك خسروباشا الوالي المنسوب إلى الباب العالي، هجومَ قوات محمد علي باشا من أهالي ألبانيا. ورجحت كفّة أولوية مصر في هذه المرة أيضاً في السياسة الإقليمية العثمانية، فيما يتعلق بنجد والحجاز، وانطلق جيش الدولة العثمانية الذي كان بمقدوره أن ينطلق من الشام نحو نجد والحجاز في حالة حياة الجزار أحمد باشا، إلى القاهرة تحت أمر محمد علي باشا.

المبالغة: سياسة بغداد

وفي ظل هذه الأوضاع والأحوال، مارس جهاز الصدارة مرة أخرى الضغوط على كدخدا علي باشا والي بغداد كي يرسل جيشاً إلى الجنوب. واضطر علي باشا في هذه المرة، إلى أن يرسل ابن أخته سليمان باشا، حاكم أربيل على رأس جيش، نحو الجنوب[1]. ولا يبدو تقرير هذه الحملة موثوقاً به كثيراً نظراً إلى تعبير علي باشا المبالغ فيه:

«قد أشعت أنني سوف أخرج شخصياً إلى نجد وأن أعين عدداً من الجنود والرماة بحيث تمكن إدارتهم مع رئيس معتمد ووصلوا إلى ذلك الوادي الموحش اللانهائي والخالي من الماء والكلأ والذي لم تكن الدولة العثمانية قد وصلت إليه

→ في قطعة باللغة العربية بختم سليمان: هزم المتمرد المذكور في مكة المكرمة وقتل نصف جنوده، وعاد إلى الدرعية منهزماً ومنخذلاً وظهرت العداوة والبغض بينهم عند دخولهم الدرعية» وتصادموا فيما بينهم، وقتل البعض من وجهائهم وكبارهم أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00093-03800-A-00012.

١. انظر رسول الكركوكلي، دوحة الوزراء، ذيل وقائع سنة ١٢١٩هـ.

طيلة عهودها، وتيسرت هذه الفتوح والأهم والأكثر طرافة من ذلك أن القوات العثمانية تمرس وتألف الركوب على الجمال الذلولة وقامت بنهب ديار نجد وغارتها ضمن المبادرة إلى هذا الإقدام السياسي والمضني والشاق حيث ارتجف وجودهم الخبيث وظهر وتجلى اضطرابهم، من صيته وصوته الصاعق»[١].

وقد تحدث عن النجاح في هذه العمليات حيث يبدو وكأن كل جيش سعود قد تمزّق وتشتت أو أعرض عنه. وأقنعت أكاذيب علي باشا ومبالغاته، المسؤولين العثمانيين بأن نجم سعود قد أفل، وسوف لا يعود له ذكر حتى سنين طويلة:

«ولله الحمد والمنّة، فإن جزيرة العراق مملوئة بمألفة القلوب، وصدقت بذلك الآية الكريمة «ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون» في الحق المستحق لسعود المجبول على الخبث الذي هو رئيس قافلة النفاق ومصدر الفساد والشقاق والتمع وضاء الختم الشريف «ألا إن حزب الله هم المفلحون» على جبين الميمنة والنصر المبين للمسلمين، وبحمده تعالى فإن آثار القوة والنصرة ظاهرة وجلية وعلائم الفوز والفتوح صريحة وسافرة وهذه الحالة، تبشر باستهلال الاضمحلال والمحو الكلي لآثار البدعة... وقد أيقن أولئك المخذولون وتحققوا من أن الدولة العثمانية ساقت الخيول السريعة إلى هذه الأراضي الموحشة ونهضوا بمثابة الآية الكريمة «وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون» من نوم الغفلة والشقاوة بغتة، وهدم السيل الجارف للخوف والخشية أساس هدوئهم واصطبارهم ووصل الصوت المدوي والصاعق للبنادق والذي كان ينهال عليهم من كل صوب، إلى قمة الأفلاك ووطأت حوافر خيول الإسلاميين ساحة نجد الواسعة الأحاري وأصبح وجودهم الخبيث طعمة للسيوف ولم يجدوا أي طاقة على المقاومة ونهبت كل أموالهم ومنالهم وأسبابهم ومواشيهم وخرافهم حيث كان من المستحيل الإتيان بها بسبب

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00094-03808-00001.

عدم وجود الماء في أثناء الطريق، فتلفت كلها وذبحت رقابها في مذبحة الإفناء وأصبحت من نصيب حوصلة الغزاة الموحدين وغنمت مقادير وفيرة وألوف متعددة كثيرة من الجمال أيضاً.. وقد قدم إلينا حتى الآن نصف عشائر نجد وتم إيواؤهم وتوطينهم بكل رضا، وخذل ذلك الشقي المخذول من صميم القلب واصبحت آلة قوية لعبدكم هذا بمصداق «إذا ابتليتم بداء فداووه بداء مثلها» حيث إننا نجهز ونرسل بشكل متتابع جيوشاً منهم والتي كانت آلة تحت تصرف ذلك المخذول وهي الآن تحت تصرف عبدكم هذا أيضاً والشخص الذي كان قد أعجز الجميع في الأصل باستخدام هذه الآلة، يقضي وقته الآن في المحافظة على نفسه والتستر عليها وبلطف الحق فإن كل عشائر نجد سوف تأتي قريباً على هذا المنوال نفسه قسراً أو قهراً وعبدكم هذا هو الآن في حالة التجهيز لإرسال الجيش وهو ينتظر مطر البارئ تعالى لإرساله.. وبحول الله تعالى فإن أمل سعود اللامسعود انقطع في هذه الظروف من الأعراب والعشائر ومن المؤكد أنه لم تعد له القدرة على التجبر وظهرت في مقدمة حاله آثار النكبة وكمال المذلة ومن المأمول والمتمنّى من الألطاف الإلهية الخفية وسوف يتشتت قريباً وعاجلاً بشكل كامل ويضمحل بمصداق «للباطل جولة ثم يضمحل» ومن الآن فصاعداً وحتى ينمحي ويضمحل بشكل كامل، سوف لا تكف اليد عن هذا الشقي الكافر بالإسلام وبحول الله تعالى سوف يتم الإقدام رأياً وفعلاً على تخريب الدار والديار من خلال الترتيب والإرسال المستمر للجيش بشكل كامل وسوف لا يتم التباطؤ في تجويز أمر التدمير في سائر الوجود»[1].

وقد طلب الصدر الأعظم للدولة العثمانية وهو يشعر بالرضا عن مثل هذا التقرير الناجح من السلطان أن لا يتم الخلع والإنعام على مبعوث المباشر لباشا

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00092-03381-A-00001.

بغداد وحسب بل وأن يُبلغ السلطان بنفسه باشا بغداد التفاته الملكي عبر التحرير بخطه السلطاني[١].

تمكين الشام وبغداد، إستراتيجية أم تكتيك؟

استناداً إلى التقارير الواصلة إلى الباب العالي، وتزامناً مع هذه الفترة نفسها وعند إرسال أخبار انتصارات جيش بغداد، كانت بعض قبائل منطقة شبه الجزيرة العربية تتصل مع ولاية بغداد بطرق مختلفة وكانت تعرب عن رفضها للتعاون مع وهابيي نجد. وقد أشار والي بغداد على ١٨ شخصاً من رؤساء المنطقة وشيوخها[٢]. وأكد على أنه ومن خلال تقديم المساعدات النقدية والعينية إليهم،

---

١. «إذا ما وافق ذلك إرادته السنية، فلتقدم خلعة الإلباس إلى الرسول الحامل للتحريرات ومبعوث مباشره، وضمن الإشادة بالخدمات التي ظهرت في هذا الطريق، فلتصدر رسالة الأمر العالي بمضمون تشجيع المشار إليه بمتابعة القضية أكثر من الآن فصاعداً والسعي من أجل دفع فتنة صاحب البدعة المذكور من خلال القهر واضمحلاله الكلي بعون البارئ وتطهير تلك المناطق من لوث وجوده الخبيث وأن يوشح وينور صدرها بالخط السلطاني».

٢. «رغم أن نجداً حرمت بإرادة الله تعالى من رحمة أرحم الراحمين وأشرفت على الخراب وتجلى اضمحلالها وظهرت آثار النكبة في ناصية حالها وابتليت بالقحط والجفاف، إلا أن ذلك المخذول بادر وسارع إلى جمع وتخزين قوت الكفاف الذي حصل عليه من يد وجدانهم، في مأواه المنحوس، واعتبر نجاة نفسه غنيمة، وتاه في وادي الحيرة من تبعته المخذولة بمشاهدة هذا الأمر بمصداق الآية الكريمة: «إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب» تبعة المبتدعين المضلين تلك، وهم يلجؤون ويدخلون خشيه صيت الإسلاميين وصولتهم لإنقاذ أنفسهم بمصداق «فمن دخله كان آمناً» إلى حوزة دار الأمن والإسلام. ولأنه لم تعد لهم حيلة، فقد جاءهم في هذه المرة أيضاً بعض الأشخاص بين الحين والآخر سوى الأشخاص الذين جاءوا من قبل وقدم على رأسهم ثمانية عشر شخصاً من رؤسائهم ومشايخهم رجال المبتدعين المعلومين والبارزين مع العشائر والقبائل التوابع واللواحق والنفوس المتعددة ←

فإن من غير الممكن حقاً الحديث عن نفوذ سعود مرة أخرى. وتزامناً مع هذا الخبر، فقد انتقد والي الشام الجديد يوسف كنج ومن خلال الإشارة إلى مثل هذه الأخبار، انتقد بظرافة، نهج عامل الشام السابق في مجال تطميع العرب: «لقد بلغت الإقدامات التامة والمساعي الصادقة التي تمت من خلال إنفاق المبالغ الضخمة لتأليف قلوب العرب وأهالي الشام وعشائر الولاية والقبائل والقرى والأنحاء والآخرين الذين اعتنقوا الوهابية في السنوات السابقة وفي عهد أسلافي، وتم تفكيكهم وفصلهم عن الوهابية، بلغت حد كمالها، وابتليت بأنواع الثقل والاضطرارات الصورية والمعنوية في دفع نفقات ومؤونة الجنود الكثيرين الذين تم جمعهم في الشهرين أو الأشهر الثلاثة الأخيرة بهدف الاستعداد للمحافظة على ولاية الشام ومواجهة الأعداء»[1].

وهنالك عنصر مشترك في تقرير الواليين: فنحن نلاحظ عند بعض قبائل شبه الجزيرة وعشائرها، اتجاهاً مسالماً في التمكين من ولاة الشام[2] وبغداد والمهم أن الواليين كليهما قد أكرما هؤلاء الرهائن بهداياهم. وفي مقابل هذا العنصر المشترك، فإن من المناسب أن يسأل الباحث: من أين كان يصدر الوضع الجديد؟ هل كان فشل سعود في مكة وحدوث بعض الاختلافات السبب في إعراض

← أيضاً مع خاناتهم الواحد تلو الآخر غادروا نجداً ولجؤوا إلينا متمنين الإسكان الآمن والمريح في هذا الطرف مع هيئة مجموعتهم حيث تم قبول التماسهم وتم إكساؤهم الخلع حسب مفاد الآية الشريفة «وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم» على رؤسائهم وتم إكرامهم وتلطيفهم وتأمينهم نقداً وجنساً، وتم تأليفهم هم أنفسهم أيضاً وكذلك سائر الأشخاص الذين لم يأتوا بعد فقد تم ترغيبهم وقد اجتازوا برغبة الإعمار وكثرة المراعي في جزيرة بين الشطين وهم يبادرون إلى الخدمة بحل نطاق الأمن والاستراحة وكمال الصدق» بهذا الشأن انظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00092-03781-00001.

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00094-03839-A -00001.

٢. مراد عبدالله باشا الوالي السابق للشام.

عرب شبه الجزيرة؟ هل كانت قبائل شبه الجزيرة تريد أن تخدع باشوات بغداد والشام والدولة العثمانية بالتالي؟ وإذا كان الأمر كذلك، ففي إطار أي هدف اختاروا هذا الطريق؟

إلا أن دراسة الأحداث اللاحقة تثبت أن سياسة التقرب من قبائل الشمال ، لم تكن منبثقة من قرار استراتيجي؛ وتمكين اعتبار كحد أقصى تكتيكاً لجذب المساعدات المختلفة وخاصة المؤونة والاحتياجات العامة ونقلها إلى شبه الجزيرة العربية في عهد الجفاف الذي استمر سنتين. وقد بدأ قحط الجغرافيا الطبيعية الحاصل من التغييرات في شبه الجزيرة العربية، من أوائل سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م، واستمر بناء على التقارير الرسمية للدولة العثمانية، سنتين، أي حتى الزمان الذي نحن بصدده[١].

سقوط المدينة

من الواضح كما سبق أن ولاة بغداد والشام حينما أعرضوا عن تكريم العرب واللطف بهم، كان ذلك ناشئ من حسن نيتهم بسعود، إلا أنه يبدو قد صدر سرعة التصديق والسذاجة، أو ربما على إثر الملل من تحول قضايا نجد والحجاز إلى قضايا استنزاف حيث دفعهم ذلك إلى المبالغة في تضخيم انتصاراتهم الخيالية أكثر من ذي قبل وإبلاغها للسلطان العثماني. وبالطبع فإن من الواجب أن نأخذ أيضاً بنظر الاعتبار قلة أو فقدان المعلومات اللازمة عن داخل معسكر التفاهم «السعودي الوهابي» أيضاً. ومن جهة أخرى، فقد قلل تقديم المساعدات المالية والعينية من صعوبة عهد الجفاف واستطاع سعود أن يضع في برنامج عمله هدفاً

---

١. للاطلاع، انظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00092-03781-00001.

كبيراً آخر: تأسيس مخيم عسكري في وادي فاطمة، قرب المدينة[١]؛ وعلى أثر تشكيل هذا المخيم توافدت عليه أفواج قبائل شبه الجزيرة العربية بناء على دعوة سعود وتشكل جيش. ويبدو أن قسماً من القوات الوهابية، أغارت على البصرة، ربما لخدع جيش بغداد ووضعه في موقف دفاعي، وأحرقوا بعض المناطق من المدينة، وقتلوا مجموعة من السكان[٢].

وقد تم التخطيط لسياسة سعود في القيام بالعمليات الاستباقية، لعدة مرات وتم تنفيذها بنجاح. وفي الحقيقة فإن ضربات الوهابيين للنجف وكربلاء وذكراها المرة في أذهان الأهالي والمسؤولين الحكوميين كانت مرعبة وعميقة إلى درجة بحيث أنه عندما كان يحدث هجوم على مناطق جنوب العراق، فإن جيش بغداد كان يعجز عن اتخاذ أي نوع من الابتكار في القيام بالعمليات الهجومية بل وحتى مطاردة القوات الوهابية، وكان يجعل نفسه في حالة الاستعداد الدفاعي لمواجهة الضربات اللاحقة وقد وردت الإشارة في ذكر أحداث سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م إلى هذه الملاحظة وهي أن سعوداً استطاع من خلال الهجوم الاستباقي على البصرة والانسحاب إلى المناطق الصحراوية أن يشتت ويدمر القوات العثمانية التي كانت عازمة على مهاجمة نجد، وذلك في الصحراء بين النجف الناصرية[٣].

وتؤيد التقارير الداخلية للدولة العثمانية أن السلطان كان ينوي أن يتخذ ترتيباً

---

١. ابن بشر، ص ٢٨٣.

٢. علينا أحياناً أن نقوم بمزيد من الدراسة حول الموضوع فيما يتعلق بتحركات القوات الوهابية، ذلك لأن أحد السواح كان يرى في تلك الفترة أن «عرب تلك المناطق [كربلاء] يقومون بقطع الطرق باسم الوهابية» انظر: الميرزا أبو طالب خان، ص ٤٠٨.

٣. انظر على سبيل المثال: تقرير والي بغداد الذي وصف الأوضاع قائلاً: «كانت المصلحة في أن ننشر جيشنا في صحراء الإمام علي (رضي الله تعالى عنه) ليقوم بدوره بمطاردة المتمردين ومراقبتهم من بعيد ويطلعوننا على أي تحرك لهم» أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: .HAT-00082-03381-00001

يحول من خلاله دون سقوط المدينة، وذلك بالنظر إلى الأخبار الواصلة عن تجميع قوات سعود. وقد صدرت تعليمات صريحة من جانب سليم الثالث بأن «ترسل المؤونة والمساعدات إلى المدينة المنورة بوحدة اليد ووحدة التوكل، وبمنتهى الاهتمام والدقة، وأن يتم التفكير في حل للقضاء على الاضطرابات في تلك المناطق. ولا تتقيدوا بالعسرة والنفقات في هذا الخصوص، وأوصلوا الإمدادات إلى المدينة المنورة بكل طريق ممكن وبشكل أكيد أكيد. والإقدام في هذا الخصوص على عهدتنا وذمتنا. وعلى كل رجال الدولة أن يبذلوا ما في وسعهم في اليوم الأول والساعة الأولى. وأن لا يتأخروا ويتأنوا أبداً فإنهم سوف لا يكون بمقدورهم الجواب فيما بعد»[1].

وبعد مرور قرنين على هذه الأحداث وعلى أساس المعلومات المتوفرة فإن إقدامات سعود كانت أكمل وأدق بمرات من تقديرات الباب العالي وتحليلاته وتكتيكاته هو وعماله في بغداد والشام.

وأخيراً تولى بُداي بن مضيان قيادة الجيش المرسل إلى المدينة. ويظهر السلوك العنيف مع أهالي المدينة المحاصرين[2] أنهم لم يفتحوا أبواب المدينة وهبوا المواجهة القوات الوهابية. ثم بدأ المحاصرون في المدينة المفاوضات مع قيادة الجيش الوهابي، وحينئذ اختير ٤ أشخاص من وجهاء المدينة للحوار مع سعود والشكوى من سلوك بداي وأرسلوا كسفراء إلى سعود[3].

ويجب اعتبار الموضوع الأهم في هذه العمليات الاعتداء على البقاع الشريفة في المدينة وهدمها. وفيما يتعلق بهدم قبب البقيع وقبوره، فإن هنالك رواية تثير

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00094-03812-00001.

٢. «واعلم.. أنّ بداي بن مضيان استولى على مياه السبيل بطريق العدوان». العجلاني ،ص، ص ٢٦٧.

٣. كان هؤلاء الأشخاص الأربعة: محمد الطيار، الجاووش حسن القلعي، عبدالقادر إلياس وعلي الصديغ انظر: العجلاني، ن.ص، ص ٢٦٨.

التوقف عندها، تفيد بأن أهالي المدينة كانوا قد قرروا قبل دخول القوات الوهابية أن يهدموا القبب والقبور[١]، إلا أن أحد ملاحق كتاب العجلاني نص المراسلة بين وجوه أهالي المدينة مع سعود يفيد بأن هدم القبب تم بأمر سعود[٢].

ويبدو أن من شروط مفاوضات تسليم المدينة للقوات الوهابية وإعطاء الأمان لأهالي المدينة، كان هدم البقيع قبل أن يدخل الجيش المدينة. وفي حالة صحة هذا الافتراض ، يتبين أن سعوداً لم يكن يميل إلى أن يتحمل مسؤولية هدم البقاع الشريفة في البقيع والمدينة، بل كان يريد أن يدفع أهالي المدينة إلى هذا العمل الشنيع قبل دخول الجيش الوهابي، من خلال التهديد والتخويف[٣] ثم يشيع فيما بعد أن أهالي المدينة هدموا على أساس العقيدة الوهابية، القباب وفتحوا له المدينة. ورغم أن العجلاني سهل إصدار الأحكام في مجال مسؤولية سعود في هدم البقيع وذلك من خلال نشر صورة وثيقة المراسلة بين وجوه أهالي المدينة وسعود، ولكن كيف يمكن أن نصدق أن أهالي المدينة أقدموا على هدم أضرحة مقبرة البقيع رغم السنوات بل القرون الطويلة من أنسهم بها، وذلك قبل دخول الجيش الوهابي؟ ونحن نلاحظ بين الممثلين الأربعة المفاوضين مع القوات الوهابية، شخصاً باسم حسن القلعي ويدور الحديث في التقارير اللاحقة المتعلقة بنهاية أمر دولة نجد المستقلة على أثر هجوم القوات المصرية تحت قيادة إبراهيم باشا على الدرعية، عن اعتقال حسن القلعي وإرساله إلى الباب العالي بسبب هذا العمل المذموم والتعاون مع القوات الوهابية[٤]. ويبدو أنه كان له دور مؤثر في

---

١. صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٩٢.

٢. «وأمرتنا بهدم القباب التي فوق القبور، فهدمناها» انظر: العجلاني، ن.ص، ص ٢٦٧.

٣. حتى إن العجلاني، المؤرخ السعودي اعتبر هذا الأمر خطأ سياسياً وعملاً شنيعاً لسعود، انظر: العجلاني: ن. ص ٤٨.

٤. تقرير طوسون أحمد باشا إلى خديو مصر المورخ ١٢ رجب ١٢٢٨ هـ / أرشيف رئاسة الوزراء في

تحريضهم على فتح أبواب المدينة، وهي الحادثة التي أدت إلى تخريب البقاع الشريفة في البقيع ومدينة النبي ﷺ.

وكان أعيان المدينة وأشرافها، قد تنبؤوا قبل محاصرتها بمدة طويلة، بوقوع هذه الأحداث المؤسفة في حالة هجوم سعود ابن عبدالعزيز، حتى مع التأكيد على هدم قبة قبر نبي الإسلام العظيم الشأن ﷺ وكذلك نهب الخزانة النبوية، وقد تم بيان أهداف سعود من الهجوم على المدينة في الرسالة التي كتبها وجهاء المدينة كالتالي:

«لقد تبعته عشائر العرب في الغالب، ومن المسلم به والواضح للجميع أنه حاصر بعد الرجوع من مكة المكرمة، جدة المعمورة وسوف يتوجه بعد ذلك نحو البلدة الطيبة. وعلى أي حال، فإن من غير الممكن التنبؤ بشأن الوضع والأحوال بعد عرض الحال هذا، ذلك لأن تحليق طير فوق البلدة الطيبة لا يمكن تصوره في الوقت الحاضر «لا يعلم الغيب إلا الله». وقدرتنا على المقاومة إزاء المحاصرة لا تتجاوز الأشهر الثلاثة. وبلدتنا الطيبة خالية من المؤونة والجنود وإذا ما سنحت الفرصة لهذا المتمرد والعياذ بالله، فاعلموا أن من المسلم به أنه سوف لا يكتفي بهدم القبة الشريفة لسيدنا فخر العالم والآدم (صلى الله عليه وسلم)، بل إنه سوف يأخذ ويصادر خزانة المجوهرات والأموال داخل الحجرة المعطرة. وقد عرضنا على الباب العالي جناب حضرة أمير المؤمنين، خليفة رسول رب العالمين شرح الحال وأوضاعنا. وسوف نتخلص من الآن فصاعداً من اللوم والعتاب ويُسأل في يوم المحشر العباد الفقراء، جيران رسول الله ﷺ، ومن الواضح أن الجواب يجب أن يحال إلى أولياء الأمر»[١].

← الجمهورية التركية: HAT-00342-19571-00001.

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00093-03789-00001.

وتدل خطة سعود في الهجوم على المدينة، على حساباته الدقيقة وكما بيّنا، فإنه لم يكن يرغب في أن يتحمل مسؤولية ما حدث، ومع كل ذلك، فإن مسار الأحداث تعين بشكل بحيث أن سعوداً تعرض وتجاسر على أحد أقدس الأماكن عند المسلمين وكذلك أهم جزء من المناطق الإسلامية إلى هذا الحد، وذلك خلافاً لعقيدة أتباع العقيدة الوهابية وتوقعهم.

ويبدو أن الحكومة الإيرانية قررت في هذه الظروف أن ترسل سفيراً (مبعوثاً) خاصاً لتبادل المعلومات حول الطائفة الوهابية، إلى إستانبول[١]. وكانت العلاقات بين إيران والدولة العثمانية قد ساءت تزامناً مع هذه التطورات، بسبب لجوء والي أهيسكا، شريف باشا إلى إيران وعجز الدولة العثمانية عن ضمان الأمن وتأدية الخسائر التي تكبدتها كربلاء ودفع ديات شهداء حادثة عيد الغدير في ١٢١٦هـ[٢].

---

١. كان السفير المرسل، الميرزا محمد رضا خان القزويني، وزير جهاز محمد علي ميرزا دولتشاه والذي كان قد أرسل مرة أخرى أيضاً جواباً على سفارة سفير نابليون جوبير، إلى فرنسا. وقد ارسلت الدولة العثمانية في مقابل سفارته، ياسينجي زاده عبدالوهاب أفندي وجلال الدين أفندي في عام ١٢٢٦هـإلى إيران. عبدالرزاق الدنبلي، صص ٢١٣-٢١٢.

٢. إن المراسلة بين الصدر الأعظم آنذاك والسلطان العثماني تعيننا في إصدار الحكم بشأن سرد الأحداث وبيان مسؤولية حدوث هذا الوضع: «كما هو معلوم لأبهته الملكية، فإن حادثة تسلط المتمرد على المشهد الشريف لحضرة الإمام الحسين ﷺ قد أحرق صبر وهدوء الأعجام [الإيرانيين] وقد تم التحرير والإشعار من جانب عبدهم والي بغداد إلى بلاط السلطنة السنية بأن هنالك قلقاً بشان اعتدائهم على الحدود الخاقانية بداعية الانتقام حيث إن هذا الأمر يؤدي إلى ضرورة استنكاف طائفة الأعجام. وفضلاً عن ذلك، فقد ذهب الشريف باشا الهارب [والي أهيسكا] إلى محمد، خان إيروان وبادر بمساعدته إلى الاعتداء على حوالي جليدر ونشر بعض الأراجيف من قبل أنه سيأتي مع جنود لا حصر لهم، وأنه سيفعل كذا وكذا، وبذلك فإنه يسلب الراحة والاطمئنان من رعايا المناطق الحدودية الخاقانية.. [الحاشية بخط السلطان:] لا تقصير للإيرانيين في هذه القضية وكلامهم صحيح» أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00160-06683-00001.

وبناء على ذلك، فقد كلف الميرزا علي أولاً ثم الميرزا محمد رضا القزويني خلال سفارتهما إلى فرنسا، بأن يتفاوضا مع السلطان العثماني من أجل «بيان سياسة الحكومة الإيرانية فيما يتعلق بمواجهة الكفّار الروس والجهّال الوهابيين. ويبلغوا رسالة ملك إيران إلى السلطان»[١].

ويتضح من قرار السلطان في إرسال السفيرين إلى بلاط إيران، بعد استلام الرسالة أن الباب العالي كان قد قرر بعد سنين من التأخير، أن يقيم خط تبادل مباشر للمعلومات حول القضايا التي تهم الطرفين والموضوعات الأخرى وبذلك، يزيل عنصراً ثالثاً مثل والي بغداد الذي كان قد أدى هو نفسه إلى سوء التفاهم مراراً.

فتح مكة

وضع مخيم وادي فاطمة بعد السيطرة على المدينة، مهمة فتح مكة في برنامج عمله أيضاً على أساس إعلان سعود، ولذلك، فقد تم تشييد حصن وسور خاصين في أطرافها[٢]. وتم إبلاغ سعود بطلب شريف مكة الصلح، بعد المحاصرة الشديدة للمدينة والتي استغرقت ثلاثة شهور. وخلال هذه المدة، لم يغض أهالي المدينة النظر حتى عن الكلاب على إثر المجاعة الشديدة[٣]. ويبدو أن شريف مكة كان

---

١. كانت قد سجلت في ورقة اعتماده، هذه العبارة «.. سوف يرسل الميرزا رضا خان سفيراً عن إستانبول وسوف يسعى لأن يقدم بشأن الاتفاق والاتحاد بين كلتا الحكومتين وتنظيم المحادثات المقتضاة لتحقيق اتحاد كلتا الدولتين والتصدي لخطر روسيا وتبادل المعلومات الضرورية فيما يتعلق بالطائفة الوهابية» أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-161/6704c/1220.z29.

٢. ابن بشر، ذيل وقائع سنة ١٢٢٠هـ، ج ١، ص ٢٨٥ وأيضاً صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٨٩

٣. أحمد بن زيني، دحلان، خلاصة الكلام، صص ٢٩٢ ـ٢٨٥.

ينوي أن يهيء إمكانية إقامة الحج، من خلال قبول الصلح وإنهاء محاصرة المدينة وأن يهب مرة أخرى لمواجهة سعود بعد حضور الحجاج المصريين وإثارة مشاعرهم الدينية[1]. لكن لم يصل أي خبر عن وصول قوات الإمداد ومع قرار شريف مكة وفتح بوابة المدينة أنهت القوات الوهابية لسعود حصار بيت الله الحرام ودخلت المدينة منتصرة وقد نادى المنادي في الأسواق والمآذن بأمره: «ادخلوا في دين سعود وتظلّلوا بالظل الممدود».

ورفع سعود يردة الكعبة وأصدر فتاوى وأحكام[2].

وهكذا، فقد تسلم سعود بن عبدالعزيز في نهاية سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م أمور الحرمين الشريفين، وتشتت سيادة الدولة العثمانية في هذه المنطقة وتهيأت أرضية تشكيل الدولة الحاصلة من التفاهم الوهابي السعودي.

وهدم عدد كبير من الرموز المتبقية من عهد ظهور الإسلام وبعده، في مدينة مكة. وقرر سعود المنتشي بسبب هذه الانتصارات أن ينهي حكم الأئمة الزيديين في اليمن من خلال الهجوم على نجران والحديدة في هذا البلد والذي تم بقيادة أبي نقطة ويضم مناطق الجنوب أيضاً إلى رقعة حكمة[3]. ثم قررت قوات سعود المنتصرة أن تهاجم أهدافها السابقة في العراق: النجف، السماوة، البصرة والزبير بل وحتى منطقة الهندية قرب كربلاء كما تفيد إحدى الروايات، حيث استهدفتها هجمات القوات الوهابية[4].

---

١. ر.ك أيوب صبري باشا، ص ٨٣ ولعل الأخبار الواصلة من مصر، أي استقرار قوة محمد علي باشا الذي كان قد استطاع أن يلحق الهزيمة بالمماليك وأن يؤسس عهداً جديداً من تأريخ مصر عبر تشكيل حكومة الخديوي.

٢. أيوب صبري باشا، ص ٨٤

٣. ابن بشر، ص ٢٨٩.

٤. العجلاني، «عهد سعد الكبير»، ص ٤١، ذكر ابن بشر وصول قوات سعود حتى منطقة الهندية في

بغداد: الهروب من الواقع

في مثل هذه الأوضاع حيث رأى السلطان العثماني ضياع نجد والحجاز كما أن مصر كانت على مشارف الثورة، وربما إقامة حكومة مستقلة[1]، فقد دقت الحملات الجديدة على جنوب العراق، ناقوس خطر آخر للباب العالي ويبدو أن السلطان كان يكتشف شيئاً فشيئاً السياسة الخاطئة لجهاز صدارته في أمور مصر، نجد والحجاز والاعتماد غير المبرر على ولاية بغداد. وعزل يوسف ضياء باشا عن صدارة الدولة العثمانية وازدادت ضغوط السلطان على الأركان الإدارية، السياسية والعسكرية في إستانبول. وقرر والي بغداد، علي باشا أن يطهر صورة القضية من خلال إدراك ظروفه الخطيرة ومع الأخذ بنظر الاعتبار الضربات التامة والهزائم والإهانات المترتبة على إقدامات نجد. ولذلك فقد اتخذ من قضايا منطقة بابان في كردستان ذريعة وأرسل ابن أخته الذي كان قد شرفه في تلك السنة بالنيابة عنه إلى المناطق الغربية من إيران على رأس جيش وذلك في العام ١٢٢١هـ/١٨٠٦م للاعتداء عليها[2]، إلا أن جيش بغداد وقع أسيراً بأيدي القوات المدافعة عن محمد علي ميرزا دولت شاه حاكم كرمانشاه[3] وتأزمت العلاقات بين البلدين على إثر

← كربلاء انظر: ابن بشر، ص ٢٨٩؛ أيضاً: فرزانكان، صص ١٤-١٦. أيضاً انظر: لوئيس دو كورانسي، الوهابيون: تاريخ ما أهمله التاريخ، الرياض، الريس، بدون تاريخ، صص ١٣١-١٣٨.

١. للاطلاع بشكل مختصر على أوضاع مصر في تلك الفترة، انظر هامش الوهابيون: تاريخ ما اهمله التاريخ، ن. ص، صص ١٦٥-١٦٩.

٢. النبهاني الطائي، ص ٤١٣، أسرت إيران إسماعيل بك وطالب المسؤولون العثمانيون بإطلاق سراحه من خلال الاتصالات الرسمية، انظر: سيد علي موجاني، وآخرون، أسناد سلطاني، قم، مكتبة مرعشي، ١٣٨٨، ج ٢، ص ٤٢٧. وعزم المسؤولون العثمانيون على أن يصفوا إقدامه للمسؤولين الإيرانيين بصفة «الشخصية» نظراً إلى هزيمة قوات علي باشا، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-161-6717-29z1221-1.

٣. وبالطبع فإن السفر الفوري للشيخ جعفر الكبير (كاشف الغطاء) إلى إيران وسعيه لإطلاق سراح

شكوى الحكومة الإيرانية. وفي ظل مثل هذه الظروف الصعبة، زاد الصدام العسكري مع إيران من المشاكل والصعوبات السابقة[١]. ووصف مسؤولو الدولة العثمانية في خلال مفاوضاتهم مع أطراف الحكومة الإيرانية، إجراء علي باشا بأنه «شخصي ويغر مدروس» بل إنه اعتبر «عديم الكفاءة» في التقارير الداخلية للدولة العثمانية وقاموا بتوبيخه[٢].

← الأسرى العثمانيين في المفاوضات مع فتح علي شاه وبيان الأوضاع الوخيمة لمنطقة جنوب العراق، والتي كان يخشى استغلال القوات الوهابية لها، فقد امتنع فتح علي شاه أن يكف عن تأديب والي بغداد والحملة على تلك المنطقة. وعلى هذا الأساس فقد قررت الدولة القاجارية أن تطلق سراح ٤٠٠٠ جندي أسير في معركة مريوان برحمة وساطة الشيخ أو تعاونه (محمد تقي لسان الملك سبهر، ناسخ التواريخ، بتحقيق جمشيد كيانفر، طهران، أساطير، ١٣٧٧، ج ١، ص ١٥٦) وكان تنبؤ الشيخ جعفر الكبير وحساباته صحيحة تماماً في هذا المجال، ذلك لأن سعوداً هاجم النجف في جمادى الثانية من السنة الثالثة ١٢٢٢ هـ بجيش قدر البعض عدده بـ ٢٠/٠٠٠ إلا أن هذا الهجوم واجه الهزيمة بسبب تحصينات المدينة ومقاومة الأهالي وفتوى الجهاد للشيخ جعفر الكبير. أنظر: محمد علي كمال الدين، النجف في ربع قرن منذ سنة ١٩٠٨، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار القاري وأيضاً ر.ك المواهب، ١٤٢٦ هـ، ص ٣٥.

١. للاطلاع على الوضع السياسي والعسكري لهذه الفترة وبالأخذ بعين الاعتبار بعض الملاحظات تمكن مراجعة المصدر التالي (١٢١٢ ـ ١٢٢٦هـ)، فصلنامه تاريخ روابط خارجي، السنة الثانية عشر، العدد ٤٥، شتاء ١٣٨٩، صص ٦ ـ ١٤.

٢. يجب أن نأخذ بنظر الاعتبار فيما يتعلق بالتطورات المنتهية بتوبيخ علي باشا ورفض سياسته، أنه يبدو أن بغداد كانت في هذه المرحلة على اتصال بإيران من خلال طريقين ومستويين مختلفين: الأول عن طريق والي بغداد نيابة عن الدولة العثمانية والآخر عن طريق سليمان مباشر الوالي، والذي كان يسعى لأن يعين والياً على بغداد بحثاً عن الجاه. وقد قدم السفير المرسل من قبل الدولة العثمانية من الباب العالي (إستانبول) إلى طهران، تقريراً إلى الصدر الأعظم. وقد تفعّل خط تبادل الرسائل بين سليمان باشا وطهران بسرعة وخفة متزايدتين بإشارة من السفير محمد رفيع: «وصل هذا الرسول إلى طهران قبل هذا الفقير بسبعة أو ثمانية أيام. وكان قد نزل في بيت الميرزا شفيع ←

ورغم أن جيش إيران كان يواجه الصعوبات، إلا أنه كان يهدد حدود بغداد الشمالية. وقد فاوض ممثل خاص من جانب البلاط العثماني، في التفاوض مع فتح علي شاه وتقرر في حرم السيد عبدالعظيم أن يطلق سراح القائد العثماني وأن تتابع أمور بابان مع أخذ إيران بنظر الاعتبار، وذلك في مقابل الخسائر التي تكبدها كدخدا سليمان بك وكذلك خروج القوات العثمانية أيضاً من أراضي إيران[1].

خادم الحرمين الشريفين، رمز المشروعية

قرر سعود بن عبدالعزيز في هذه الفترة، أي في موسم حج ١٢٢١هـ/١٨٠٦م أن ينهي العلاقة المعنوية والرمزية للخلافة العثمانية مع الحرمين الشريفين[2] وذلك من خلال منع دخول حجاج قافلة الشام والأتراك، الذين كانوا يحملون معهم «المحمل الشريف»[3]. وأخيراً وبعد مفاوضات عديدة، وضع سعود شروطاً

← (الصدر الأعظم)». بهذا الخصوص انظر: محمد أمين رباحي، سفارتنامه‌هاي إيران، طهران، توس، ١٣٦٨، ص ٣١٥.

١. موجاني وآخرون، أسناد سلطاني، ج٢، ص ٤٥٥، أصدرت الدولة العثمانية أخيراً الموافقة والإذن بعودته بناء على طلب العفو عن حاكم بابان من جانب إيران، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-160-6703-29z1221-1.

٢. ك. سنوك هورخرونيه، صفحات من تاريخ المكة المكرمة، ترجمة علي عودة الشيوخ، الرياض، دار الملك عبدالعزيز، ١٤١٩، ج١، ص ٢٦٩، كما ينبئونا أحد الباحثين المصريين والذي يشير إلى سنة قبل هذا التاريخ أن سعوداً كان قد حال دون وصول هذه القافلة إلى مكة بسبب استخدام أدوات إيقاع مثل الطبول وأساليب مديري هذه القافلة. انظر: سعد بدير الحلواني، مصر والحجاز ونجد في القرن ١٩، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٣١.

٣. ابن بشر، ج١، ص ٢٨٥؛ أيضاً: العجلاني، «عهد سعود الكبير»، صص ٥٨-٥٧. من أجل فهم أهمية وتوجه الدولة العثمانية لهذا الموضوع، أنظر: أميرة بنت علي وصفي مداح، اهتمام العثمانيين بكسوة الكعبة الشريفة وتطورها في العصر الحديث ٩٢٣-١٣٤٦هـ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، المجلد ١٧، ذي القعدة ١٤٢٦، صص ١٩٢-١٤١.

صعبة: فقد كان على أمير الحاج التابع للدولة العثمانية أن يوافق على أن لا يسيّر الكتيبة المحافظة على القافلة مسلّحةً من المدينة وأن يفصل الجنود عن الحجاج؛ وسوف لا يكون للحجاج الحق في دخول مكة إلا بعد قبول القوانين الشرعية التي وضعها سعود؛ وفضلاً عن ذلك، وإن على الدولة العثمانية أن تدفع ٢٠٠ ألف مسكوكة ذهبية إلى خزانة سعود[١]. وكان يبدو أن قبول شروط سعود من قبل القافلة المرسلة مستحيلاً. ولم يتيسر الحج بناء على أخبار المصريين[٢] وبذلك فإن الدولة العثمانية التي كانت تعتبر لنفسها بسبب خدمة «الحرمين الشريفين» تتوفر فيه مشروعية إطلاق لقب «الخليفة» على السلطان، فقد واجهت تحدياً أساسياً.

ويبدو أن التغييرات السريعة في الأشهر اللاحقة في أركان الدولة العثمانية، من مستوى السلطنة وحتى الولاة وحكام النواحي، تمتد جذورها في هذه الحادثة نفسها؛ أي إلغاء لقب «الخلافة» من جهاز «سلطنة» آل عثمان في نظر الرأي العام[٣]: عزل السلطان سليم في ٢١ جمادى الأولى من السنة التالية للسلطنة؛ عزل عبدالله باشا والي الشام على أثر التغيرات السياسية والفشل في توجيه قافلة الحج[٤]؛ عزل

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00113-04532-00001.

٢. سعد بدير الحلواني، صص ٣٢ـ٣١.

٣. وبالطبع فإن تدخل أمراء الجيش الانكشاري وكذلك التنافس المتواصل بين زوجات السلطان في الحرم، حيث كانت تسعى كل منهن لخلافة ابنها، كانت قد زادت الطين بلة فيما يتعلق بالسلطنة، إلا أن سرعة التغييرات في هذا العهد تدل على تضعضع أركان مشروعية جهاز السلطنة عند المفتين. ويجب أن لا ننسى أن اتجاه السلاطين العثمانيين المبالغ فيه في هذا العهد للثقافة والحضارة الأوروبية من جهة، كان قد هيأ أرضية انحسار شعبيتهم بين مجتمع المسلمين، بحيث أن مفتي الباب العالي أصدر الفتوى في مقابل سؤال الجيش الانكشاري، لموت سلطان مثل سليم. للاطلاع أكثر، انظر: نوئل باربر، فرمانروايان شاخ زرين، ترجمة عبدالرضا هوشنك مهدوي، طهران، كفتار، ١٣٦٤، صص ١١٦ـ١١٧.

٤. ابن بشر، ج ١، ص ٢٩٣؛ أيضاً: ٢٩٣ صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٩٦ وكذلك سنت جون

ثم التصفية الجسدية لكدخدا علي باشا والي بغداد[1] ونصب كدخدا سليمان باشا خليفه له[2].

وعلى إثر فتح مكة المكرمة، دخل سعود المدينة مع شريف مكة باعتباره الحاكم المطلق على «الحرمين الشريفين» في ٢٢ من ذي القعدة سنة ١٢٢٢هـ /١٨٠٧م واستعد لمراسم الحج[3]. وقد عزل في البدو، قاضي مكة، خطيب زاده محمد أفندي وأرسله إلى إستانبول مع رسالة بين فيها ضرورة عدم إعادة بناء القبور. ثم عين عبدالرحمن التيامي بدلاً منه ومن جانبه باعتباره قاضي مكة[4]. ثم قرر أن يذهب إلى المدينة مرة أخرى ويهدم الأبنية المتبقية على المزارات المباركة لأئمة الشيعة وأهل بيت البني ﷺ وأصاحبه في البقيع[5].

ودخل سعود بن عبد العزيز مسلّماً بكل وقاحة، قبر نبي الإسلام الأعظم ﷺ ونهب ذخائر الخزانة النبوية أيضاً. وكان من بين الآثار المنهوبة، التاج المنسوب إلى كسرى أنوشيروان الملك الساساني والذي كان العرب قد حصلوا عليه بعد فتح المدائن وسيف الخليفة العباسي هارون الرشيد، هدايا سلاطين الهند والتزئينات الأخرى للقبة. واستناداً إلى رواية لمع الشهاب، فإن قبة وبناء مضجع السيدة الزهراء عليها السلام وقبب وأبنية أئمة البقيع عليهم السلام، شهداء أحد، بل وحتى قبر الخليفة

← فيلبي، تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ترجمة عمر الدسراوي، بيروت، المكتبة الأهلية، دون تاريخ، ص ١١٩ ذكر المصدران الأخيران أن تاريخ هذه الحادثة هو ١٢٢٣هـ؛ واعتبر فيلبي بصراحة أن سبب هذا التغيير هو جبن وخوف عبدالله باشا من الإقدام في مقابل قوات سعود.

١. قتل عند صلاة الصبح في إحدى قاعات قصره. انظر: لويس دي كورانسي، ص ١٥٦.

٢. علاء موسى كاظم نورس، ص ٧٣.

٣. أيوب صبري باشا، صص ٨٧ـ٨٨.

٤. أيوب صبري باشا، ص ٨٩.

٥. صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٩٧.

العثماني الثالث، لم تكن هي أيضاً بمنأى عن التخريب في هذا السفر بأمر سعود[١].

وتزامناً مع هذه الأحداث في مكة والمدينة، كانت أوضاع بلاط إستانبول قد تأزمت واضطربت إلى حد كبير هي أيضاً: فقد خلع رجال البلاط، مصطفى خليفة السلطان المعزول سليم الذي كان قد أجلسوه على العرش لأقل من سنة مضت، وقرروا أن يعيدوا سليماً إلى السلطة مرة أخرى. وبعد فترة قصيرة، قتلوا السلطان سليماً أيضاً وأجلسوا على عرش السلطنة محمود ابن عبدالحميد الملقب بمحمود الثاني. وفي بغداد أيضاً لم يكن اضطراب الأوضاع بأقل من إستانبول: فقد قتل علي باشا والي بغداد السابق، في تلك المدينة على يد خمسة من المقربين إليه[٢].

وفي هذه الأثناء، ربما كانت القاهرة هي الوحيدة التي كانت تتجه نحو الأمن والاستقرار أكثر وذلك بفضل دعم جهاز الخديوي محمد علي باشا، إلا أن هذا الثبات والاقتدار كان ينبع من الخصوصيات الشخصية للخديوي محمد علي باشا قبل أن يكونا مرتبطين بالباب العالي.

ظهور «دولة نجد والحجاز المستقلة»

وأتت الفرصة مرة أخرى وكالسابق «دولة نجد والحجاز المستقلة» التي كانت هي نفسها منبثقة من «التفاهم السعوي الوهابي»: فقد كانت الحكومة الإيرانية منشغلة بالحرب مع روسيا، وكانت الدولة العثمانية في دوامة الاضطراب، ومصر

---

١. لمع الشهاب، صص ١٠٨ ـ ١٠٩. عمد ابنه عبدالله فيما بعد في محضر جلسة محاكمته إلى ذكر أسماء المرافقين لأبيه معرباً عن انزعاجه من عمل أبيه، وقد ذكر أسماء أولئك المرافقين وهم: عبدالله بن مطلق وغصاب وحباب وأحمد الحنبلي وإبراهيم ابن سعيد وجبر. للاطلاع أكثر انظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00764-36068-00001.

٢. ابن بشر، ج ١، ص ٢٩٣؛ صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٩٦.

على مشارف تثبيت السلطة المطلقة للخديوي محمد علي باشا في الداخل وقلة الاهتمام بأمور شبه الجزيرة العربية، وجهاز ولاية بغداد ممزّق، وكان والي الشام معزولاً. كما كانت عمان وعلى إثر اغتيال إمام مسقط على يد رجال قبلة القواسم الساكنين في رأس الخيمة في ١٢١٩هـ/١٨٠٤م قد تعرضت لعدم الاستقرار[١]. وأدت الظروف على إثر قرار سعود في تعيين السلطان بن صقر ابن راشد على رأس الخيمة في سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م إلى حرب بكل معنى الكلمة في منطقة الخور.

وأخيراً هزم إمام مسقط وبايع بعض باطنيي عمان سعوداً. وبناء على ذلك، فقد كانت الظروف مهيأة لتثبيت أركان سلطة حكومة نجد المستقلة بقيادة سعود[٢].

وكان هنالك عامل آخر أدى دوراً مهماً في هذه الفترة: إذ يبدو أن الحكومة البريطانية دخلت مياه الخليج الفارسي أقوى من ذي قبل، وقد سيطر عليها القلق من تواجد الأسطول البحري الفرنسي في الخليج الفارسي والخوف من سقوط حليفها القديم، مسقط. وفي السواحل الجنوبية، كان التواجد الكثيف للقوة البحرية البريطانية أي «الكفار» تهديداً كامناً لسكان السواحل الذين كانوا يؤمنون مصالحهم من خلال التردد بين السواحل الشمالية والجنوبية. وفي خلال هذه الظروف كانت الدولتان المسلمتان الإيرانية والعثمانية قد انصرفتا عن الاهتمام بأمور المنطقة بسبب الانشغالات السابقة. وبناء على ذلك، فقد اضطر شيوخ الموانئ للاهتمام بقوة نجد الحديثة الظهور[٣].

وبالطبع فإن الحكومة البريطانية أولت لحكومة نجد مكانة «أحد الأطراف

---

١. ابن بشر، ج ١، ص ٢٨١؛ صلاح الدين المختار، ج ١، ص ٨٨.

٢. ابن بشر، صص ٢٩٧ ـ ٢٩٨؛ صلاح الدين المختار، ج ١، ص ١٠٠.

٣. لفهم أجواء تلك الفترة، انظر: لوريمر، ج ١، صص ٣٠١ ـ ٣٠٢.

المؤثرة» كما كان الحال بالنسبة إلى سكان السواحل، وذلك مع الأخذ بنظر الاعتبار الاتصالات السابقة خلال زيارة رينورد ومفاوضاته في سنة ١٢١٤هـ، وتزامناً مع هذه الفترة نفسها. واستناداً إلى الإيضاح الذي قدمه الممثل السياسي التجاري لتلك الحكومة في بوشهر لاجتناب سوء التفسير المحتمل من جانب الوهابيين، فقد قررت أن يبلغ من خلال إرسال رسالة إلى سعود، قوة نجد الوهابية، بمستوى ومدى دعم أسطول بلاده لإمام مسقط[١]. وكانت حصيلة مثل هذا الإشراف المعلوماتي، استيلاء القوات الوهابية على البحرين. وكان الاطلاع على المستوى المحدد لتواجد بريطانيا في المنطقة وتعاون سكان السواحل نعمة لم يكن يتوقعها سعود زادت أكثر من ذي قبل من قوة حكومة نجد المستقلة.

إيران وتوظيف مبدأ مشروعية الدفاع عن نفسها

تُظهر المصادر الإيرانية أن تأثير هذا الوضع في مناطق إيران الداخلية كان مثيراً للقلق في تلك الفترة أيضاً: فقد دخلت مجاميع من الوهابيين منطقتي بستك وجهانگيريه وبدأت الدعايات في لارستان بإيران[٢].

ورغم أن عمّال الحكومة الإيرانية، تجاهلوا مثل هذه التحركات، إلا أن التقييم الدقيق والتنبؤ الذكي لأحد السياح الإيرانيين، كان يعكس الجو العالم للمنطقة على أعتاب التحولات الكبرى، ويذكر الميرزا أبو طلب خان في سفرنامه طالبي:

---

١. Bombay Govemment Selecions of the Records, vol.24.p:433.

٢. محمود ميرزا قاجار، ص ١٨٠، حدث في هذه الفترة نزاع بين عبدالله خان، أمير أمراء لارستان وبين أحمد خان بستكي الذي يبدو أنه كان قد اعتنق الوهابية؛ بحيث أن «أهالي بستك وجهانگيريه توسلوا بالجماعة الوهابية الساكنة في البر» للاطلاع أكثر، أنظر: رضا قلي خان هدايت، فهرس التواريخ، بتحقيق عبدالحسين نوايي ومير هاشم محدث، المركز البحثي للعلوم البشرية والدراسات الثقافية، طهران ١٣٧٣، ص ٣٥٩.

«لقد ظفر بقبائل عتوب التي تعرف علم تسيير البواخر وتمتلك بواخرها، منذ سنتين مضتا وأضافت القوة البحرية إلى القوة البرية، وبعد ذلك سوف يسهل الاستيلاء على بغداد بعد البصرة وممالك إستانبول بعد ذلك»[١].

كما تحدثت المصادر البريطانية عن التزايد الجدي لخطر تأثير الوهابيين على سواحل إيران[٢]. ولذلك، فقد كُلف الأمير حسين علي ميرزا، حاكم فارس وفي حين أن الحكومة الإيرانية كانت في حالة «الجهاد» ضد «الكفار الروس» في الشمال، بأن يجيب على هذا القبيل من التحركات. وجاء صادق خان القاجاري على رأس جيش إلى هذه المنطقة لبحث الأوضاع. وقد دخل عمان في خلال مطاردته الهاربين الوهابيين من منطقة بستك ولار وكما روت المصادر الإيرانية فقد استطاع قمعهم في القطيف:

«أدركهم صادق خان بجيش كثيف، في حوالي البحرين والقطيف وجيش الجيوش في بداية تنظيم الصفوف دون استخدام التجهيزات العسكرية وأعرض عن تلك الجماعة. وأيقين العرب بالهزيمة من كيفية الدعوى وأسلوبها، وانهالوا على محمل مؤنة جيش المنصور وتعلقوا بطمع العربية بصناديق السكر والحلويات. ونشب بين تلك الطائفة النزاع بسبب الحصة الكبيرة والقليلة ووقعت الحرب بين تلك الطائفة. وبادر صادق خان للتصدي لتلك الجماعة بجيش الخيالة وانتصر بالخط الملوكي المنتصر، وجعل الجميع «طعمة للسيوف»[٣].

---

١. انظر: الميرزا أبو طالب، ص ٤١٢.

٢. مدرسي طباطبائي، ص ١٠٢.

٣. الميرزا فضل الله خان خاوري شيرازي، تاريخ ذو القرنين، بتحقيق ناصر افشارفر، مكتبة، متحف ومركز الوثائق في مجلس الشورى الإسلامي، ١٣٨٠، ج ١، ص ٣٠٩ وأيضاً برواية صاحب فهرس التواريخ: «أدركهم في حوالي البحرين وقطيف. وأعرض عن الحرب في بداية صف ←

ولا يوجد خبر عن الحادثة في المصادر السعودية المتوفرة، إلا أن البعض مثل ابن بشر وصلاح الدين المختار ذكرا أن سعيد بن سلطان، إمام مسقط استخدم القوة البحرية البريطانية في الهجوم على القوات الوهابية[١].

وعلى أي حال، يبدو أن شائعة موت سعود بن عبد العزيز انتشرت تزامناً مع الدخول العسكري لإيران في ساحة تطورات نجد وهزيمة القوات الوهابية في القطيف، وأدت إلى رضا جهاز الصدارة العثمانية[٢].

ويبدو أن صادق خان فشل مرة أخرى بعد عمليات القطيف، في مطاردة الوهابيين في سنة ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م، وتوجه إلى عمان[٣] أولاً ثم إلى حوالي الدرعية أيضاً. وهزم هناك الجيش الوهابي المدافع، بقيادة محمد بن سيف وسيف بن مالك كما جُرح القادة المذكورون[٤].

← الصفوف، وانطلق العرب إلى موضع المؤنة وعزموا على نهب المخيم ظانين هزيمته وتنازعوا على تقسيم الأموال. وخرج صادق خان الذي كان قد أثار هذه الخدعة عن عمد من الكمين وانهال عليهم وقتلوا جميعهم بالسيوف» انظر: رضاقلي خان هدايت، ص ٣٥٩.

١. ابن بشر، ج ١، صص ٣٠٥-٣٠٦. صلاح الدين المختار، ج ١، ص ١٠٦ يبدو أن تعاون واجتماع قوة إيران المرسلة إلى عمان وكذلك مشاركتها في الحرب ضد القوات الوهابية، أوجد هذا التصور في نظر المؤرخين من الطرف المقابل بأن القوة المهاجمة للجيش كانت لإمام مسقط.

٢. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00344-19639-00001.

٣. هاجم جيش الوهابيين بقيادة مطلق المطيري وعبدالله بن مزروع في أوائل هذه السنة عمان واستولى على بعض مدنها (إبراهيم بن صالح بن عيسى، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، الرياض، ١٤١٩هـ، ص ١٠٠) وكان سبب عدم تواجد القيادة العامة لقوات نجد خلال تلك الفترة، حملة سعود صوب دمشق وحضور ابنه عبدالله في ضاحية بغداد للقيام باعتداءات جديدة. بهذا الخصوص أنظر: ه.ر.ب ديكسون، ج ١، صص ١٠٧-١٠٨.

٤. محمود ميرزا، ص ١٨٣. كما ذكر مؤلف فارسنامه قائلاً: «اشتكى السلطان صيد سعيد، إمام مسقط وعمان والذي كان يدفع الخراج لحاكم فارس والخادم القديم لدولة إيران، من تطاول الشيخ سعود ←

ويجب الالتفات في هذا المجال إلى هذه الملاحظة المهمة وهي أن عدداً من المصادر الفارسية، مثل مؤلف فهرس التواريخ والبعض الآخر، أن هجوم صادق خان على القطيف كان في ١٢٢٤هـ، إلا أن الحديث عن هجوم هذا القائد الإيراني على الدرعية دار في فارسنامه ناصري، في ذيل سنة ١٢٢٥هـ[١].

وهكذا يبدو أن صادق خان بادر إلى ذلك الهجوم في مرحلتين، ولكن يجب أن نلاحظ أن هنالك وجوه شبه وتقارب في توصيفات هذه المصادر لأحداث معارك صادق خان[٢]. ويرى الكاتب أن جيش صادق خان ربما كان مستقراً في

← رئيس الطائفة الوهابية الساكنة في نجد، على مناطق عمان ومسقط إلى نواب حسين علي ميرزا، حاكم فارس واستدعى إيفاد جيش فارس وكلف نواب فرما نفرما، صادق خان قاجار دولو على قيادة عمان ببضعة آلاف من رماة لارستان والدشتيين والدشتستانيين عن طريق فسا وداراب وسبعة، دخل بندر عباس، ثم ركب المراكب البحرية لأهالي مسقط، واجتاز الخليج الفارسي ودخل بلدة مسقط وانطلق بعد بضعة أيام بجيش عمان نحو برنجد وجعل الشيخ سعود الوهابي، الشيخ محمد بن سيف وسيف ابن مالك قادة، وأرسلهم مع جماعة من أعراب البادية لاستقبال جيش فارس وعمان... واتجه صادق خان مع رجاله نحو الأعراب، ونجوا وأغار جيش فارس وعمان على أطراف نجد وصالوا حتى حوالي قلعة الدرعية، وعادوا إلى مسقط وأرسل صيد سعيد خان إمام مسقط، هدايا وافرة إلى بلاط نواب فرمانفرما شكراً له على هذه الموهبة وأغنى صادق خان وقادة الرماة من الدرهم والدينار وعاد كل منهم إلى بندر عباس بعد أن نال مقصوده» انظر: حسن حسيني فسايي، فارسنامه ناصري، بتحقيق منصور رستكار فسايي، ج ١، صص ٧٠٣ـ ٧٠٤.

١. وقد أورد ابن بشر هذه الحادثة أيضاً ضمن عمليات إمام مسقط وفي ذيل وقائع سنة ١٢٢٥هـ. ر.ك: ابن بشر، ج ١، ص ١٥٦.

٢. وعلى سبيل المثال فإن المادة التاريخية التي نظمها خاوري، تدل على صحة تسجيل التاريخ ١٢٢٤هـ.

شكر كز بخت شه وهمت فرمانفرما	لشكر مرز عرب از فرس بخت افتاد
ملك درعيه كجا رزمگه جيش عجم	اين دراز بخت شهنشاه جهانگير كشاد

←

المنطقة منذ دخوله مسقطاً وحتى الهجوم على الدرعية وكان يقمع القوات الوهابية بمساعدة قوات إمام مسقط. ولذلك فإن تداخل المصادر الفارسية وترابطها في الضبط الدقيق للأخبار تمتدان جذورهما في انعكاس ما مر خلال هذه الفترة بعد عودة صادق خان فحسب. وكانت المرحلة التالية للحرب، تحرير البحرين على يد القوات العسكرية التي ذكرت في المصادر العربية باعتبارها قوة إمام مسقط[١].

→ رفت سركردة قاجار مهين صادق خان — بـه سرانـدازي آن طايفه بـي بـنياد
از يكي حمله ز بيداد وي آن جيش شكست — خـاك آن قـوم شـد از آتش كـينش بـر باد
هر سواري ز ملك يك تنه مي‌راند به خصم — خود نمي‌گفت كه اين هـفت بـود يـا هـفتاد
بـي شكـرانـة ايـن فـتح، امـام مسـقط — سـاوره هـا بـه در شـاه جـهان بـفرستاد
هـيچ نـامي دگـر از لشكـر وهـابي نـيست — زهي از بخت شـهنشاه كـه ايـن رسـم نـهاد
خـاوري از بـي تـاريخ جنين كـرد رقـم — «جيش وهابي بـي ديـن بشكست از بـيداد»
نكه: خاوري، ص ٣٢٣

١. سُجلت هذه الملاحظة وهي أن القوات البحرية البريطانية نقلت قوات إمام مسقط إلى البحرين في المصادر العربية أيضاً (صلاح الدين المختار، ج ١ صص ١٠٨-١٠٩) وفضلاً عن ذلك، فقد أشار العجلاني نقلاً عن النبهاني وفي ذيل أحداث ربيع الأول ١٢٢٦هـ، إلى معركة ضارية في سواحل البحرين حدثت بين الطرفين وانتهت بموت ألف شخص (العجلاني، ن.ص، صص ٧٢-٧٣). كما تحدث ابن بشر في ذيل أحداث هذه السنة، عن إرسال قوات إسناد سعود إلى آل خليفة في البحرين والذين كانوا قد وقفوا في وجه قوات إمام مسقط (انظر: ابن بشر، ج ١، ص ٣٠٦) ومع الأخذ بنظر الاعتبار هذا النزاع الذي حدث استمراراً لعمليات الإيرانيين، فإن التاريخ الدقيق للحملة لابد وأن يكون أواخر سنة ١٢٢٤هـ وحتى أوائل السنة التالية. وهنالك ملاحظة مهمة ولكنها مضلة في نفس الوقت وهي أن المؤرخين السعوديين يسعون في بيان أحداث هذه السنين لأن يظهروا أنفسهم في مواجهة بريطانيا، ذلك لأن هنالك فتوى صدرت بإشارة من محمد بن سعود حاكم نجد في سنة ١٨١١م/١٢٢٦ - ١٢٢٧هـ، كانت تؤكد على أن الجهاد ضد أهالي بريطانيا لا ضرورة له لأنهم من أهل الكتاب. كما واستناداً إلى تقرير يؤكد على أن تعرض قوات ←

وقد كان لتواجد قوة إيران العسكرية في الساحة الحربية للمنطقة وفي مواجهة الوهابيين وبتجهيزات محدودة، ومركزية في نفس الوقت، رسالة في غاية الأهمية، فقد زالت أسطورة قوة سعود ابن عبد العزيز. وكان انتشار شائعة موت سعود يدل على هذه الحقيقة وهي أن قوة حكومة نجد المستقلة ومنعتها، كانت تقوم على بقاء سعود ابن عبدالعزيز فحسب. وفي الحقيقة فإن خصوصيات سعود الشخصية هي التي أدت إلى أن يتجمع جيش هاجم المناطق المختلفة من شبه الجزيرة العربية وأطرافها وشكل أخيراً هوية تذكر باسم قوة الوهابيين. وتُظهر سلوكيات سعود أنه لم يكن يعتبر مذهب الشيخ محمد بن عبدالوهاب باعتباره ضرورة للمحافظة على «التفاهم السعودي الوهابي» ، ولعله كان يُظهر نفسه وهابياً مؤمناً لتوسيع سلطته الروحية. ولم تكن بعض سلوكيات سعود وإقداماته، مقبولة بالنسبة إلى بعض الوهابيين: العلاقة مع الممثلين التنفيذيين السياسيين التجاريين لبريطانيا والتي دار الحديث عنها على مستوى تبادل الهدايا في الأقل، عدم الاهتمام بشعائر الدين الإسلامي في الاعتداء على المزار النبوي ونهب خزائن هذه الروضة المطهرة ثم بيعها، هذا البيع الذي تم عن طريق أسرة العطاس إلى الهند[1] وتدل حالات من هذا القبيل على أن الفرع السعودي لـ«التفاهم» كان ينظر إلى القضايا من وجهة نظر مادية بحتة.

وبناء على ذلك فعندما استطاع جيش إيران الصغير والموحد في نفس الوقت أن يتواجد قرب الدرعية ويخرج القوات الوهابية من منطقة القطيف في البحرين،

← القواسم لا يتم إلا على السفن التي ينكر «أصحابها تعاليم السلفية أو يعتبرون جزءاً من الكفار»، وهو ما يدل على مدى أهميتها للأسطول البريطاني والذي يشمل الأشخاص الذين يجب الجهاد ضدهم للاطلاع أكثر انظر: جمال زكريا قاسم، دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا ١٨٤١_١٧٦١، القاهرة ١٩٦٧، ص ٨٠

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00764-36068-00001.

وما أكثر ما واجه التضامن المذهبي المزعوم من قبل المصادر السعودية في بناء دولة نجد والحجاز المستقلة، أو التحاق قبائل شبه الجزيرة العربية بالعقيدة الوهابية، شكوكاً أساسية[١].

ويمكن أن نحتمل أن هذا العامل نفسه، لفت انتباه الدولة العثمانية بل وحتى الخديوي محمد علي باشا إلى هذه الملاحظة: الصراع مع «دولة نجد والحجاز المستقلة» على أساس اتجاه ديني في استخدام «الحجاج المغاربة»[٢]، الدعوة المرحلية لـ«عشائر جنوب العراق»[٣]، «تجنب التضاد والاعتماد على المراسلات المتضمنة للمواعظ والنصائح»[٤] أو «فتاوى المفتين وشيوخ الحرم»[٥] بل وحتى إرسال «جيش متنوع بتجهيزات كثيرة»[٦] وما إلى ذلك من حالات، فقد كان كل ذلك عبثاً وعديم الجدوى، ذلك لأن العمليات الوحيدة التي سرّبت الشكوك إلى

---

١. يدل الصراع على الغنائم والذي بدأ بالانسحاب التكتيكي لجيش صادق خان، على تفوق العلائق المادية على القناعات العقائدية. وقد سعى المؤلفون السعوديون طيلة السنوات الأخيرة لأن يعتبروا النظام السياسي لهذه الحكومة متأثراً بالتعاليم والقناعات العقائدية العميقة.

٢. يذكر قاضي مكة أن «من الواجب الآن أن نمزّق ونشتت المحيطين بذلك المتمرد من خلال الهجوم المباغت عليه وذلك بعد أن بلغ عدد الرماة المغاربة بين الحجاج عشرة آلاف» أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00092-03784-00001.

٣. رسول الكركوكلي، ص ٢٠٤.

٤. كان الصدر الأعظم للدولة العثمانية على سبيل المثال يرى «إن المصلحة تقتضي الآن أن يعمد إلى خيار تسكين الشقاوة وتهدئتها على وجه السهولة بدلاً من الانشغال بفقرة إلحاق الهزيمة به من خلال إبراز القوة القاهرة. وفي هذا المجال نفسه، تمت المصادقة بناء على تصويت الحاضرين أن تحرر رسالة من جانب هذا الخادم باللغة العربية إلى ابن سعود وأن يقال في مضمونها.. قس على هذا» أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00094-03816-00001.

٥. أيوب صبري، تاريخ وهابيان، إستانبول ١٢٩٦، ص ٣٥.

٦. جونز، صص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

شهرة قوات سعود بعدم الهزيمة، هي هذا التحرك من قبل الجيش الإيراني القليل العدد والمتحد في نفس الوقت وتوظيف الخدع الحربية البسيطة، مثل الانسحاب وترك الغنائم التي أثارت الطمع لدى الطرف المقابل وأدت إلى تنازعهم. وقد أثبتت أحداث السنوات اللاحقة في إرسال القوات المركزية الموحدة والقيادة الواحدة في ساحة العمليات والمشابهة لإجراء صادق خان، أن إنهاء حكومة نجد والحجاز المستقلة، لم يكن بعيداً عن المتناول كثيراً بالنسبة إلى حكام مثل سليمان باشا أبو المماليك أو كدخدا علي باشا، طبعاً لو كانوا يبدون الدراية.

الهجوم على الشام

تقدم سعود بن عبدالعزيز عند عمليات القوات المشتركة الإيرانية ـ العمانية، في ربيع الثاني ١٢٢٥هـ/١٨١٠م حتى حوالي دمشق[١] مستغلاً الجو الأمني المتزلزل، في المناطق الخاضعة لسيادة الدولة العثمانية، وذلك من خلال بيان احتجاجاته من جديد على الدولة العثمانية[٢]. وكان يوسف كنج والي الشام السابق قد تحدث قبل سنة من هذا التاريخ، عن ميله إلى الوهابيين المتواجدين في رقعة حكمه:

«من المحتمل أن يضطر الجميع إلى اتباع كل أمر وإرادة وهابية سواء محبكم هنا، أم الحجاج الذين هم في معيتي أم الأهالي المسلمون الساكنون في الشام ضمن الإعراض عن قواعد الدين المبين والانحراف عن طاعة الدولة العلية أو إذا تم الإقدام على الانطلاق نحو العدو بالترتيبات الجزئية، فلا شك في أن حالة مأساوية سوف تظهر وهي فوق تحمل الدولة العلية... وسيتعرض الدين والدولة

---

١. بهذا المجال انظر: سليمان صالح الخراشي، صص ٤٣ـ٤٧.

٢. العجلاني، ج عهد سعود الكبير، صص ٦٤ـ٦٨، وأيضاً صلاح الدين المختار، ج ١، ص ١١٠.

العلية أيضاً والعياذ بالله تعالى للمصيبة العظمى والخيانة الكبرى وبذلك سوف يجد الأشقياء الوهابيون الفرصة ويوسعون أهدافهم السيئة إلى الشام الشريف ومناطق شبه الجزيرة العربية الأخرى في نفس الوقت الذي يتسللون فيه إلى الحرمين، فسوف يكون الندم مجزوماً به وظاهراً من كل الوجوه»[١].

إلا أن هذا التنبؤ الموضوعي، استتبع عزله[٢]. وكان سعود قد طلب قبل تواجده في المنطقة، ومن خلال إرسال رسالة، من والي الشام أن يستقبل أربعة من المقربين إليه وينتفع من إرشاداتهم في وصف العقيدة الوهابية والدعوة إليها. وقد أنهى رسالته بهذه العبارة: «والسلام على من اتبع الهدى وترك الفتنة والأذى»[٣]. وقد بين سعود في الجواب على والي الشام، مرة أخرى وفي رسالة بتاريخ ١٤ من ذي القعدة ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م، معتقداته كالتالي: عدم بناء القبب فوق القبور وترك زيارة القبور والمزارات الموجودة في دمشق والتي أصبحت موضع نذور الناس وحاجاتهم. وقد استند إلى الآراء المختلفة لمحمد بن عبدالوهاب والبعض الآخر من العلماء السلفيين لتأييد آرائه[٤]. وقد أصدر سعود خلال عودته، فتوى جديدة بخصوص منع حمل السلاح بالنسبة إلى الرجال واستخدام الحلي والمجوهرات بالنسبة إلى النساء في موسم الحج في مكة[٥]. وقد هاجم أولاد سعود ابن عبدالعزيز تزامناً مع سفره، مناطق عمان تلافياً لهزيمتهم أمام الجيش الإيراني. وقد أدى هذا

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00094-03839-00001. يمكننا أن نلاحظ هذا الاستناد والاحتمال وهما أن ميل أهالي الشام إلى الوهابية كان أكثر من المناطق الأخرى، في بعض النصوص التحقيقية الأخرى أيضاً بهذا الخصوص انظر: لوئيس دو كورانسي، صص ١٨٠ ـ ١٨١.

٢. ابن بشر، ص ٣١٠.

٣. العجلاني، «عهد سعود الكبير» صص ٢٢٠ـ٢١٨ نقلاً عن تاريخ جودت.

٤. العجلاني، «عهد سعود الكبير»، صص ٢٣٧ـ٢٢٢.

٥. صلاح الدين المختار، ج ١، ص ١١٣.

الإقدام الفردي إلى هزيمة القوات الوهابية واستمرار المعارك في المنطقة الشرقية[١].

واستناداً إلى الوثائق المتوفرة، فإن سعوداً كان قد قرر في هذه الأثناء أن يهيء من خلال بعض التمهيدات، أرضية الارتباط بالدولة القاجارية؛ ولذلك فقد أرسل سفيراً باسم ونسب عبدالكريم بن إبراهيم نحو بوشهر لكسب آراء المسؤولين الإيرانيين، كي يستطيع من خلال إقامة الاتصال، الحيلولة دون حدوث وضع مثل إرسال الجيش من جانب إيران مرة أخرى. وترى المصادر البريطانية ، أن عجز القوات الوهابية عن مواجهة الإيرانيين، كان سبب اتخاذ هذه السياسة[٢].

قرار الحملة الشاملة:
الخوف من إيران أم توريط حكومة خديوي مصر في مستنقع نجد؟

على إثر انتشار خبر حملة إيران والانتصارات التي تحققت في الدرعية، قررت الدولة العثمانية أن تضع في برنامجها مرة أخرى سياسة قمع وهابيي نجد واختارت خديوي مصر لهذا الغرض[٣]. ولم يكن الخديوي محمد علي باشا

---

١. ابن بشر، ص ٣١٧.

٢. وثائق شركة الهند الشرقية بروس فاردن، التقارير السرية في بومباي، المجلد ٢٤، صص ٤٢٨ ـ٤٣٦. يرى العجلاني، أنه واستناداً إلى رواية المصادر البريطانية على ما يبدو (لوريمر، ج ١، ص ٣٠٤)، فإن ممثل سعود في بوشهر التقى الممثل المقيم لبريطانيا، إلا أنه لم تعقد معاهدة مكتوبة بينهما. ويرى أن فتح علي شاه لم يساعد في هذه الأثناء أياً من الطرفين (منير العجلاني، صص ٣٠ـ٣١). وقد ذكر مدرسي طباطبائي أن تاريخ هذه الحادثة كان في سنة ١٢٢٧ هـ. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار إشارة العيدروس السابقة والذي يرى أن فتوى العلماء الوهابيين صدرت في هذه الفترة نفسها بإشارة حاكم نجد، وتقضي بعدم وجوب الجهاد ضد الإنجليز لأتباع الوهابية، فإن هذه الملاحظة ربما وردت الإشارة إليها في هذا اللقاء انظر: العيدروس، ص ١٣١.

٣. في أحد الاجتماعات لأرباب الشورى في سنة ١٢٧١ هـ بإستانبول والذي تم انعقاده بحضور

وخلافاً للحكّام وولاة الدولة العثمانية، يعتبر نفسه من عبيد جهاز الصدارة والسلطنة العثمانية[١]. ولهذا السبب نفسه، فإن السلطان العثماني لم يكن يشعر بكثير من الرضا من محمد علي باشا. وهذا الموضوع واضح تماماً من أسلوب مكتوبات السلطان العثماني على حواشي تقارير محمد علي باشا. وعلى سبيل المثال، فقد طلب محمد علي باشا بعد فتح الدرعية من السلطان مكافأة نقدية لفاتح القوات المصرية في الدرعية، إلا أن السلطان اعتبر الموضوع محسوماً من خلال إشارة مختصرة إلى رؤية نص التقرير[٢].

وكانت الدولة العثمانية قد طلبت منه من خلال إرسال الرسائل العديدة أن يقمع قوات نجد الوهابية[٣]، إلا أن محمد علي لم يقدم في هذا الخصوص إلا بعد سنة من مطالب الباب العالي وذلك بسبب الانشغال بأمور المماليك[٤]. وكان

→ الصدر الأعظم لمعالجة شؤون نجد، فقد تم اقتراح إرسال محمد علي باشا لتنظيم و تنسيق شؤون مصر بوصفه الأولوية الأولى من قبل الصدر الأعظم للسلطان، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00095-03850-00001.

١. لم يتردد في المراسلات الرسمية التي خاطب من خلالها السلطان العثماني من استخدام عبارة بسيطة هي «أخي الأعز حضرة السلطان».انظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00095-03850-00001.

٢. كتب محمد علي باشا في رسالته إلى السلطان: «إلا أن ابننا يا أخي المشار إليه في هذه الأيام بحاجة ماسة إلى الدعوات الخيرية الملكية بمثابة الماء الإلهي. وإذا ما كان من الممكن، فإن أعز آمالنا الحبية، أن يتفضل سيدنا روح العالم ببذل مبلغ من المال ضمن استحصال الدعوات الخيرية الملكية التي هي مدعاة للنجاة وعامل حياتنا كلنا»، إلا أن السلطان اكتفى بالعبارة البسيطة «لوحظ»؛ انظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00314-19563-00001.

٣. سيار كوكب الجميل، بقايا وجذور التكوين العربي الحديث، الأردن، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٧، ص ٢٥٢.

٤. في هذا المجال، انظر: الوثيقة رقم ٤ في الكراس رقم ١ من مجموعة الوثائق التركية 8/E/I مركز ←

لتدخل مصر في قضايا نجد والحجاز تأثير مهم. وخلافاً لجنود والي بغداد، والذين كانوا عبارة عن مجموعة مجتمعة من عناصر عرقية ثقافية مختلفة وكانوا يفضلون العلاقات العشائرية القبلية لتنفيذ أوامر القادة الرفيعي المستوى، فإن الجيش المصري كان يتمتع بانسجام وتماسك أكثر. وكان سلوك جنود العراق، وبسبب روابطهم النسبية مع عرب الجنوب، في الصدامات والاشتباكات بشكل بحيث كان أحياناً يضعف أساس انتظام الأمور ويُشيع الاضطراب فيه، بحيث أن الأصل القبلي للكثير من الأشخاص المشاركين في جيش العراق يعود بجيلين من الفاصلة، إلى عشائر وقبائل نجد والحجاز واليمن وكانت هذه الرابطة النسبية تحول دون أن تتمخض الحروب عن النتيجة النهائية. ومن جهة أخرى، فإن تواجد الجنود والقادة الترك، كان يثير المواجهة بين العنصرين العربي وغير العربي وهو ما كان يؤدي إلى الحساسيات والأزمات. في حين أن المصريين كانوا يتميزون بخصائص مختلفة: الأولى أن المصريين وبسبب تاريخهم الحضاري والعهد الطويل من الحكومات السابقة، كانوا يولون أهمية خاصة للجيش والعسكرية وكانت دولة المماليك ودولة الخديوي تتمتعان بجيش وتشكيلات عسكرية منظمة. وكانت روح التحمل والتساهل عند المصريين مع العناصر الأجنبية بسبب أن العمق التاريخي لعلاقات المجتمع كان أكثر. ولم تكن تلاحظ عندهم روح الاستعلاء العربية في مقابل الأتراك غير العرب. وأخيراً وخلافاً لسليمان باشا أو كدخدا علي باشا، فإن ولاة بغداد الذين كانوا يسعون لأن يخفضوا

← الوثائق التاريخية لدولة البحرين (يتوقف اطلاع الكاتب في هذا المجال الأردن على المحققة المحترمة سهير نبيل كمال).. وخلافاً لرواية العجلاني الذي اعتبر هذا الإجراء ناجماً عن قرار محمد علي، فإن السلطان العثماني طلب في صيف عام ١٨١٠م من خديوي مصر أن يؤدي هذه المهمة من خلال إرسال ممثل خاص؛ أنظر: أحمد فؤاد متولي، جوانب من كفاح السعوديين الأوائل، الرياض، مجلة الدارة، ص ١١٣.

النفقات في تنفيذ مراسيم الدولة العثمانية وأوامرها إلى الحد الأدنى من خلال المحافظة على سياسة مزدوجة وأن يقدموا الحد الأقصى من قائمة النفقات إلى الباب العالي، فإن الخديوي محمد علي باشا كان يتمتع بوضع أكثر استقلالاً وكان في بداية حكمه لمصر، يتطلع إلى دولة مستقلة ومتوازية مع الدولة العثمانية كما لم يكن يرى ضرورة للتنسيق أو اكتساب امتيازات مؤقتة من الباب العالي.

وفضلاً عن كل ذلك، فإن من الواجب أيضاً أن نأخذ بنظر الاعتبار الموقع الجغرافي السياسي لهاتين المنطقيتين: فقد كانت ولاية بغداد محاذية لإيران وكان ولاة بغداد العثمانيون يخشون خلال مدة طويلة إعادة سيادة إيران على بغداد. ولذلك، فقد كانوا يسعون أن يحدوا من نطاق تأثير إيران العميق على عراق العرب من حيث التواجد التاريخي والعقائدي، قبل أن يلتفتوا إلى الأقسام الجنوبية بل وحتى الأمور الداخلية لتلك الولاية. ولذلك، فقد وضعوا في برنامجهم في بعض المراحل، سياسة تحويل الأزمة «الوهابية العثمانية» إلى الأزمة «الوهابية الشيعية». ولم يكن مثل هذا الوضع سائداً في مصر؛ فلم تكن حكومة مصر الخديوية تحاذي أياً من البلدان الأجنبية. وفي الحقيقة فقد كانت مصر المقر المركزي لغرض السيادة على شمال أفريقيا بل وحتى الصحراء الكبرى مثل السودان. ويجب أن لا ننسى أن الترابط الثقافي لمصر مع بلاد الشام واليمن أدى هو أيضاً إلى أن لا تصبح هذه المناطق ضمن نطاق التنافس مع مصر. في حين أن التنافس السري بين بغداد والشام، بغداد والأناضول بمركزية دياربكر وقارص كان قائماً فيما يتعلق بالعراق بسبب الهوية القومية في الغالب.

ورغم أن تغيراً أساسياً لم يحدث في شبه الجزيرة العربية في فرض سلطة القوات الوهابية في السنوات ١٢٢٥ ـ ١٢٢٦هـ/ ١٨١٠ ـ ١٨١١م، ولم تكن هنالك منطقة سوى الدرعية قد تعرضت للتهديد بسبب النزاعات التي خاضتها القوات المشتركة الإيرانية العمانية، إلا أن الدولة العثمانية مارست الضغوط في خلال هذه

السنين بشكل متواصل على حكومة محمد علي باشا كي يتورط في أمور المنطقة. ويمكننا أن نأخذ بعين الاعتبار ثلاثة احتمالات رئيسة في هذا المجال: الأول أن الدولة العثمانية كانت تشعر بالقلق من ترسخ مكانة محمد علي باشا في مصر بشكل أكبر فقد كان يسعى من خلال انشغاله بأمور هذه المنطقة لأن يهيئ أرضية الارتباط المتزايد لمصر بالباب العالي. وفي حين أن محمد علي باشا أسس دولة مصر الخديوية[١] وكان الباب العالي يرى سلطته متعارضة مع سيادته كما كان السلطان ونظراً إلى التبعات الثقيلة لإجراءات الوهابيين في انتزاع الحرمين الشريفين من نطاق متصرّفات الدولة العثمانية، يعمل على أن يضعف شيئاً فشيئاً من السلطة الفتية لدولة مصر الخديوية من خلال استغلال انشغال الخديوي محمد علي باشا بأمور نجد وتحول الصراعات إلى صراعات استنزافية، كما فعل ذلك مع أبي المماليك سليمان باشا.

ويرتبط الاحتمال الثاني بدور الحكومة الإيرانية باعتبارها منافساً تقليدياً ومهماً للباب العالي. ولم تكن ذكرى مبادرة كريم خان الزندي إلى الاستيلاء على البصرة أو عمليات نادرشاه الواسعة لفرض سيادة إيران من جديد على العتبات المقدسة قد زالت بعد من أذهان رجال حكم خلافة آل عثمان. خاصة وإن القوات الإيرانية بقيادة محمد علي ميرزا دولتشاه التي قد أرسلت في هذه الفترة نفسها، أي شعبان من سنة ١٢٢٧هـ / ١٨١٣م كانت قد اجتازت الحدود الشرقية من الدولة العثمانية لتأديب والي بغداد الذي كان قد تجاسر على إيران من خلال الاعتداء على أراضيها، من ثلاث جهات[٢].

---

١. فيما يتعلق بالاطلاع على أهداف محمد علي باشا بهدف المحافظة على موقع أكثر تميزاً لمصر إلى حد نوع من الاستقلال عن الدولة العثمانية: انظر: محمد فؤاد شكري، مصر في مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ـ١٨١١، القاهرة، بدون تاريخ، ج ٤، صص ٩٨٥ـ١٠٤٠.

٢. سعيد نفيسي، تاريخ اجتماعي وسياسي إيران در دورة معاصر، طهران: بنياد، ١٣٦٦، ص ٢٠٢.

وبناء على ذلك، فإن تواجد الجيش الإيراني في قلب شبه الجزيرة العربية دق ناقوس الخطر للدولة العثمانية. ولعل المسؤولين الرسميين لذلك البلد كانوا يفترضون أن إيران إن استطاعت وهي تحارب «الكفار الروس» أن تستولي على العتبات المقدسة في عراق العرب والحرمين الشريفين في الحجاز، فإنها وبسبب المشروعية التي سوف تكتسبها من جانب الحرمين الشريفين، فإنها سوف تمتلك أيضاً إمكانية تعبئة جيش كثيف وتحويل حرب القفقاز إلى مواجهة دينية بالكامل مع روسيا. وبناء على ذلك، فإن تسيير أمور نجد في مثل هذه الأوضاع العسيرة، وتواجد الدولة العثمانية، يجب أن يوضعا في برنامج العمل باعتبارهما ضرورة حتى وإن أديا إلى تعزيز مكانة محمد علي باشا. وبالطبع فإن المؤلف لا تتوفر لديه مستندات معينة من أجل تعزيز أي من هاتين الفرضيتين، إلا أن علم التصرفات من وجهة النظر التاريخية في قرارات مسؤولي الدولة العثمانية من شأنه أن يرشد الذهن إلى مثل هذه الفرضيات. ولعل انطلاق محمد صادق خان القاجاري إلى نجد، تزامناً مع عهد الحروب الإيرانية الروسية الضارية، انعكس بشكل واضح في المصادر الإيرانية ولم تأت أخباره إلا في سطور محدودة، إلا أن هذه العمليات كانت تتمتع بأهمية عسكرية كبرى بالنسبة إلى الدولة العثمانية التي كانت تتابع وتقيم بدقة التصرفات السياسية والعسكرية لإيران.

وكانت الدولة العثمانية قد سعت لسنين لأن تحول الأزمة الوهابية العثمانية إلى أزمة وهابية شيعية. وعلى أثر مسايرة الدولة العثمانية لظاهرة الوهابيين، فقد كان قسم ملفت للنظر من سكان العراق وخاصة في مناطق جنوب بغداد، قد تحمل جروحاً غائرة وعميقة. فقد كانت ذكريات كربلاء المرة والهجمات العديدة على البصرة، النجف، الحلة والسماوة ما تزال طرية. وكان الميل إلى الاقتصاص من القوات الوهابية التي كانت قد عمدت في الحقيقة إلى نوع من التطهير العرقي في جنوب العراق، موجوداً بعمق.

وبناء على ذلك، فلو كان المسؤولون الإيرانيون آنذاك، يمتلكون معلومات دقيقة وتحليلاً شاملاً عن أوضاع المنطقة، لكان بمستطاعهم أن يديروا بسهولة مسار النزاعات والمعارك في نجد نحو جهات أخرى أيضاً من خلال كسب مشاركة الشيعة في جنوب العراق. وكان من شأن الشعور العميق بتحرير المناطق التي كانت ذات أهمية خاصة للمسلمين وخاصة الشيعة أن يكون أهم عوامل نجاح أهداف إيران السياسية العسكرية في الأراضي العثمانية. ولو أن هذه الأهداف تحققت لانخرط العراق وشبه الجزيرة العربية كلاهما في مدار السياسة الإيرانية ولتركت تأثيراً عميقاً على المواجهة في المناطق الشمالية ضد الكفار الروس.

والاحتمال الثالث هو التحرك الدبلوماسي للحكومة الفرنسية وإرسال وفد من جانب نابليون إلى نجد لتحريض سعود في الحملة على الشام. ولو صح هذا الخبر، فقد كان يتوجب على «دي لاسكار» الممثل الموفد إلى الدرعية في سنة ١٢٢٦هـ / ١٨١١م أن يتواجد مرة أخرى إلى ذلك الصوب لتوجيه الضربات إلى الوهابيين آخذاً بنظر الاعتبار عمليات السنة السابقة حيث كان سعود قد أوصل نفسه إلى مناطق قريبة من دمشق، كي تزيد بزعزعة الدولة العثمانية وأخذ الامتيازات منها، من هواجس الجبهة الفرنسية المقابلة في أوروبا[١]. ويبدو أن هذا الإجراء لو كان قد حدث وكان بمقدور القوات الفرنسية الوصول إلى السواحل الشرقية من المتوسط، فإن الدولة العثمانية ربما كانت ستضطر، لأن تدفع ثمناً باهظاً في مقابل الهزيمة التي كانت قد كبدتها نابليون في عكا.

والآن حيث ننظر إلى رقعة شطرنج المنطقة بعد قرنين ونتحدث عن القدرات والتهديدات الكامنة، فإن بإمكاننا أن نحلل موقع لاعبي المنطقة المهمين في تشكيل المصير السياسي للشرق الأوسط. فإيران ومصر وتركيا ما تزال تتمتع

١. عبدالفتاح حسن أبو عليه، صص ١٣٠ ـ ١٢٩.

بالقدرات المؤثرة المذكورة بعد مرور قرنين. والتنافس الذي كان قبل مائتين ونيف من السنين والتعارض في سياسات ذلك العهد، يمكن مقارنتهما مع التطورات الحالية أيضاً؛ فما كان رجال الحكم في القرنين السابقين يحملونه في أذهانهم فيما يتعلق بمكانة منافسيهم ووزنهم ما يزال حياً حتى اليوم. وعلى سبيل المثال، فبعد أن نجحت القوات المصرية في قمع الوهابيين ، فإن السلطان العثماني لم يخف قلقه إزاء التواجد الدائم للقوات المصرية في شبه الجزيرة العربية، فقد تساءل على هامش أحد التقارير بشأن عودة إبراهيم باشا إلى مصر قائلاً:

«لا توجد في الأوراق التي قدمت إلى جلالة ملكنا، فقرة تفيد بعودة إبراهيم باشا إلى مصر، فإن بقيت لديك، فقدّمها»[١].

فاتحو نجد

في صيف العام (١٢٢٧هـ / ١٨١١) دخلت أول دفعة من القوات المصرية بقيادة طوسون باشا، شبه الجزيرة العربية. وفي خريف تلك السنة نفسها، سقط ميناء ينبع واستولت قوات طوسون باشا على نقطة إستراتيجية مهمة كان من شأنها أن تلعب دور الداعم في تأمين الناحية اللوجستية، المؤونة والتجهيزات للجيش المصري[٢]. وقد حدث الخطأ الإستراتيجي لشريف مكة في هذه الأثناء: فعندما أرسل محمد علي باشا، التاجر المصري محمد المحروقي إليه لطلب الدعم والمساعدة[٣]، فإنه امتنع عن مرافقة القوات المصرية ودعمها متذرعاً ببعض

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00762-36021-00001.

٢. واسيليف، ص ١٧١.

٣. عبدالرحمن الرافعي، عصر محمد علي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١، ص ١٣٢، محمد مرسي عبدالله، إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى ١٧٩٣ ـ ١٨١٨، القاهرة، المكتب المصري الحديث، ١٩٧٨، ج ١، ص ٢٤٧.

المعاذير[١]. وقد أدى هذا الخطأ الكبير إلى أن ينهي محمد علي باشا في مكة بعد مدة قصيرة إمارة أسرة الشريف في الحجاز[٢]، فنقلها إلى القاهرة أولاً ثم نقل الشريف[٣] إلى سلانيك[٤]. ثم قدم محمد علي الشريف يحيى بن سرور كشريف

١. جرالد دو غوري، صص ٢٣٠ـ٢٣٢.

٢. دخل مكة محمد علي في سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م مع ابنه طوسون باشا. انظر: عبدالفتاح حسن أبو عليه، ص ٧١.

٣. نظراً إلى الإشارات العديدة إلى شريف مكة وتغيير تصرفاته واتجاهاته في المراحل المختلفة من ترغيب الدولة العثمانية في مواجهة وهابيي نجد، أو ـ مثلاً ـ التعاون مع سعود ومبايعته ونقض ذلك، وكذلك الارتباط مع الفرنسيين ثم المشاركة مع قوات بريطانيا البحرية في الحرب ضدهم، الهروب من مدينة مكة وتركها عزلاء أمام هجوم الوهابيين أو مقاومتهم والنزاع معهم، فبإن بالإمكان الاقتراب من هذا التحليل وهو أن المؤلف يرى أن شريف مكة وبغض النظر عن خصوصياته الذاتية وانتهازياته الشخصية، كان ملتفتاً أساساً في كل مرحلة ولاتخاذ أي قرار إلى عامل مهم ألا وهو التجار المكيون وتجارتهم. لم تكن هذه السمة البارزة تساعده هو وحده وحسب، بل جميع حكام مكة من عهد البعثة فصاعداً، وكان يضمن من خلال تأمين إمكانية الوصول إلى هذه المدينة واستمرار حج الحجاج من أقصى العالم، تواصل ازدهار الحياة الاقتصادية لهذه الطبقة المهمة من المجتمع المكي. ولذلك فإن هذه الملاحظة نفسها هي التي تهيء مقدمات علاقات تتجاوز نطاق الدولة للشريف مثل التجارة مع زعماء الهند، وكانت قد أدت إلى أن يسوء ظن الدولة العثمانية به..

٤. صلاح الدين المختار، ج ١، ص ١٢٩، توفي الشريف في عام ١٢٣١هـ في سلانيك. (انظر: ابن بشر، ج ١، ص ٣٣٨) ويبدو من دراسة الوثائق العثمانية وخاصة تلك المخطوطة بيد السلطان على هامش أحد تقارير الصدر الأعظم أن السلطان كان قد فقد ثقته بالشريف ورفض أن يكتب له رسالة تطيب للخاطر إلى الشريف رغم إصرار محمد علي باشا وأمر صدره الأعظم قائلاً: «إن كان شريف مكة قد تملق لمحمد علي باشا ولوّح للاتّحاد في الظاهر، فإن من الواضح أنه سوف يتلون خوفاً من فقدانه لجدة. وقد أوكلت مصالح الحجاز حتى الآن إلى الله تعالى أولاً ثم إلى عهدة لياقة المشار إليه بخطي الملكي. وما لم ترد تحريرات من جانب [محمد] علي باشا بالموافقة على المساعدة وخدمة شريف مكة المكرمة من وجهة نظر المشار إليه وشكره، فإنه لا يقتضي شيئاً من

←

مكة من الناحية الشكلية[1].

وفي ذي القعدة من تل السنة نفسها حدث أول صدام واسع بين القوات الوهابية والقوة المصرية. وقد كانت قوة الوهابيين تضم ٤ آلاف من المشاة و ٥٠٠ من الخيالة بقيادة عبدالله بن مسعود، وواجهت القوات المصرية قرب آبار بدر حنين في حين أن ٤ من أمراء الجيش السعودي كانوا يدعمونه. وأدت القيادة المشتركة لعبد الله ابن سعود مع أبي محمد. ابن شكبان، مسعود بن مضيان وعثمان المضايفي وابن جبارة، إلى أن يهزم الجيش ويتفرق عند الصدام الاول[2].

→ جانبي. اكتب إلى محمد علي باشا هكذا. بأن يكون مقيداً بتنفيذ الأمور حسب الاقتضاء وحسب الأصول وإذا ما اقتضى الأمر فاكتبوا بعض التحريرات إلى شريف مكة». في هذا المجال انظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00613-30104-00001. وقد جاء في بعض المصادر تقرير حول تبادل المراسلات السرية بين الشريف ومحمد علي باشا وإذا ما افترضنا صحة هذه الرواية فإن بالإمكان أن نتصور من أين صدرت جذور إصرار محمد علي على السلطان للمحافظة على الشريف. وبالطبع فقد كان هنالك اتهام آخر من جانب الباب العالي للشريف، فضلاً عن هذا الدليل. وفي الحقيقة فإن الشريف كان قد هيأ قناة الارتباط من خلال الرسائل بين نابليون وبعض ذوي السلطة في الهند عند احتلال الفرنسيين لمصر. في هذه الشأن انظر: عبدالعزيز نوار، تاريخ العراق الحديث في نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧، ص ١٩ وأيضاً حسام محمد عبد المعطي، العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ويبدو هذا الاتهام مقبولاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار التصريحات المدرجة في محضر محاكمة عبد الله باشا ابن مسعود والتي يدور الحديث فيها عن انتقال خزائن الحرم النبوي عن طريق الشريف بواسطة صهره العطاس إلى الهند. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00344-19627-00001.

١. ر.ك. سنوك هورخرونيه، ج ١، ص ٢٧٤.

٢. الوثيقة رقم ١٩٥٤٤ المؤرخة في ١٩ (من ذي الحجة على الأرجح) ١٢٢٦هـ تتضمن تقرير محمد علي باشا إلى الباب العالي، نقلاً عن العجلاني، نفس المصدر، صص ٢٨٦ـ٢٨٩ كما وانظر ←

ويبدو أن هذه المواجهة حدثت عندما كانت القوات السعودية في حالة العودة من العراق ومن إحدى الغزوات على الحلة بقيادة عبدالله بن سعود[١].

وقد أثار خبر معركة بدر حنين، اهتمام حكومة خديوي مصر. وقرر محمد علي باشا بعد أن أدرك الظرف الخطير لابنه طوسون باشا، أن يتلافى الهزيمة في المواجهة الأولى من خلال فتح رمزي: فقد دخلت قوة الإسناد من جانب مصر، ينبع ثم مخيم طوسون باشا. وفضلاً عن تجهيز القوات العسكرية فقد تم توزيع مبالغ كبيرة من جانب صاحب خزانة محمد علي باشا بين قبائل هذه المنطقة ومنها مشايخ قبيلة بني حرب[٢]. وقد نشرت القوات المصرية بعد ذلك مخيمها العسكري في شمال المدينة ومن جهة أخرى، فقد كانت أخبار الانتصار في معركة بدر حنين قد أدت إلى الهدوء الفكري النسبي لسعود بن عبدالعزيز والوهابيين، ذلك لأن قواتهم القليلة العدد كانت قد استطاعت التغلب على القوة المصرية في شبه الجزيرة العربية. وكان سعود بن عبدالعزيز لا يعتبر تواجد الجيش المصري في شبه الجزيرة تهديداً كبيراً كما كان الحال بالنسبة إلى قوات شريف مكة أو ولاة بغداد. ولذلك فقد فضل سعود بن عبدالعزيز بكل هدوء، الحضور في مراسم الحج، على المواجهة الفورية للجيش المصري كما حاصر الجيش المصري المدينة مستغلاً هذه الفرصة. كما لم تكن هنالك جدوى من

← أيضاً للاطلاع على التقرير الدقيق للحرب، نفس المصادر، الوثيقة ١٩٤٥٥ ـ آ. إن تقرير أحمد طرسون باشا إلى محمد علي باشا موجود في صص ٢٩١ ـ ٢٩٤.

١. ابن بشر، صص ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

٢. الدحلان، خلاصه الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، القاهرة ١٣٠٥، ص ٢٥٩. اعتبر أحد الباحثين الأوروبيين «الذهب والخيانة» عامل نجاح القوات المصرية. في هذا المجال انظر: ك. سنوك هورخرونيه، ج ١، ص ٢٧٣.

عزل حاكم المدينة آنذاك حسن القلعي واستخلاف عفيصان من جانب سعود[١]. وبعد ثلاثة أسابيع، سقطت المدينة أخيراً بيد الجيش المصري. وحدثت المعركة الرئيسة في منطقة الجديدة واستطاعت القوات المصرية الجديدة بقيادة أحمد بن نابرت، الخازن الخاص لمحمد علي باشا، أن تدخل المدينة وتهزم القوات السعودية من خلال إحداث نفق من منطقة مقبرة البقيع[٢].

ويدل تغير الأوضاع على بداية عهد جديد في حياة «التفاهم السعودي الوهابي» لحكومة نجد والحجاز المستقلة. وكانت طرق اتصالات شبه الجزيرة العربية مع مصر في الغرب، العراق والشام في الشمال قد أغلقت بشكل كامل. وكان استمرار هذا الوضع الصعب، من شأنه أن يهدم بناء الدولة السعودية الوهابية. وكان تهديد إيران ما يزال قائماً ولم يتجاهل سعود في إطار التحليل السابق على ما يبدو تزامن اهتمام الدولتين العثمانية والإيرانية، أحدهما من مسار مصر والآخر من جهة عمان. وعلى هذا الأساس نفسه، فقد دخل ممثلو سعود بن عبدالعزيز البلاط القاجاري بهدف تقييم أهداف إيران وتحت غطاء تشجيع الحكومة الإيرانية على إرسال الحجاج إلى الحرمين الشريفين بشكل مستقل:

«التمس ثلاثة من أعراب بادية نجد من جانب الشيخ سعود ابن الشيخ عبدالعزيز الوهابي، حاملين معهم عريضة وهدايا كان من جملتها قطعة زمرد بحجم قبضة اليد وكانت صافية وريانة وشفافة ومضمون تلك العريضة، أن يقرر حجاج العجم بعد ذلك بأن يختاروا نجداً لتقصير المسافة فرعوا فيهم حق الوداد،

---

١. تتضمن الوثيقة ١٩٥٧٨ رسالة طوسون باشا إلى أبيه محمد علي باشا نقلاً عن العجلاني، نفس المصدر، ص ٣٠٩.

٢. عرف هذا الصراع بـ«واقعة الجديدة» في النصوص المحلية. انظر: إبراهيم بن صالح بن عيسى، ص ١٠١ ـ ١٠٢، نفس المصدر ص ١٠٢؛ انظر: ابن بشر، ج ١، صص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

ولا غرو ذا الرسوم بين الجانبين محفوظة والقلوب من الود مخطوطة»[١].

وبالطبع فإن علينا أن لا نستبعد وضع نجد السياسي الاقتصادي في تلك السنين[٢]. ويدل الجواب الذي كتبه الصدر الأعظم لإيران آنذاك إلى «سعود الوهابي حاكم نجد والحجاز» يدل على أن جهاز صدارة إيران العظمى لم يكن على علم بدقائق الأحداث وتفاصيلها أو لم يكن يتمتع بإمكانية تقييمها بشكل صحيح ودقيق؛ ذلك لأنه كان يقدم جواباً إيجابياً على رسالة سعود دون الالتفات إلى أحداث شبه الجزيرة العربية، بل إنه كان يؤكد حتى على رعاية أحوال قوافل الحجاج الإيرانيين المرسلة[٣].

---

١. فارسنامه ناصري، ج ١، ص ٧١٠، أيضاً: ناسخ التواريخ، ج ١، ص ١٥١.

٢. بشأن أوضاع نجد طيلة تلك السنين، أنظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00342-19575-00001.

٣. هذا هو نص جواب الصدر الأعظم لإيران آنذاك: «سلام أزهي من الزهر وأبهى من الدرر موشحاً به صدر الوداد منوراً منه روض الاتحاد على حضرة علية بهية قد علا بها جبل النجد وانبسط لها بر المجد. برها على البرية بحر في البر يتموج وجودها على الخليقة فجر من الجبل يتبلج، سلكت قوافل الارب مخلاة السرب إليها فلا زالت رواحل المجد معقولة الزند لديها. وبعد لا يخفى عليكم أنه عرض مراراً سراً وجهاراً على الحضرة السنية العلية الخاقانية أعلى الله علاها أن خدمكم لا يزالون يسعون في رعاية عابري ذلك السبيل وقاصدي بيت الله الجليل سيما مسافري هذه البلاد فرعوا فيهم حق الوداد، ولا غرو ذالرسوم بين الجانبين محفوظة والقلوب من الود محظوظة. فلما انكشف الأمر انتشر النهي في هذه الممالك عن سلوك طريق غير تلك المسالك، فشد الرحال إلى تلك المحال على حسب الحكم المتعال، واذا قصد السيد الجليل والحبر النبيل ذو الحسب المنيع والنسب الرفيع مقتدى الأنام علامة الأيام ميرزا هدايت الله مع أخويه المحترمين زيارة الحرمين المكرمين، وتبعهم جم الحجاج وهم هموا بذلك المنهاج. ونرجو منكم ان تلتفتوا إليهم بعين العناية وتأمروا أتباعكم وأشياعكم بحسن الرعاية فاسلكوهم إلى أرض التهامة وارجعوهم إلى البلد الأمين في سعة الوقت آمنين». ر.ك. مدرسي طبابطائي، ص ٥٧ وأيضاً المخطوطة رقم ٥٣٤٨، مكتبة مجلس الشورى الإسلامي.

ويروي مدرسي طباطبائي، أن قافلة الحجاج الإيرانيين توجهت إلى الحرمين الشريفين على أثر «التصالح بين إيران ونجد». وانطلق أمير الحاج الإيراني، الميرزا هدايت الله برسالة الحكومة الإيرانية، نحو مكة والمدينة عن طريق بندر عباس عمان، الطائف ونجد[1]. وفي ظل هذه الظروف، أرسل إمام اليمن الزيدي الذي كان على علم بدعم حكومة إيران لإمام مسقط، وربما كان قد شعر بالقلق من أرسال ممثلي سعود إلى بلاط إيران، ممثلين إلى فتح علي شاه بهدف الحصول على مساعدة الحكومة الإيرانية. وقد شرح السفراء المذكورون ووصفوا الممارسات الظالمة للقوات الوهابية وتطورات شبه الجزيرة العربية[2]. وتختلف لهجة جواب فتح علي شاه لإمام اليمن، عن لهجة جواب عبد العزيز، ففي الرسالة الأولى، اعترف الملك القاجاري من الناحية العملية بحكم سعود لنجد والحجاز باعتبارها حكومة وهابية، بل إنه أكد على العلاقات الودية الثنائية أيضاً. في حين أنه تحدث في رسالته إلى إمام اليمن، عن السلوك الشنيع لسعود وفساده وفتنه[3].

---

١. مدرسي طباطبائي، صص ٥٦ ـ ٥٧. يبدو أن طريق نجد كان يعتبر ممراً مناسباً للحجاج الإيرانيين رغم الأحداث اللاحقة، بحيث أن الحجاج الإيرانيين واستناداً إلى الأخبار المتوفرة، كانوا قد اهتموا بالمرور من نجد ودفع حق المرور إلى الوهابيين الساكنين في ذلك الموضع حتى بعد بضعة عقود من هذا العهد. انظر في هذا المجال: وليم جيفورد بالجريف، وسط الجزيرة العربية وشرقها(١٨٦٢ـ١٨٦٣)، ترجمة صبري محمد حسن، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠١، ج ١، صص ٣٢٠ ـ ٣٢٣.

٢. جاء خبر هذه المهمة في المصادر الفارسية كالتالي: «قدم اثنان من العرب الفصحاء اللسان البليغي البيان، إلى البلاط العادل بعريضة إرادة الترجمان من جانب إمام اليمن ومضمون العريضة أنهم اشتكوا إلى الملك المحضوض من اعتداءات سعود اللامسعود ملك نجد». انظر: فارسنامه، ج ١، ص ٧٠٩.

٣. هذا هو نص رسالة فتح علي شاه إلى إمام اليمن الزيدي: «أدام الله عزه وأقام نصره ومتع به المسلمين وأيده لنصرة الدين. فأنه وصل إلى حضرتنا كتابك أحسن الله تعالى مآبك مبتدئاً

←

والسؤال هو: هل الحكومة الإيرانية ، كانت قد اتخذت سياسة مزدوجة إزاء أحداث شبه الجزيرة العربية؟ أم إن ضعف تحليل أحداث المنطقة ومعرفتها بالشكل الصحيح، كانا قد أديا إلى أن يبدي فتح علي شاه القاجاري رد فعل مختلفاً؟ إن دراسة سياسة إيران الخارجية في هذا العهد تبرز حقيقتين . الأولى مبدأ الاضطرار ثم ضعف مؤسسة السياسة الخارجية.

ورغم أن السلسلة الجديدة التي كانت قد أسست بفتوح آقا محمدخان القاجاري، كانت تنوي في البدء الانتفاع من تجارب رجال الحكم في العهد السابق مثل الميرزا إبراهيم خان كلانتر، إلا أنها واجهت الكثير من الصعوبات بعد فترة قصيرة من ذلك بسبب قلة تجارب المحيطين بالملك وكذلك السلوك القبلي للأسرة القاجارية. وقد فقد انتظام الأمور مساره ويبدو أن عمّال حكومة فتح علي شاه القاجاري كانوا قد ابتلوا بنوع من النظرة السطحية حتى نهاية المرحلة الثانية

← بتحميد الله الحميد وتمجيد رسول الله المجيد. حاوياً حالات تلك الحدود، حاكياً ما جرت عليها من تطاولات سعود، مبشراً باشارات المنام. يا حبّذا إن صحت الأحلام، شارحاً استجنادك من معاشر المسلمين لدفع الكفرة والمشركين، ناصراً لدين الله طالباً بذلك رضاه مهدياً بهداه. أما ما ثبت في طي الذريعة من استيلاء الوهابية وأفعالهم الشنيعة، بلى قد استووا أولا على بلاد النجد وما والاها ثم الحجاز وما جاورها فتسامح في أمرهم الولاة والأشراف وتساهل حماة الأطراف، حتى انبسط الغي براً وبحراً وانتشر الشمس شرقاً وغرباً، فانحدروا يميناً وشمالاً وتكثروا رجالاً ومالا. هتكوا حمى الدين وسفكوا دم المسلمين. كأنهم رأوا حومة الإسلام بلاحام وراع فسرحوا فيها بلا رهب ولا ارتياع، وتركوا حماة تلك الثغور كأنهم سقوا كأس الحتوف وكم بلغوا بحيلتهم ما ليس يبلغ بالسيوف، وللزمان صروف نهضة ووقوف ثبت ومحو تكدر وصفو، كم صلحت الأمور بعد فسادها وانسدت الثغور بعد نفادها وانطفت الفتن بعدما صلت وغيضت الدواهي بعد ما جرت. ولطال ما كانت الدعايم انثلمت والمناظم انخرمت والأمور مارت والفتن ثارت والرسوم تغيرت والسنن اضطربت، فصرف الله ذلك عن أوليائه ونصرهم على أعدائه. ان ذلك على الله يسير وإلى الله المصير. كم من حق مال فاد إليه وكم من باطل ضال فاز إليه وليعلموا آنائه. والسلام». ظ: مدرسي طباطبائي ، ص ٥٢؛ أيضاً: المخطوطة رقم ٥٣٤٨، مكتبة مجلس الشورى الإسلامي.

من الحروب بين إيران وروسيا خاصة وإن الأشخاص الخبراء كانوا قد وظفوا مرة أخرى. وبالطبع فإن الحرب الإيرانية الروسية كانت قد كرست بدورها هذا الوضع. ويؤيد التدقيق في الوثائق الدبلوماسية واتفاقيات إيران مع حكومة بريطانيا ومقارنة تعهدات الطرفين واتفاقاتهم مع السيرجان ملكم والسير هارفورد جونز أن عمّال الجهاز الخارجي لإيران كانت تتوفر لديه في تلك المرحلة صورة غامضة عن حاجاته ومقدرة الطرف المقابل. ولذلك، فإن مستوى الاتفاقات لم يكن متكافئاً ولم تكن توجد في مثل هذا الجو معرفة موضوعية وشاملة لأحداث أقل أهمية مثل تطورات نجد والحجاز[1].

أفول حظ «دولة نجد والحجاز المستقلة»

تزامناً مع هذه التطورات، كانت في شبه الجزيرة العربية تغيرات جذرية في

---

١. بعد العهد الأول من الحروب بين إيران وروسيا وكذلك خلال مرحلة من العهد الثاني لهذه الحروب، لوحظت سلوكيات مقترنة بالدقة والاهتمام الأكثر بقضايا مجال السياسة الخارجية من قبل الحكومة القاجارية. وقد تجلت ذروة قدرة المسؤولين التنفيذيين في ساحة السياسة الخارجية في ذلك العهد في تنظيم ملاحق معاهدة تركمانجاي. ويجب أن لا ننسى أن إيران دخلت مفاوضات السلام باعتبارها بلداً مهزوماً إزاء القدرة الغالبة لروسيا. ولا شك في أن معاهدة تركمانجاي كان لها آثاراً سيئة وعواقب أليمة لإيران، إلا أن بالإمكان أن ندرك من خلال الحكم الدقيق ودراسة كلمات معاهدة تركمانجاي وملاحقها أن بنية خبرة مؤسسة العلاقات الخارجية للدولة القاجارية في هذه المرحلة أصبحت تتمتع بعلم متزايد أكثر بالنسبة إلى المرحلة السابقة: إذ يمكننا أن نلاحظ روح الدفاع عن الأرض والمصالح الوطنية والتي كان الجنود الإيرانيون قد جسدوها في ساحة المعارك العسكرية البطولية من خلال سطور ملحقات هذه المعاهدة. وتدل هذه المواضع على الروح القتالية وصمود الأطراف الإيرانية المفاوضة للدفاع عن المواقف السيادية والمصالح الوطنية. وللأسف فإنه لا يتوفر لدينا محضر عن المفاوضات الأولى لتنظيم هذه المعاهدة ومعلوماتنا حول ما حدث عند كتابة معاهدة تركمانجاي وملحقاتها قليلة ومحدودة للغاية.

حالة الحدوث: فقد نسيت قبيلة بني حرب والبعض الآخر من قبائل الحجاز تحالفها مع القوات السعودية واتجهت إلى التعاون مع قوات طوسون باشا على إثر مشاهدة الحقائق العسكرية على الأرض وبعد أول هزيمة لقوات سعود في رجب ١٢٢٨هـ/١٨١٢م في حوالي المدينة[١]. وتُظهر هذه الأحداث في الدرجة الأولى إلى أي مدى كانت السياسة الأولية للدولة العثمانية ضعيفة في التعامل مع حادثة ظهور الوهابيين في الحجاز ونجد. وقد دخل محمد علي باشا نفسه في شعبان من تلك السنة نفسها جدة ثم مكة في ذي القعدة. وكانت قيادة جيشه، قد سيطرت على هاتين المدينتين قبل دخوله دون حدوث اشتباك مهم[٢].

ويبدو أن أهالي مكة استقبلت القوات المصرية طواعية وعن رغبة منهم[٣]. وأعلن محمد علي باشا الذي كان قد دخل هو نفسه جدة على رأس قوة إسناد والكثير من التجهيزات، عزمه الجاد لحكومته على حسم أمور نجد[٤]. ثم انطلقت قوات طوسون باشا نحو الطائف قرب مكة. وكانت المقاومة الجادة الوحيدة في معركة الطائف بين عثمان المضايفي والقوات المصرية، وهي المعركة التي أدت إلى موت القائد المعروف للقوات الوهابية[٥]. وقد سبقت الإشارة إلى أن خديوي مصر، محمد علي باشا عزل الشريف ونقله إلى القاهرة في هذه الأثناء نظراً إلى سلوك الشريف غالب وعلى إثر إصرار السلطان العثماني. كما لوحظت بسرعة

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00342-19575-00001.

٢. صلاح الدين المختار، ج ١، صص ١٢٧ـ١٢٦.

٣. تم الاستيلاء على المدينة دون حرب. انظر: ابن بشر، ص ٣٣١.

٤. عبدالفتاح حسن أبو علية، ص ٧٠

٥. ابن بشر، صص ٣٣٤ـ٣٣٥، أيضا للاطلاع أكثر، انظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية : HAT-00082-03381-E-00001. أيضاً عن التقرير المرسل من قبل والي بغداد سعيد باشا للباب العالي، نفس المصدر، Hat-00082-03381-b-00001.

تأثير أحداث الحجاز على المناطق الأخرى من شبه الجزيرة العربية. وطلب حاكم البحرين الذي كان يكيف نفسه قبل ذلك مع سياسات نجد، المساعدة من الحكومة الإيرانية[١].

عبدالله بن سعود، خليفة عديم الحظ !

أخذت القوى الجسمية لسعود بالتدهور بنفس النسبة التي ضاع عبرها تراث سنين طويلة من صراع سعود بن عبدالعزيز ونزاعه في الهجوم على المناطق المختلفة، بحيث أنه تجرع كأس الموت في جمادى الأولى من السنة التالية وبعد أقل من سنة من سقوط مدن الحجاز[٢]. وكانت الخسارة الأخرى التي تكبدتها قوات نجد، انتشار مرض الوباء (الكوليرا) في هذه المنطقة[٣]. وهكذا، فقد انفرط عقد الأمور بشكل كامل.

واستناداً إلى الأخبار المتوفرة، فإن الممثل الذي كان قد أرسل إلى بوشهر من جانب نجد لكسب ود القوى الأخرى المتنازعة، عمد إلى الحوار لتحقيق التفاهم كممثل سياسي تجاري لبريطانيا[٤]. ويبدو أنه استطاع أن يثير المزيد من اهتمام بريطانيا بالمنطقة. وفي سنة ١٢٣٠هـ / ١٨١٤م نفسها وتزامناً مع اتصال القوات الوهابية مع عمّال بريطانيا في بوشهر، قررت الدولة العثمانية أيضاً أن تقدم لسفير

---

١. مدرسي طباطبائي، ص ٣٣.

٢. ابن بشر، ج ١، ص ٣٦٤، صلاح الدين المختار، ج ١، ص ١٣٣.

٣. المصدر السابق، ص ٣٦٦.

٤. استناداً إلى رواية المصادر البريطانية فإن هذا لخبر يبدو من لهجة روايته أن اتجاه بريطانيا السياسي حيال الوهابيين قد تغير، رغم أنه لم يتم التوقيع على مذكرة تفاهم. انظر: لوريمر، ج ١، صص ٣٠٨ـ٣٠٩.

بريطانيا في إيران الأوسمة والهدايا الخاصة إزاء خدماته[1].

وليس من الواضح أي خدمة كان هذا السفير قد قدمها للدولة العثمانية كي يستحق «الهدية الخاصة»، إلا أن السياسة الإقليمية لبريطانيا تجسدت اعتباراً من هذه السنين وما بعدها بشكل مشهود وفي حجم متميز عن السابق في قالب سلوك جديد.

وكان انتشار أخبار أحداث شبه الجزيرة العربية وبسبب الأواصر النَسبَية والعرقية بين قبائل مناطق من الشام والعراق مع شبه الجزيرة العربية، قد أدى إلى أن تثور مجموعة كبيرة من عشائر مناطق حماه وحلب في الشام على الدولة العثمانية[2]. وكرد فعل على ذلك، أصدر محمد علي باشا مرسوماً ينم عن وحشية؛ فقد كان يدفع ستة ريالات إلى محاربي جيشه إزاء جثة كل واحد من القوات الوهابية، بموجب إعلان مخيم خديوي مصر[3].

ودخل أحمد طوسون باشا في طريق فتوحه، وادي القصيم على أعتاب الدرعية. وقرر عبدالله بن سعود أمير القوات الوهابية، والذي كان قد خلف أباه بعد موته، حيث كان إخوته قد هبوا لمعارضته طبعاً في طريق الانتخاب والبيعة حسب رواية المصادر غير المحلية، أن ينقذ الدرعية في أسرع وقت ممكن ولذلك، فقد أرسل وفداً إلى طوسون باشا في الهنجاوية للمصالحة[4].

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-1275-49484-29Z 1230.

٢. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00345-19683-00001.

٣. المصدر السابق، نفس الصفحات.

٤. كتب طوسون في تقرير إلى أبيه: «تم إرسال بضعة أشخاص من مبعوثيه ضمن طلب العفو عن الجرم السابق متمنين أن يحصلوا من الآن فصاعداً على منزلة الرعية السلطانية بالاستئذان في موضع مزرعة صغيرة باسم الهجناوية الواقع على بعد ٣ ساعات من خيم هذا المخلص إلى هذا الجانب واطلعنا من خلال إمعان النظر في المراسلات التي حررت مراراً ومع الأخذ بعين الاعتبار تقارير مبعوثيه أنه تجنب كلياً وحقيقةً الشناعة والحركات القبيحة التي ارتكبها والده المتوفى

←

وكان أحد شروط صلح القوات المصرية، تأدية الخراج للدولة العثمانية[۱]. ويبدو أن نفس المرض الذي أدى إلى موت سعود، أدى أيضاً إلى موت أحمد طوسون باشا قائد القوات المصرية قرب الدرعية[۲] وانسحب الجيش المصري على أثر فقدان قيادته. وبمجرد أن التهديد قد زال، اتجهت القوات الوهابية المتبقية إلى المقامة والاشتباكات المتفرقة[۳].

وما لبث محمد علي باشا بعد أن أدرك هذه الظروف أن عين ابنه إبراهيم باشا على رأس القوات الجديدة وأوكل إليه مسؤولية بدء العمليات الجديدة في شبه

← وسوف يتعهد من الآن فصاعداً أن لا يتدخل ولا يتعرض بأي شكل من الأشكال سوى فيما يتعلق بعرب الدرعية وحواليها وأن تكون كافة البلاد والرعايا)) مستقلة دوماً في ظل الطاعة وجناح عدالة صاحب التاج، وان يتلى الاسم الملكي الشهير في الأوساط ومنابر القراءة ولا تنحرف عن طريق الصلاح والطاعة، وباختصار فسوف تزال من لسان العرب بشكل كامل كلمات الوهابية ولفظها المخالفة للشرع الشريف وسوف يبذلون وسع المقدرة كيفما يصدر الأمر الملكي وبكل ما يؤمرون به وسوف لا يقصرون في تنفيذه» أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00344-19630-00001.

۱. ابن بشر، ج ۱، صص ۳۷۹ ـ ۳۸۷.

۲. ذكر الجيرتي موته في ۷ من ذي القعدة من السنة التالية.

۳. أشار مسؤول جمارك ينبع في تقريره قائلا: «اتبع عرب الشرق الذين كانوا في طرفنا، عبدالله، إلا أنه ليس من المحدد أنّى سيتجه المذكور ولذلك، فإن عرب جهينة وحرب والذين يؤيدوننا، يشعرون بالقلق هم أيضاً. كما تسمع في طريق المدينة المنورة أحياناً حالات الخطر» أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00344-19630-00001. وكذلك عن تأثير هذه الحوادث في نجد نفسها، أنظر: نفس الصفحة HAT-00545-26955-E-00001.

وقد ذكر محمد علي باشا في تقرير آخر: «يبدو من مفهوم التقارير أن عبدالله المذكور خرج مؤخراً من الدرعية وهو ينفذ أنواع الملاعن كي يهيمن على عشائر العرب. كما تدل التقارير المذكورة على أنه منشغل بالتجوال في موقع قريب من الموضع المسمى بالحناكية والذي يبعد عن المدينة المنورة بمنزلين أو ثلاثة منازل»: لمطالعة اصل التقرير، انظر: نفس الصفحة HAT-00545-26955-00001.

الجزيرة العربية[١]. وكانت المسألة المهمة بالنسبة إلى القوات المصرية منذ موت طوسون باشا في شوال ١٢٣١هـ وحتى دخول قوة إبراهيم باشا لفتح الدرعية، إمكانية تحرك الجيش في داخل الصحراء. وكان من المقرر أن يدخل حوالي عشرة آلاف جمل نجداً نظراً إلى عدد أفراد الجيش الجديد، إلا أنه حصل تأخير، وأتاح الوقت للقوات الوهابية المتفرقة[٢].

وفي العام ١٢٣٢هـ/١٨١٦م دخل الجيش الجديد شبه الجزيرة العربية. وأمر عبدالله بن سعود بالجهاد لمواجهة المرحلة الثانية من حملة خديوي مصر وأن دماء المهاجمين مباحة[٣] بل إنه أفتى بارتداد الأشخاص الذين كانوا قد أعرضوا عنه في الحجاز[٤]. وحدثت المصادمة الأولى في ضاحية المدينة: وكانت المقاومة مستمرة بشكل متواصل من المدينة وحتى منطقة جبل شمر، ثم بئر ماوية. وأخيراً، هُزم جيش عبدالله ابن سعود المؤلف من ٢٠ ألفاً في ٢٥ رجب ٢٣٢هـ/١٨١٦م في منطقة جبل شمر وأسر أبناء عبدالله وبناته من قبل جيش إبراهيم باشا[٥]. كما انتهى النزاع التالي في منطقة بئر ماوية بالهزيمة بعدست

---

١. ابن بشر، ج١، ص ٣٨٤؛ أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية:
HAT-00545-26955-00001

٢. المصدر السابق، انظر: HAT-00545-26955-00001. كان موضوع تأمين الجمال لنقل الجيش والتنقلات أحد الهواجس الرئيسة والجدية للقوات المصرية في الهجوم على نجد.

٣. قد أفتى قائلاً: «اقرأ هذه الرسالة لأهل الأدغال وانشرها في كل مكان، سواء على الخواص، أم على العوام وإذا ما حدثت حالة القتال فإن تلف مال أحد، أو روحه، فهي في سبيل الشرع والشرع بدوره يرضي الجميع. وأفهم عمّال الأدغال أن يعطوا سواء من المؤونة أم العلوفة. وهو ما آمله». انظر في هذا المجال: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-0064-36070-E -00001.

٤. هذا هو نص الفتوى: «لقد أضل الشيطان أهل الحجاز وارتد البعض منهم حيث أصبحوا طعاماً للسيوف». أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00764-36070-00001.

٥. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00341-19537-00001.

ساعات[١]. وتشير تقارير ساحة القتال إلى مصالحة أهالي معظم المدن مع إبراهيم باشا[٢].

وبالطبع فإن من الواجب أن نأخذ بنظر الاعتبار إلى حد ما قساوة القوات المصرية[٣].

وعلى سبيل المثال، فقد أمر إبراهيم باشا بعد الصدام الأول في أطراف المدينة، حيث ولي الجيش الوهابي الفرار بعد أن ترك ٦٠٠ قتيل و١٥٠ جريحاً و٣ مدافع و٥٠٠ بعير، بقطع آذان أجساد القتلى[٤]. وأن ترسل مع تقرير إلى أبيه الخديوي محمد علي باشا. فما كان من خديوي مصر إلا أن أرسل في الفور تقريره مع الملاحق المذكورة إلى الباب العالي[٥].

---

١. المصدر السابق، نفس الصفحات:

HAT-00343-19584-00001, HAT-0631-D312020-00001.

٢. تحدث ابن بشر في معظم المواضع عن مصالحة أهالي المدن مع إبراهيم باشا حيث من شأن ذلك أن يؤيد رغبه غالبية الأهالي، في تفوق المصريين على الوهابيين. ابن بشر، صص ٣٨٧ ـ ٣٩٣. للاطلاع على رواية الطرف المصري انظر التقرير الذي أرسله إبراهيم باشا لأبيه، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00762-19700-00001.

٣. تؤيد تقارير وقائع الحرب الاشتباكات الضارية والمقاومة العنيدة للوهابيين في مقابل جيش خديوي مصر. وقد وصفت الروح القتالية لهذا الجيش بشكل بحيث أن السلطان تحمس هو أيضاً وكتب في هامش أحد التقارير قائلاً: «اطلعنا على رسالة والي مصر هذه والأوراق الواصلة من جانب ابنه إبراهيم باشا إليه. وأنا لا أجد كلاماً في وصف سعي هؤلاء الأشخاص وحميتهم في قضية الحجاز. فلينصرهم الحق تعالى وليسهل الإحسان إليهم! وسوف توفقون إن شاء الله بختامه ببركة الروحانية العلية لسيدنا صاحب السعادة، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00346-19700-00001.

٤. أرسل إبراهيم باشا في مرحلة واحدة، ٧٠٠ «أذن مقطوعة» إلى الباب العالي. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00762-36021-00001. ، HAT-00342-19541-C-00001

٥. المصدر السابق، HAT-00345-19685-A -00001.

وقد استمرت الاشتباكات طيلة العام ١٢٣٣هـ/١٨١٧م أيضاً وكانت انتصارات إبراهيم باشا تتزايد بشكل مستمر. ولذلك، فقد زال التضامن بين القوات الوهابية وداعميها شيئاً فشيئاً، بحيث أن محمد ابن مشاوي وعلي بن شيخ، عمي عبدالله استسلما للقوات المصرية[١]. واستناداً إلى رواية سعيد باشا والي بغداد وبتمهيداته، فقد بدأ الحليف الوهابي السابق، شيخ الكويت بدعم من عربات المدافع قمع القوات الوهابية في منطقة بني خالد. ويبدو أن بعض التسليحات قد تم تأمينها وإرسالها من جانب والي العراق لإبراهيم باشا في نجد[٢].

نهاية «دولة نجد والحجاز المستقلة»

وأخيراً وبعد حرب ضروس في ذي الحجة ١٢٣٣هـ/أيلول ١٨١٨م، سلم عبدالله بن سعود نفسه لقوات إبراهيم باشا[٣]. كما استسلمت الدرعية في الثالث من ذي القعدة في تلك السنة نفسها، بعد ٧ شهور من الحصار وموت ١٤ ألفاً وأسر ٦ آلاف[٤].

---

١. كان هو نجل سليمان باشا أبي المماليك.

٢. المصدر السابق، HAT-00341-19529-00001.

٣. ابن بشر، ج ١، صص ٣٩٥_٤١٦.

٤. صلاح الدين المختار، ج١، ص ١٨٢، استناداً إلى تقرير محمد علي باشا للسلطان العثماني، فقد وصلت قوات إبراهيم باشا إلى الدرعية بتاريخ ٢٥ ربيع الآخر ١٣٣٢: «يستفاد من مفهوم رسالة من طرف جناب سليمان أفندي، كاتب ديوان ابننا، الوزير المكرم جناب إبراهيم باشا والي جدة بتاريخ جمادى الأولى ١٢٣٣ وأرسلت إلى جانبكم أن بضعة أشخاص من البدو والذين دخلوا المدينة المنورة من الدرعية لشراء بعض الأشياء، نقلوا ورووا أن المشار إليه ابننا فتح في اليوم الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر أحد أبواب الدرعية واستولى عليها ضمن الانطلاق من قرية ويرة، بالنصر والظفر وسوف يفتح عن قريب ويستولي على الأبواب الأخرى. وقد وصل ←

وتزامناً مع سقوط الدرعية، دخل القبطان فوستر سادلر[١]، الممثل المرسل من قبل بريطانيا والمقيم في القطيف، منطقة نجد، وأبدى رغبته في الحوار مع إبراهيم باشا. ويرى بعض المؤلفين، أن إرسال سادلر من جانب الحكومة البريطانية إلى الدرعية، خلال فترة أقل من ٤٨ ساعة، يدل على أن الحكومة البريطانية، كانت تراقب بدقة أخبار نجد وتطوراتها وأرسلت سادلر إلى المنطقة نظراً إلى تغلب القوات المصرية كي يفتح باب التفاوض مع قيادة القوات المصرية في شبه الجزيرة العربية[٢].

ويبدو أن إبراهيم باشا لم يشأ أو لم يستطع أن يلتقي سادلر في الدرعية، ولذلك فقد انطلق سادلر في طريق تحرك الجيش المصري نحو المدينة بل وحتى ينبوع استناداً إلى روايته هو نفسه. ورغم أن سادلر قد كتب مذكرات سفره، إلا أنه يتجنب في نصه هذا الشرح الدقيق والواضح للأهداف والنتائج السياسية الأمنية لمهمته. وفي الحقيقة فإنه سعى في أثره لأن يحد من مهمته إلى مستوى زيارة لاستحصال موافقة القوة المصرية بهدف مواجهة خطر القرصنة البحرية لسكان رأس الخيمة وتسليم رسالة حاكم الهند إلى إبراهيم باشا[٣]، إلا أنه لا يقدم إجابة

← الخبر المذكور من جانب ينبوع» أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00342-19563-00001.

١. G.Foster Sadller.

٢. فتحية النبراوي، الخليج العربي [؟] دراسة في العلاقات الدولية والإقليمية، منشأة المعارف بالأسكندرية، (مصر، د.ت)، صص ٢٤٤ ـ ٢٦٦، وأيضاً عبد الحميد البطريق، «الوجود المصري في الخليج العربي [؟] في عهد محمد علي وأثره في السياسة البريطانية ١٨١٩ ـ ١٨٤٠» مجلة الواحة، العدد (١٢) ١٩٩٧، ص ١٠٠، يبدو أن هذا الأجراء أدى إلى أن يذكّر السلطان نفسه محمد علي باشا بشأن بريطانيا. انظر: عبدالرحيم عبدالرحمن عبد الرحيم، من وثائق شبه الجزيرة العربية في عصر محمد علي، المجلد الأول، ١٨١٩ ـ ١٨٤٢ (الدوحة، ١٩٨٢)، ص ٤٧٤.

٣. أصبح هذا الخبر أساس التحليل والروايات اللاحقة حيث يرون أن مهمة سادلر كانت لمجرد

واضحة على هذه الملاحظة وهي أنه إذا كان واجبه الوحيد تسليم الرسالة، فلماذا انتظر لأسابيع في المنطقة الشرقية بل وحتى بوشهر لتسليم هذه الرسالة كي تتضح نتيجة المواجهة المصرية الوهابية[1]. وأخيراً تم لقاء سادلر مع إبراهيم باشا في المدينة، ولكن ورد التأكيد على أن إبراهيم باشا لم يقبل الهدية[2].

واستناداً إلى بعض الروايات، فإن الحكومة البريطانية كانت تخشى استيلاء القوات المصرية على شبه الجزيرة العربية، ذلك لأن القاهرة كانت تشرف من الناحية العملية على الممرات الاستراتيجية الثلاث هرمز، عدن والسويس[3]. ويبدو أن سبب معارضة الباب العالي كانت على وجه آخر. وكان احتمال تحديد حكومة

← كسب تعاون إبراهيم باشا لقمع القواسم والذين كانوا يعملون في القرصنة في ذلك العهد. ويرى الكاتب أنه ومع الأخذ بنظر الاعتبار الفتوى المأخوذة من العلماء السعوديين وهي أنهم اعتبروا الانجليز أهل كتاب، ولا يوجبون الجهاد ضدهم، ومع الأخذ بنظر الاعتبار علاقات خضوع القواسم للحماية مع وهابيي نجد، فإن خطر تعرض القواسم وقرصنتهم خلال هذا العهد وليس السنوات قبله على الأرجح قد طرح بشكل مبالغ فيه. ذلك لأنه وبناء على التقارير التي حصل عليها القواسم فإنهم كانوا يسلمون نسبة من غنائم مثل هذه الاعتداءات إلى نجد. بحيث كان قد تم تسليم من ٤ إلى ١٢ ألف ريال في سنة ١٨٠٩م إلى خزانة النجديين لقاء زكاة هذه الغنائم (انظر: جمال زكريا قاسم، الخليج العربي [؟] دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ١٨٤٠ـ١٥٠٧ القاهرة، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص ٢٨١). وبناء على ذلك فإن التهديد المباشر من جانب القواسم لم يكن قد حدث بعد الفتوى المشار إليها وإذا ببريطانيا تطرح طلب العمليات ضد القواسم معه من خلال إرسال سادلر وبذلك يقرّب من الناحية العملية المصريين من ممر هرمز المائي خلافاً لمصالحه.

1. Sadller, G.F. Diary of a journey Across Arabia from El-Katif in the Persian Gulf to Yambo in the Red Sea, During the year, Bombay 1866.

٢. انظر: محمد عرابي نخلة، تاريخ الإحساء السياسي ١٨١٨ و ١٩١٣، منشورات، ذات السلاسل، الكويت، د.ت، ص ٤١.

٣. محمد حسن العيدروس، ص ١٢٨.

مصر الخديوية من قبل بريطانيا في حين أن القوات المصرية كانت قد أشرفت على أمور الحرمين الشريفين بفتح الدرعية، يعني نهاية عصر الخلافة. وبناء على ذلك فقد كانت القوتان المتنازعتان العثمانية والبريطانية متفقتين كلتيهما في هذا الفصل المهم على هذه المنطقة، حيث يجب السعي لأن تغادر القوات المصرية نجداً والحجاز في أسرع وقت ممكن. ويشترك سبب قلق السلطان الذي يبحث عن سبب تواجد إبراهيم باشا في نجد، أو مشايعة إبراهيم باشا من قبل سادلر وحتى ينبوع في هذه النقطة نفسها[١].

ولا يتوفر حالياً محضر مفاوضات الطرفين أو الوثائق المشتملة على تعليمات الحكومة البريطانية إلى سادلر ولذلك فإن قصارى ما يمكن فعله هو أخذ بعض الاحتمالات بنظر الاعتبار. وتصرح المعلومات المحدودة الحالية والتي تدل على ارتباطات الحكومة البريطانية مع حركة الوهابيين في نجد ثم «التفاهم السعودي الوهابي» بأن المسؤولين البريطانيين، كان لهم بعض التعاملات مع الفرع السعودي لهذا التفاهم «لأسباب مختلفة». ولا يمكن اعتبار هذه المواضع وكذلك اتصال الممثل المرسل إلى نجد للتفاوض مع الممثلية المقيمة التجارية السياسية لبريطانيا في بوشهر، منفصلة عن تعاليم وأهداف سفر سادلر. ولم يكن سادلر قد جاء إلى الدرعية لمجرد إبلاغ رسالة تبريك الحكومة البريطانية للطرف المنتصر أو دعوته للتحالف مع القوات البريطانية. وكان قد جلس منتظراً في القطيف خلال عهد الحصار الذي استمر سبعة أشهر: فقد كان على ممثل بريطانيا أن يبقى في المنطقة وأن يعمل في نهاية الحادثة بمهمته والتي تعد معلوماتنا حولها غير

---

١. يجب أن لا ننسى أن إبراهيم باشا نشر قسماً من قوته العسكرية في القطيف بقيادة خليل آغا وهيأ من خلال ضم أمور نجد إلى إمارة الاحساء تغييراً مهماً في التقسيمات السابقة من الناحية العملية. انظر: محمد حسن العيدروس، ص ١٢٧.

كافية -[1].

وكل هذه المواضع تثير التساؤلات التالية في ذهن الباحث:

- استناداً إلى أي مهمة كان على سادلر أن يحافظ على الارتباط مع التفاهم السعودي الوهابي في إطار «الأسباب المختلفة» التي أشار إليها جونز؟[2].

---

١. يرى الكاتب على أساس الحدث الذي وقع بعد سقوط الدرعية، أي هجوم القوات البريطانية على القواسم في رأس الخيمة لمواجهة قرصنتهم أن بالإمكان أخذ فرضيات أخرى بنظر الاعتبار. بمعنى أن الاعتداءات البحرية في السواحل الجنوبية من الخليج الفارسي كانت قد انحسرت إلى حد ملفت للنظر في تصور واحد، حتى بقاء حكم الدرعية للمنطقة بسبب العلاقات المقامة بين الوهابيين والفتوى الصادرة القاضية بعدم وجوب الجهاد ضد الإنجليز ، ولذلك لم تكن هنالك ضرورة لهذا الإجراء. إلا أن بريطانيا التي كانت تحمل تقييماً دقيقاً لساحة التطورات من خلال إرسال سادلر إلى المنطقة وذلك من خلال حذف الدرعية، قررت أن تنفي هذا الاحتمال قبل نضج مجموعات القواسم وبداية عهد جديد من الاعتداءات. وإلى جانب هذه الفرضية ومن خلال احتمال آخر يوليه المؤلف قيمة أكثر، فإن بالإمكان أن نتصور أن بريطانيا قررت بالنظر إلى تقييم سادلر وعلامة تواجد المعسكر المصري لخليل آغا في القطيف والذي كان من شأنه أن يكون بمثابة سيطرة المصريين على ممر مائي آخر فضلاً عن السويس، أن تبدأ عملياتها البحرية استناداً إلى تحركات القواسم البحرية. وهكذا فقد استولت الحكومة البريطانية على هذا الممر المائي والمنطقة المهمة مستغلة فراغ السلطة وكذلك على القسم الجنوبي من الخليج الفارسي والموقع الدولي المتميز والذي كان قد تأتى لها على إثر سقوط نابليون بونابارت في واترلو. وهي الفرضية التي أيدتها الأحداث اللاحقة أو مبدأ الزمان، دون مستند ووثيقة تؤيد صحتها. وهكذا وعلى الرغم من أن بريطانيا لم تستطع حتى ما قبل هذا العهد إلا أن يوقع على بعض المعاهدات مع إمام مسقط في العامين ١٧٩٨ و ١٨٠٠م، إلا أنه وقع منذ هذا العهد وما بعدها معاهدة ١٨٢٠م/ ١٢٣٥هـ مع شيخ رأس الخيمة وبعد ذلك بفترة قصيرة من تلك السنة نفسها مع شيوخ الساحل الجنوبي وبذلك فقد اضفى المشروعية على تواجده في المنطقة.

٢. كما سبق، فقد أصدر العلماء الوهابيون في ١٨١١م فتوى تفيد بأن الجهاد ضد البريطانيين ليس واجباً لأنهم أهل كتاب. انظر: العيدروس، ص ١٣١.

- هل كلف سادلر بالمهمة لإنقاذ حياته الشخصية الخاصة حيث كان استمرار حياته قد ارتبط بمصالح بريطانيا العظمى وكان متواجداً في مدينة الدرعية عند محاصرتها ثم أسره إبراهيم باشا؟
- ويمكن أن يؤيد الإخفاق الأول للمندوب البريطاني في الالتقاء بإبراهيم باشا والذي استدرجه حتى المدينة أيضاً مع قافلة الأسرى، هذا الاحتمال وهو أن الممثل الخاص الحكومة بريطانيا العظمى كان يتوجب عليه أن يتسلم شخصاً أو وثيقة من القوات المصرية؟ ولكن وعلى أثر امتناع إبراهيم باشا عن لقائه، فإن مندوب بريطانيا أخذ على عاتقه صعوبة طريق المدينة وكان ينوي بعد الالتقاء بقائد قوات حكومة الخديوي، أن يرد جميل القائد المصري من خلال تقديم هدية؟
- رغم أن اللقاء بين سادلر إبراهيم باشا تم في المدينة ويبدو أنه كان مثمراً، فلماذا رفض إبراهيم باشا هدية السفير البريطاني؟

ويرى المؤلف، أن هنالك موضوعين ملفتين للنظر فيما يتعلق بمثل هذه الأسئلة:

١. لم يتيسر للأسف الحصول على التقارير المحفوظة في دار الوثائق بالقاهرة كما أن أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية لا يضم سوى التقارير التي كانت تصل إلى الباب العالي أو التقارير الداخلية عن الاجتماعات التشاورية والتقييمات. ولكن من المسلم به أنه لابد وأن توجد وثائق ومستندات في القاهرة وأرشيف خديوي حكومة مصر عن ساحات العمليات، كشوف الغنائم، الأسرى، قتلى الطرفين، محاضر تسجيل الأموال الموجودة في الحرمين الشريفين وكذلك الوثائق والمستندات التي تم الحصول عليها من فتح الدرعية، إلا أن الحصول عليها ليس ممكناً للأسف وهنالك ملاحظتان في غاية الأهمية في المعلومات

المتبقية المتوفرة: الأولى أن هنالك اختلافاً يلاحظ في عدد الأسرى المنقولين إلى القاهرة. وقد نقل عبدالله بن سعود والبعض الآخر من وجوه أعيان الدرعية وكبار الوهابيين إلى القاهرة. وقد سجل عدد هؤلاء الأشخاص حسب التقديرات الأولية ٣٥٠ شخصاً[١] وسجلت الأسماء على أنها ٢٨٥ شخصاً في التقرير النهائي بعد إعداد القائمة[٢]. وبناء على ذلك فإن هنالك أشخاصاً حذفوا من القائمة في هذه الفترة وأسماؤهم ليست معروفة وإذا ما قل عددهم مرة أخرى قبل وصول الأسرى إلى القاهرة، فهل يمكن اعتبار قسم من مهمة سادلر استلام أو إطلاق سراح شخص أو بعض الأشخاص؟

٢. وكانت توجد في وصف خصوصيات مخطوطة لمع الشهاب قضية أساسية: يعود رقم كتابة النسخة الوحيدة الموجودة من هذا الأثر المهم والذي باعته أسرة تيلور إلى المتحف الوطني البريطاني إلى يومين فقط قبل نجاح إبراهيم باشا في فتح الدرعية. ومع أخذ هذا الموضوع بنظر الاعتبار، فهل كان كاتب هذا الأثر متواجداً في ساحة العمليات الحربية وبين القوى المدافعة عن الدرعية؟ وإذا ما كان مثل هذا الاحتمال قريباً من الأمر الواقع، فحينئذ يمكن أن نتصور أن مهمة سادلر كانت، فضلاً عن إطلاق سراح مثل هؤلاء الأشخاص، جمع المصادر والوثائق التي تعد في غاية الأهمية في إعادة بناء تاريخ السنوات موضوع بحثنا والأدوار الأولى من تشكيل دولة نجد المستقلة.

واستناداً إلى المعلومات المدرجة في وثائق الدولة العثمانية فإن إبراهيم باشا أقدم على نقل الأسرى والغنائم مع فتح الدرعية. ولعل أهم معطيات هذه العمليات نقل صندوق يضم بعض نذور وهدايا خزانة الحرم النبوي في المدينة والتي كانت

---

١. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00346-19698-00001.

٢. المصدر السابق، HAT-00346-19698-00001.

قد نهبت خلال عمليات سعود واعتدائه على المدينة[١]. وقد كان يوجد بين الأسرى وكما يستفاد من التقارير الحاصلة مجموعة من النساء بل وحتى المسنين، فضلاً عن عبدالله بن سعود نفسه وبعض عماله حيث ثم أسكنهم علي باشا بعد دخوله مصر في موضع باسم باغ شبراً في القاهرة. وقد أجاب السلطان العثماني على الاستعلام منه بخصوص نفي هؤلاء الأشخاص إلى موضع آخر قائلاً: «بما أن معظمهم مسنون ومرضى وصبيان ونساء، فسوف يكون تأديبهم أو نفيهم إلى موضع آخر عملاً لا فائدة من ورائه. فلتعط المرتبات بقدر الكفاية وليسكنوا في داخل مصر أو في موضع مناسب إلى جوارها»[٢].

وقد تم عرض الآثار المنهوبة على السلطان في إستانبول . وفضلا عن أن السلطان رضي بمشاهدة هذا القسم القليل المتبقي من ذخائر الحرم النبوي[٣]. وأصدر الأمر بترميم الأضرار التي تكبدتها فإنه أمر بإعادة هذه المجموعة إلى موضعها الأصلي بعد إعداد قائمة بها.

---

١. في هذا المجال، انظر: أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00548-27042-00001.

٢. المصدر السابق، HAT-00346-19698-00001.

٣. قال السلطان بعد رؤية هذه المجموعة إنه «على الرغم من أن محمد علي باشا والي مصر لم يحرر شيئاً في هذا الخصوص، إلا أنها تبركات شريفة كان المرحوم حضرة أبي وسائر أسلافنا الكرام قد أرسلوها سابقاً إلى الروضة المطهرة لسيد الأنام. سبحان الله، على الرغم من أن استعادتها من يد الخوارج تبدو محالة عقلاً، إلا أنها وصلت إلى يد هذا العبد العاجز بفضل الله وإحسانه. ولأن اليوم هو يوم عقد الاجتماع فإني أرسلها إلى جانبكم كي تزوروها أنتم وسائر أرباب الاجتماع أيضاً. أعيدوها من جديد بعد الزيارة إلى جانب ملكنا كي يتم ترتيب تعميرها في دار المسكوكات وإرسالها لوضعها في مكانها الأصلي إلى الروضة المطهرة. اللهم وفقني لهذه الخدمة أيضاً والتي لا أستطيع شكرها» انظر، أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00584-27091-19698-00001.

وفي القاهرة،قام عبدالله بن مسعود بالتحقيق مع متصدي خزانة الملابس عبيد الله السري وكاتبه الثاني عبدالعزيز في جهاز الخديوي محمد علي باشا. وكان الموضوع الرئيس لمحضر استجواب المذكورين مختصاً بنهب الذخائر الموجودة في الحرم الحسيني والحرم النبوي واللذين كانا قد تعرضا للاعتداء خلال عمليات سعود بن عبدالعزيز. واستناداً إلى المحضر المذكور فإن هؤلاء الأشخاص الثلاثة خضعوا للاستجواب بشكل منفصل. وإفاداتهم تتطابق مع بعضها البعض. واستناداً إلى محضر هذه المحاكمة فقد كان عبدالله بن مسعود يؤكد أنه لم يتعاون مع أبيه في الهجوم على كربلاء إلا أنه كان متواجداً في عمليات المدينة وعندما شاهد جسارة أبيه في دخول الحرم النبوي واطلع على تطاوله على الهدايا والنذور فإنه أبدى إدانته لهذا العمل الشنيع ولم يلتق بعد ذلك أباه ولم يتصل به بعد ذلك:

« ... ويبدو أنه هو نفسه انفصل عن أبيه متنفراً بعد وقوع هذه القضية واعتزله ولم يزره حتى زمان وفاته».

كما يتبين[١] من تصريحات المذكورين أن سعود بن عبدالعزيز دخل الحجرة النبوية مع كاتبه، جبر وحاشيته هم عبدالله بن مطلق، غصاب، حباب،أحمد الحنبلي وإبراهيم بن سعيد ونهبوا ذخائرها ونفائسها. ثم أودع مسعود قسماً من هذه الآثار في داخل صندوق عند ابنته في الدرعية كما باع قسماً ملفتاً للنظر إلى الشريف غالب، شريف مكة. ونقل الشريف بدوره هذا القسم من الآثار إلى الهند عن طريق صهره محمد العطاس وباعه هناك[٢]. ومع كل ذلك، واستناداً إلى رواية جونز فقد نقل عبدالله بن سعود معه إلى القاهرة «صندوقاً صغيراً من العاج، مثل

---

١. المصدر السابق، HAT-00344-19627-00001.

٢. أرشيف رئاسة الوزراء في الجمهورية التركية: HAT-00548-27091-00001.

صندوق المجوهرات» من هذه المجموعة حيث كان يضم «ثلاثة مصاحف مزينة بالياقوت على الغلاف، ثلاثمائة لؤلؤة جميلة وزمردة كانت معلقة بسلسلة من الذهب» وسلمها إلى محمد علي باشا خديوي مصر، حيث أرسلها بدوره إلى إستانبول مع الأسرى[١].

❋ ❋ ❋

ويبدو من دراسة قصة ظهور وهابيي نجد وسقوطهم أن معلوماتنا عن هذه التطورات ما تزال محدودة وغير كافية. وهنالك الكثير من الوثائق والمستندات في الأرشيفات الحكومية لا يمكن للباحثين التوصل إليها إلا من خلال مرور الزمان. وفضلاً عن الوثائق الرسمية والحكومية، فلربما حصلنا على المراسلات الشخصية والوثائق العائلية التي ستتيح لنا حسب روايتها ومع التقارير الرسمية إمكانية إصدار أحكام أكثر موضوعية.

ونحن ننوي في البحث الحالي أن نتحدث عن نظام متوازن لتحليل الظواهر التاريخية في منطقتنا. ويجب أن لا نبالغ في الترابط في المنطقة التي نعيش فيها مع العالم حولنا واهتمام القوى الكبرى العالمية بهذه المنطقة، بنفس النسبة التي يجب من خلالها عدم تجاهل القضايا الإقليمية في كتابة التاريخ.

وتمثل العناصر العديدة للخصائص المحلية والجغرافية الخاصة، اللاعبون الرسميون وغير الرسميين، الأذواق والسلوكيات المقترنة مع مشاعرنا وعواطفنا الشرقية، مع رؤية الأجانب الهادفة إلى مصالحهم في الارتباط بهذه المنطقة، مجموعة عوامل تجعل من كتابة التاريخ عملية عسيرة والحكم على الأحداث معقداً وغامضاً.

ولكن وعلى الرغم من هذه الملاحظات ، فإن التجارب التاريخية في منطقتنا

---

١. جونز، ص ٣٩٦.

تتكرر للأسف في حالة جديدة. فحكومة نجد الوهابية تظهر من جديد في الساحة السياسية للمنطقة. ولسلوكيات واتجاهات حكامها في المرحلة الثانية، وجوه شبه عديدة مع العهد الذي نشير إليه في هذه الدراسة. صحيح أن الدولتين الثانية والثالثة للوهابيين السعوديين لم تسقطا إلا أن تكرار هذه التجربة التاريخية في شكلها الجديد لا يمكن أن يكون بعيداً عن الذهن، كما أن تجربة الحرب بين إيران والدولة العثمانية في القرن التاسع عشر كانت لها وجوه شبه مع تجربة الحرب بين العراق وإيران. حيث تكررت للأسف.

والتساؤل الأهم الذي يدور في ذهننا هو سبب تكرار التجارب التاريخية وعدم أخذنا العبر منها. يبدو أن الجواب على هذا السؤال ليس بالصعب كثيراً: فنحن لا نمتلك تجربة في كتابة التاريخ ولم نتعمق في دراسة تاريخنا. والرأي العام للكثير من بلدان المنطقة يحمل صورة وهمية عن ماضيه التاريخي وهي لم تأخذ بعين الاعتبار الاهتمام الجاد بتدوين تاريخها، على أساس نظام مقنن. وهذه الخصوصية هي التي تظهر الأحداث التاريخية وكأنها قابلة للتكرار ولو أن العراقيين كانوا قد عمدوا بشكل دقيق وعادل إلى دراسة حرب السنوات الثمانية التي فرضها صدام على إيران وسجلوا تاريخ حربهم بدقة وبشكل وثائقي، لما كرروا تجربة الحرب ضد الكويت ثم الحرب مع أمريكا والتحالف العالمي.

إن الافتقار إلى الذاكرة التاريخية الدقيقة والموثّقة لكل بلد في منطقتنا من شأنه أن يستتبع ضربات قاصمة لا يمكن تلافيها. وانعدام الدراسة التاريخية فيما يتعلق بالأحداث الماضية سواء كانت مرّة أم حلوة لا يسمح لنا بأن نقوم بحسابات دقيقة لنفقاتنا أو منافعنا في الأحداث التاريخية. ولذلك فإن مفهوم الترابط التاريخي بين شعوب الشرق الأوسط ثم حكومات هذه المنطقة لم يجد مصداقاً إلا على مستوى أقل. خلافاً لما هو عليه الحال في أوروبا.